توني موريسون

العيـــن الأكثــر زرقـــة

(نوبل ٩٣)

ترجمة: فاضل السلطاني

العين الأكثر زرقة

الطبعة الأولى - 1997

دار الطليعة الجديدة

سوريا - دمشق - ص.ب 34494

هـ: 7775872

اخراج: هالة قطوم
صمم الغلاف : جمال سعيد
لوحة الغلاف: للفنانة أسماء فيومي

هنا البيت. أخضر وأبيض، له باب أخضر، بيت جميل جداً، هنا العائلة الأم، الأب، «ديك» و«جين» يعيشان في البيت الأخضر ـ الأبيض.

إنهما سعيدان جداً. انظر إلى جين. إنها ترتدي ثوباً أحمر. تريد أن تلعب. من سيلعب مع «جين». انظر إلى القطّة، إنّها تظل تموء «مَوْ مَوْ» تعالي والعبي مع جين. القطة الصغيرة لن تلعب.

انظر إلى الأم. الأم لطيفة جداً. هل تلعبين يا أمُّ مع جين؟ الأم تضحك. اضحكي يا أمّ، اضحكي. انظر إلى الأب. إنه ضخم وقوي. الأب يبتسم. ابتسم أيها الأب، ابتسم. انظر إلى الكلب. إنه يعوي «عَوْ عَوْ» هل تريد أن تلعب مع جين؟ انظر. الكلب يجري. أجرِ ياكلب أجرِ. يأتي صديقي. الصديق سيلعب مع جين. سيلعبان لعبة مسلية. العبي ياجين العبي.

هنا البيت أخضر وأبيض له باب أحمر إنّه بيت جميل جداً هنا العائلة والأب ديك وجين يعيشون في البيت الأخضر والأبيض إنهم سعداء انظر إلى جين أنها ترتدي ثوباً أحمر إنها تريد أن تلعب من سيلعب مع جين انظر إلى القطة إنها تموء مَوْ مَوْ تعالي والعبي تعالي إلعبي مع جين القطة الصغيرة لن تلعب انظر إلى الأم الأم لطيفة جداً هل ستلعبين مع جين الأم تضحك اضحكي ياأمّ اضحكي انظر إلى الأب انه ضخم وقوي أيها الأب هل ستلعب مع جين الأب يبتسم ابتسم أيها الأب ابتسم انظر إلى الكلب عَوْ عَوْ يعوي الكلب هل تريد أن تلعب مع جين انظر إلى الكلب يجري. إجرِ يا كلب إجرِ. صديق يأتي سيلعب مع جين سيلعبان لعبة مسلية العبي يا جين العبي.

هنا البيت إنه أخضر وأبيض وله باب أحمر إنه بيت جميل جداً هنا العائلة الأم والأب ديك وجين يعيشون في البيت الأخضروالأبيض إنهم سعداء انظر إلى جين إنها تريدي ثوباً أحمر إنها تريد أن تلعب من سيلعب مع جين انظر إلى القطة إنها تموء مَوْ مَوْ تعالي والعبي تعالي العبي مع جين

القطة الصغيرة لن تلعب انظر إلى الأم الأم لطيفة جداً أيتها الأم هل ستلعبين مع جين الأم تضحك اضحكي أيتها الأم اضحكي انظر إلى الأب إنه ضخم وقوي الأب يبتسم ابتسم أيها الأب ابتسم انظر إلى الكلب إنه يعوي عَوْ عَوْ هل تريد أن تلعب مع جين انظر الكلب يجري إجري إجر ايها الكلب إجرِ يأتي صديق الصديق سيلعب مع جين سيلعبان لعبة لطيفة العبي ياجين العبي.

لم تنمُ أزهار القطيفة في خريف ١٩٤١. واعتقدنا، وقتها، أنها لم تنمُ لأن بيكولا كانت حبلى بطفل أبيها.

وبعد استقصاء، وبمشاعر أقل سوداوية، ثبت لنا أن بذورنا لم تكن البذور الوحيدة التي لم تنبت. لم تنبت بذور أحد. ولم تظهر أزهار القطيفة حتى في الحدائق المواجهة للبحيرة. لم يكن بوسعنا، بسبب انشغالنا العميق بصحة وولادة طفل بيكولا ولادة سليمة، أن نفكر بأيّ شيء آخر سوى باستخدام السحر. إذا غرسنا البذور، وقرأنا عليها الكلمات المناسبة، فإنها تزهر ويكون كل شيء على ما يرام.

مرّ وقت طويل قبل أن نعترف لأنفسنا، أختي وأنا، بأن لا نبت سيطلع من بذورنا. ولم يخفف من ذنبنا سوى الشجار والاتهامات المتبادلة حول على من يقع اللوم. اعتقدت لسنوات أن أختي كانت على صواب: لقد غرسنا البذور عميقاً في الأرض، ولم يخطر على بال أي منا أن الأرض نفسها قد لا تكون ملائمة. لقد أسقطنا بذورنا فوق تربة أرضنا الصغيرة السوداء، تماماً كما فعل والد بيكولا لذي أسقط بذوره فوق تربة أرضه السوداء.

لم تأتِ براءتنا وإيماننا بثمار أكثر من ثمار شهوته أو يأسه. وما هو واضح الآن أنّه لم يبق من كلّ ذلك الأمل، والخوف، والشهوة، والحب، والأسى، سوى بيكولا والأرض غير الطيبة. مات كولي بريدلوف وماتت براءتنا أيضاً.

ذبلت البذور وماتت، ومات طفلها أيضاً.

حقاً لم يعد هناك الشيء الكثير ليقال، ماعدا «لماذا». وما دام من الصعب الأمساك بـ«لماذا». فيجب على المرء أن يلتجيء إلى «كيف».

الخريف

تمرّ العجائز بنا هادئات كالشهوة، والسكارى والعيون الصاحية تغني في ردهة الفندق اليوناني، وصديقنا الجار روزيمري فيلانوشي، الذي يعيش فوق مقهى أبيها، يجلس في«بويك ١٩٣٩» يأكل الخبز والزبدة، تطل برأسها من نافذة السيارة لتخبرني وتخبر أختي فريدا بأننا لا يمكننا الدخول. حدقنا فيها راغبتين في خبزها، وأكثر من ذلك راغبتين في انتزاع تلك الغطرسة من عينيها، وتحطيم كبرياء التملك التي تجعّد فمها الذي يلوك الآن لقمته. عندما تخرج من السيارة سنضربها ونترك ندوباً حمراء فوق جلدها الأبيض. ستبكي وتقول لنا هل نريد منها أن تنزع سروالها الداخلي. سنقول لها: لا. نعرف بماذا سنشعر أو ماذا نفعل إذا فعلت ذلك، ولكننا نعرف، عندما تسألنا بأنها تقدم لنا شيئاً نفيساً، وإننا نرضي كبرياءنا برفضنا طلبها.

بدأت المدرسة وحصلنا، فريدا وأنا، على جوارب جديدة، وعلى زيت سمك. كان الكبار يتحدثون بأصوات متعبة منفصلة عن شركة الفحم «زيك»، ويأخذوننا في المساء إلى خطوط السكك الحديدية حيث نملأ أكياس الخيش بقطع الفحم الصغيرة المتناثرة هناك، وبعد ذلك نعود إلى البيت ملقين نظرات سريعة على الشاحنات وهي تُفرغ حمولتها من أكياس الفحم المدخّن في الوادي الصغير عند حافة طاحونة الفولاذ. كانت النار التي توشك على الانطفاء تضيء السماء بوهج برتقالي باهت. وكنا، فريدا وأنا، نتخلف عنهم لنحدّق في رقعة الضوء المحاطة بالسواد. كان من المستحيل

ألاّ نشعر برعشة عندما تغادر أقدامنا الطريق المفروشة بالحصباء ونغوص في عشب الحقل الساكن.

بيتنا قديم، بارد، وأخضر. في الليل يُضيء مصباح الكيروسين غرفة كبيرة واحدة، ويلف الظلام الغرف الأخرى المسكونة بالصراصير والفئران. الكبار لا يتحدثون إلينا ـ إنهم يعطوننا توجيهات فقط. يصدرون الأوامر دون تقديم توضيحات. عندما نتعثر ونسقط يلقون نظرة عجلى علينا، وعندما نُجرح أو نخدش أنفسنا يسألوننا عما إذا كنا مجانين، وعندما نصاب بالزكام يهزون رؤوسهم مشمئزّين من عدم مراعاتنا لمشاعرهم.

يسألوننا: كيف تتوقعون منا أن نفعل أي شيء وأنتم كلكم مرضى؟ لا نستطيع أن نجيبهم. يتعاملون مع أمراضنا باحتقار. بلّدوا عقولنا بالنقوع وزيت الخِروَع.

سعلتُ مرّةً، بصوت عالٍ، سعالاً صادراً من قصباتي الهوائية مختلطاً بالبلغم، فقطبت أمي جبينها وهي تقول: «يايسوع العظيم! اذهبي للفراش. كم أخبرتك ياحمقاء أن تضعي شيئاً فوق رأسك؟ لا توجد في كل المدينة فتاة بلهاء مثلك. فريدا اجلبي بعض الخِرق، وأغلقي بها الشباك».

تغلق فريدا الشباك بالخِرق، وأذهب أنا متعبة إلى الفراش. يملأني شعور بالذنب والشفقة على النفس. اضطجع بثيابي الداخلية، وأحّس بألم في ساقيّ بسبب المعدن في رباط الجورب، ولكنني لا أستطيع نزعه فالفراش باردٌ جداً دون جوارب. يمر وقت طويل قبل أن يدفىء جسدي موضعي في السرير. بعد أن يتورّد هذا الدفء، لا أجرؤ أن أتحرك في أيّ اتجاه، فكل إنش من السرير بارد.

لا أحد يتحدث معي أو يسألني عن حالي. تأتي أمي بعد ساعة أو ساعتين. يداها كبيرتان وخشنتان، ثم تبدأ بفرك صدري بمرهم «فيكس»، فأتصلّب من الألم. تملأ أصبعين منه ثم تدلك صدري حتى أصاب بالغثيان. وفي اللحظة التي أشعر فيها أني على وشك الصراخ، تغرف قليلاً من المرهم بسبابتها وتضعه في فمي وتأمرني أن أبلعه.

فانيلة ساخنة تلف رقبتي وصدري. لحافٌ ثقيلٌ يغطيني، ويأمرني أن أتعرّق، وهذا ما أفعله على الفور.

فيما بعد اتقيأ وتقول أمي: «لماذا تقيأت على ملابس النوم؟ ألا تملكين عقلاً فتمدي رأسك خارج الفراش؟ انظري الآن ماذا فعلت هل تعتقدين أن لا شغل عندي سوى غسل قذارتك؟

يسيل القيء من المخدة إلى الشرشف ـ أخضر ـ رمادياً مع نقاط برتقالية. أنه يتحرك مثل محتوى بيضة غير مسلوقة، يتمسك بقشرته ويرفض بعناد مغادرتها. وتعجبت، على أية حال، كيف يكون صافياً جداً وقذراً في الوقت نفسه؟

صوت أمي يئزّ. أنها لا تتحدث معي، بل مع القيء، وتسميه باسمي: كلوديا. تمسحه بأقصى ماتستطيع، ثم تضع منشفة مزركشة على الموضع الرطب الواسع. أتمدد ثانية. تنزاح الستائر عن النوافذ، والهواء بارد. لا أجرؤ على مناداة أمي، وأكره أن أغادر الدفء. يجعلني غضب أمي أشعر بالحزن، وكلماتها تقرّح خديّ فأبكي. لم أدرك أنها ليست غاضبة عليّ. بل على مرضي. أعتقد أنها تحتقر ضعفي لأني سمحت للمرض أن «يستولي» عليّ. لن أمرض بعد الآن. سأرفض ذلك، ولكني الآن أبكي. ويسيل مني مخاط كثير، ولكني لا أستطيع إيقاف ذلك.

تأتي أختي. عيناها مليئتان بالحزن. أنها تغنّي لي: «عندما يتدلى الأرجواني الغامق على سور الحديقة النائمة..شخص ماسيفكر بي».

يغلبني النعاس وأنا أفكر بالأرجواني المزرق، والجدران، و«شخص ما».

ولكن هل كان الأمر هكذا حقاً؟ مؤلماً لهذه الدرجة كما أتذكر؟

كان معتدلاً، أو بالأحرى منتجاً ومثمراً. الحب ـ كثيفاً وقاتماً مثل شراب ألاجا، يرتاح في تلك النافذة المتصدعة. أستطيع أن أشمه ـ أتذوقه عذباً، عفناً، وفي تركيبة تلك الشجيرة البيضاء الزهر حمراء الثمر(*) على

(*) هي شجرة تنبت في شمال أمريكا، تكون أزهار بيضاء وثمارها حمراء.

قاعدتها ـ كانت في كل مكان في ذلك البيت التصقت، سوية مع لساني، بألواح النافذة الزجاجية المغطاة بالبخار المتجمدّ. غطت، مع المرهم، صدري، وعندما انحلت أزرار الفانيلة وأنا نائمة، ضربت منعطفات الهواء الحادة حنجرتي. وفي الليل، عندما أصبح سعالي جافاً وقوياً، دخلت الغرفة أقدامٌ بخطى خافتة. زرّرت أيدٍ الفانيلة، وعدّلت اللحاف، ثم استقرت، للحظة، على جبيني. ولذلك فانني عندما أفكر بالخريف، أفكر بشخص ذي يدين لا يريدني أن أموت.

كان خريفاً أيضاً عندما أتى السيد هنري. المستأجر! المستأجر! طارت الكلمات من الشفاه، ورفرفت فوق رؤوسنا. كان صامتاً، منعزلاً. غامضاً غموضاً محبّباً. اقتنعت أمي به وارتاحت لمجيئه.

قالت لأصدقائها: «أنتم تعرفونه: هنري واشنطن كان يعيش هنا مع الآنسة ديللا جونس في شارع ١٣. ولكنها أُصيبت باضطراب عقلي، ولم يستطع الاستمرار معها. وهو يبحث الآن عن مكان آخر».

وقالت صديقاتها وهن لايخفين فضولهن: «أوه، نعم».

ـ «كنت أتساءل دائماً حتى متى يستطيع أن يبقى معها. يقولون أنها سيئة فعلاً».

ـ «حسناً، ذلك الزنجي العجوز المخبول الذي تزوجته قد خبلها».

ـ «هل تعرفون ماذا قال لأصحابه عندما تركها؟».

ـ «أوه، أوه، ماذا؟».

ـ «لقد هرب مع تلك التافهة «بيجي» من إليريا».

ـ «واحدة من فتيات العجوز «سلاك بيسي؟»».

ـ «أنها هي. سأله أحدهم لماذا ترك امرأة طيبة ورعة مثل ديللا من أجل تلك البقرة. فأجاب أن السبب الحقيقي وراء ذلك هو أنه لم يعد يتحمل الماء البنفسجي الذي تستخدمه ديللا، وكانت ديللا، كما تعرفون، تحافظ دائماً على نظافة بيتها. وأضاف أنه أراد امرأة تفوح منها رائحة امرأة، وأن «ديللا» كانت نظيفة أكثر مما ينبغي بالنسبة له.

ـ «الكلب العجوز: كم مقززٌ ذلك!».

ـ «أيّ عذر هذا!».

ـ «ليس عذراً. بعض الرجال مجرد كلاب».

ـ «هل ذلك ما سبب لها الصدمة؟».

ـ «قد يكون ساعد على ذلك. ولكن كما تعرفين لم تكن أية فتاة منهن فطنة هل تذكرين تلك المرأة ذات التكشيرة «هاتي»؟» لم تكن أبداً بحال سليمة، وكذلك «انتي جوليا» التي ماتزال تهرول في الشارع ١٦ ذهاباً وإياباً وهي تتحدث مع نفسها».

ـ «ألم يأخذوها إلى مستشفى الأمراض العصبيّة؟».

ـ «لا، لم تأخذها البلدية. يقولون أنها لم تؤذ أي شخص».

ـ «حسناً، إنها تؤذيني. هل أنتن بحاجة إلى شخص يحوّل حياتكن إلى جحيم؟ عليكن إذن الاستيقاظ في الخامسة والنصف صباحاً، مثلما أفعل، ورؤية تلك العجوز الشمطاء تهيم على مقربة منكنّ بقلنسوتها. يارحمة الله».

وضحكن.

نغسل فريدا وأنا مرطبانات «ميسون». لا نسمع كلماتهن. كنا نصغي في حضرة الكبار وننتبه إلى أصواتهم .

ـ «آمل ألا يدعني أحد أهيم هكذا عندما أصبح عجوزاً خرفة».

ـ «ماذا سيفعلون بـ«ديللا»؟ أليس لها أحد؟».

ـ «ستأتي أختها من نورث كارولينا لتهتم بها: ولكنّي أعتقد أنها، تريد أن تستولي على بيتها».

ـ «آه، مهلك إنها فكرة شيطانية لم أسمع بمثلها».

ـ «عندي يقين بأن هنري سيتزوجها قريباً».

ـ «يتزوج هذه المرأة العجوز؟».

ـ «حسناً، أن هنري أيضاً ليس كتكوتاً».

ـ «نعم، ولكنه ليس أبله».

ـ «لم يتزوج أبداً من قبل؟».

ـ «لا».

ـ «وكيف ذلك؟ هل قطعه له أحد ما؟».

ـ «إنه مجرد شخص صعب».

ـ «ليس صعباً. هل ترين حولك من تصلح للزواج؟».

ـ «حسناً، لا».

ـ «إنه شخص عاقل، متزن الشخصية ودمث. آمل أن يتم الأمر على خير».

ـ «آمل ذلك حقاً. كم إيجار الغرفة؟».

ـ «خمسة دولارات كل أسبوعين».

ـ «سيساعدك ذلك كثيراً».

ـ «سنرى».

كان حديثهن يشبه رقصة بارعة. صوت، مقابل صوت، اهتزاز وتراجع، صوت يدخل ولكن سرعان مايزيحه عن المسرح صوت آخر. الاثنان يدوران حول بعضهما ثم يتوقفان. تتحرك كلماتهن، أحياناً، بشكل لولبي، وتقفز، في أوقات أخرى، قفزات حادة، وكل ذلك يتخلله ضحك نابض بالدفء، مثل نبض قلب مصنوع من هُلام. كانت انفعالاتهن الحادة، المتحركة كاللولب، المندفعة، واضحة بالنسبة لفريدا ولي. لا نفهم كلماتهن، لا نستطيع أن نفهمها، فقد كنا في التاسعة والعاشرة من العمر، ولذلك نراقب وجوههن، أياديهن، أقدامهن، ونصغي، بحثاً عن الحقيقة، في رنّة أصواتهن.

عندما وصل السيد هنري، في ليلة أحد، شممنا رائحته. كانت تفوح منه رائحة رائعة مثل رائحة الشجر وكريم الليمون، وشامبو الشعر. كان يبتسم كثيراً كاشفاً عن أسنان صغيرة متساوية تتوسطها فجوة محببة. لم

يقدمنا أحد إليه كانوا يستخدمون الإشارات فقط. مثلاً هنا الحمام، وهنا خزانة الملابس، وهاتان ابنتانا فريدا وكلوديا، انتبه لهذا الشباك فإنه لا ينفتح...

نظرنا إليه جانبياً دون أن نقول شيئاً، ولم نتوقع منه أن يقول شيئاً. هزّ رأسه فقط كما فعل عند خزانة الملابس معترفاً بوجودنا، ثم، لدهشتنا، تحدث إلينا:

«أهلاً. لابد أنك غريتا غاربو، ولا بد أنك غنجر وجرز».

قهقهنا، وحتى أبي شرع بالابتسام

«تريدان بنساً؟» قدم لنا قطعة لامعة فنكست فريدا رأسها، وبدت مسرورة جداً بحيث لم تقدر على الإجابة. مددت يدي إلى القطعة المعدنية، ولكنه أطبق إبهامه وسبابته فجأة، فاختفت القطعة. اختلطت الصدمة بالمتعة، ورحنا نفتشه، ندخل أصابعنا في جواربه، وننظر داخل سترته. إذا كانت السعادة هي توقع مع يقين، فإننا كنا سعداء. أدركنا، ونحن ننتظر القطعة أن تظهر ثانية، أننا كنا نسليّ بابا وماما. كان بابا يبتسم، وكانت عينا ماما تراقبان برقّة حركة أيدينا وهي تتجول على جسم السيد هنري.

لقد أحببناه، ولم تخالط ذكراه أية مرارة حتى بعد ماحدث لاحقاً.

نامت بيكولا معنا في السرير، فريدا على حافته لأنها شجاعة ـ لم يخطر على بالها أبداً بأن «شيئاً» قد يزحف تحت السرير ويعض أصابع يدها المتدلية من طرف السرير. أما أنا فأنام جنب الجدار لأن تلك الفكرة تخطر على بالي دائماً ولذلك كان على بيكولا أن تنام في الوسط.

كانت أُمنا قد أخبرتنا، قبل يومين، بأن «شخصاً» سيأتي إلى بيتنا، فتاة لا تملك مكاناً آخر تلجأ إليه. اختار مجلس البلدية بيتنا لتبقى فيه بضعة أيام حتى يقرروا ماذا يفعلون بها، أو، بشكل أدق، حتى يلتئم شمل عائلتها ثانية، وعلينا أن نكون لطيفتين معها. وأن لا نتشاجر معها.

لم تعرف أمي «ماذا حصل لأولئك الناس»، ماعدا أن ذلك العجوز «دوغ بريدلوف» قد أحرق بيته، وجنّن زوجته، فوجدوا أنفسهم في العراء.

العراء، كما عرفنا، هو الرعب الحقيقي في الحياة. أن تكون مهدداً بالقذف في العراء، أصبح شيئاً مألوفاً في تلك الأيام. ولذلك كان ينبغي تجنب أي إفراط. فإذا أكل شخص أكثر مما يجب، فإنه قد ينتهي إلى العراء، وإذا استخدم الفحم أكثر مما يجب، فإنه قد ينتهي إلى العراء.

وقد يقامر الأشخاص في العراء، ويدمنون على الشراب في العراء. وأحيانا ترمي الأمهات أبناءهن في العراء، وعندما يحصل ذلك، فإن الجميع يتعاطف مع الابن المطرود بغض النظر عمّا فعله؛ إنه في العراء، وأن أسرته قد فعلت ذلك.

أن يقذفك مالك البيت إلى العراء شيء آخر - أمر تعس، ولكنه جانب من جوانب الحياة لاتستطيع أن تتحكم فيه. مادمت لا تستطيع أن تتحكم بدخلك. ولكن أن تكون متوانياً للدرجة التي تقذف فيها شخصاً في العراء أو تكون عديم القلب للدرجة التي تلقي فيها قريبياً لك في العراء، فذلك هو فعل إجرامي.

هناك فرق بين أن تطرد من المنزل وبين أن تقذف في العراء. إذا طردت من المنزل، فبإمكانك أن تذهب إلى مكان آخر، وإذا قذفت في العراء، فليس هناك مكان يمكن أن تذهب إليه. الاختلاف بينهما دقيق ولكنه نهائي. العراء هو نهاية شيء، متعذر التغيير، واقعة مادية تعينّ وتكمل شرطنا الميتافيزيقي. ولكوننا أقلية، في الطائفة والطبقة، فإننا نتحرك على حافة الحياة باتجاه أي شيء، مكافحين لبث القوة في ضعفنا حتى نستمر، أو نندس في ثنايا الثوب الكبيرة. إنّ وجودنا الهامشي، على أية حال، هو شيء تعلمنا التعامل معه بسبب أنه وجود مجرد على الأرجح. ولكن مادية وجودك في العراء، هي أمر آخر مثل الفرق بين مفهوم الموت وبين أن تكون ميتاً فعلاً. الميّت لايتغير. والعراء هو هنا ليبقى.

ولدّ فينا العراء الجوع للملكية والتملك. امتلاك نهـائي لفنـاء، لشـرفة، لعريشة عنب. لقد صرف المالكون السود كل طاقاتهم، وكل حبهـم في بنـاء أعشاشهم. انهمكوا، مثل طيور مستقتلة مسعورة، بزخرفة كل شيء: كانوا قلقين وأولوا اهتماماً أكثر مما ينبغي لبيوتهم الـتي امتلكوهـا بصعوبـة. لقـد علّبوا وخزنوا طوال الصيف ليملأوا الصوانات والرفوف، ودهنوا، وكسـروا، وأحدثوا ثقوباً في كلّ ركن من بيوتهم التي كانت تلوح مثل عباد الشمس في مستنبت زجاجي وسط صفـوف مـن الأعشـاب الضـارة. يلقـي المسـتأجرون السود نظراتٍ عجلى مختلسة على الفناءات والشرفات المملوكة، ويجعلهـم ذلك يقطعون على أنفسـهم التزامـات راسـخة بـأن يشـتروا «مكانـاً صغـيراً لطيفاً» فتراهم يشقون في جمع المال، ويقتّرون، ويكدّسـون مايسـتطيعونه في أكواخهم المستأجرة متطلعين إلى اليوم الذي يمتلكون فيه بيتاً.

آنئذٍ، وبعد أن قـذف بعائلتـه إلى العـراء، حكـم كـولي بريدلـوف، وهـو مستأجر أسود، على نفسه بالدمار خارج كـل الاعتبـارات الانسـانية. لقـد أنضم إلى فصيلة الحيوانات وفي الحقيقة، كان، هو نفسـه، كلبـاً عجـوزاً، أفعـى، زنجيـاً شـبيهاً بفـأر. بقيـت السيدة بريدلـوف مـع السـيدة الـتي تستخدمها. أما الولد، سامي، فقد بقي مع عائلة أخرى. وجـاءت بيكـولا لتعيش معنا. ودخل كولي السجن.

جاءت بدون أي شيء، حتى بدون حقيبة صغيرة تحوي ملابسـها، أو ثوب نوم، أو سروال تحتاني. ظهرت مع امرأة بيضاء ثم جلست. توقفنـا، فريدا وأنا، عن العراك، وركزنا نظراتنا على ضيفتنا، محاولتين جهدنـا أن نشعرها أنها في بيتها.

حين اكتشفنا أنها لا تريد أن تسيطر علينا أحببناهـا. وكـانت تضحـك حين أقوم بحركات بهلوانية، وتتقبل بلطف الأكل الذي تقدمه لها أختي.

«هل تحبين البسكويت؟».

«لا بأس» فنجلب لها أربع قطع من البسكويت في صحن صغـير. مـع حليب في قدح «شيرلي تمبل» الأزرق والأبيض، قضت وقتاً طويلاً في شـرب

الحليب وهي تحدق مبهورة في سطح الكـوب المنعكسـه عليـه نقـاط مظلّلـة. وتحدثت هـي وفريـدا حديثـا ودوداً عـن «شـيرلي تمبـل» وعـن فتنتهـا. لم أشاركهما اعجابهما بشيرلي لأني كنت أكرهها، ليس لأنهـا فاتنـة، ولكـن لأنها كانت ترقص مع«بوجانفل»، والذي كـان صديقـي، وعمـي، وأبـي، والذي كان ينبغي عليه أن يرقص معي ويضحك معي، بدلاً من ذلك، راح يستمتع بالرقص مع الفتيـات البيـض اللواتـي لاتـنزلق جواربهـن أبـداً إلى كعوبهن، ولذلك قلت لهما: «أنا أحبّ جين ويذرز»

نظرتا إليّ بحيرة، وكأنهما لم يفهما ما قلته، ثم واصلتا ما تتذكرانه عن «شيرلي» العجوز الحولاء.

كنت أصغر من فريدا وبيكـولا، ولذلـك لم أكـن قـد وصلـت إلى النقطـة الحاسمة في تطوري النفسي، التي تسمح لي بأن أحبه. مـاكنت أشـعر بـه، في ذلك الوقت، هو كراهية خالصة. ولكن، قبل ذلك، كنت أملـك شـعوراً غريباً، مخيفاً أكثر من الكراهية، تجاه كل من على شاكلة «شـيرلي تمبـل» في العالم.

بدأ هذا الشعور مع أعياد الميلاد وتقديم الدمى كهدايا، كـانت الهديـة الكبيرة، الخاصة، المحبّبة هي دائماً «بيبي دول» الزرقاء العينـين. فهمـت من أصوات الكبار التي تقرق(*)، بـأن هـذه الدميـة تمثّـل، كمـا اعتقـدوا، رغبتي الأثيرة. أربكتني هذه اللعبة، والطريقة التي تنظربهـا. مـا المفـروض أن تكون علاقتي معها؟ أتظاهر بأني أمها؟ لم أكن أهيم بالأطفال ولاحتـى بفكـرة الأمومـة. كنـت مهتمـة بعمـري وحجمـي. ولم أسـتطع أن أوّلـد في داخلي أية حماسة تجاه تصوّر كوني أمـاً. الأمومـة تـأتي في عمـر متقـدم، وكل الاحتمالات الأخرى البعيدة.

وعلى أية حال، عرفت سريعاً ماذا ينتظرون مني أن أفعل مع الدمية! أن أهدهدها، اختلق حكايات لها، وحتى أنام معها. الكتب المصورّة مليئة بفتيات صغيرات ينمن مع لعبهنّ، وخاصة لعب «راجدي آن»، ولكن هـذا

(*) القرق: صوت الدجاجة وبخاصة إذا دعت صغارها.

ليس وارداً أبداً. كنت أشعر بالاشمئزاز في جسدي، والرعب من تلك العيون المدوّرة البلهاء، والوجه المسطحّ، والشعر المجعدّ.

أما الدمى الأخرى، التي من المفروض أنها تجلب لي المتعة، فقد نجحت في إحداث العكس تماماً. فعندما أخذتها معي إلى السرير، قاومت أطرافها المتصلبة القاسية، وخمشت رؤوس أصابعها المستدقة على تلك اليدين المبقعتين لحمي. كانت رفيقة منام غير مريحة، وعدائية بشكل واضح. لم يعد إبقاؤها معي مناسباً. فالشاش المثنى، والدانتيللا على الثوب القطني يهيّجان جلدي حين احتضنها. كانت عندي رغبة واحدة: أن أمزقها حتى أرى من أي شيء هي مصنوعة، أن اكتشف قيمتها، أن أجد جمالها، المرغوبية فيها التي فاتتني، أنا وحدي كما هو واضح، فهما. البالغون، الفتيات الأكبر سناً، المخازن، المجلات، الصحف، واجهات المحلات... كل العالم متفق على أن هذه اللعبة ذات العينين الزرقاوين، والشعر الأصفر، والجلد الوردي هي ماتعتبره كل طفلة كنزاً يقولون: «هنا، تعالي، إذا كنت جديرة بها، فستحصلين عليها». تحسست وجهها بأصابعي متعجبة من حاجبيها المسّد أحدهما برفق باتجاه واحد. نقرت على أسنانها البلّورية المنغرزة مثل مفتاحي بيانو بين شفتين حمراوين معقودتين، تتبعتُ الأنف البارز، لكزتُ المقلتين الزرقاوين الزجاجتيين، وفتلتُ الشعر الأصفر. لم يكن بإمكاني أن أحبها. ولكن كان بإمكاني أن أتفحصها لأرى ماهي هذه التي يقول كل العالم عنها أنها شيء محببّ. أكسر الأصابع الصغيرة، ألوي الأقدام المسطحة، أحلّ الشعر، أدير الرأس جانباً، فيطلق ذلك الشيء صوتاً واحداً «ماما»، الصوت الذي يقولون عنه أنه صرخة عذبة حزينة، ولكنه يبدو لي مثل ثُغاء حَمِل يموت، أو، بتعبير أدق، مثل صوت مفصل باب ثلاجتنا الصدىء في حزيران. أنزعْ المقلتين الغبيتين الباردتين، يبقى الثغاء مستمراً «آهـ.هـ.هـ.هـ»، اخلعْ الرأس، أنشرْ النشارة، ألطم الظهر على قضبان السرير النحاسية، فتبقى تثغو. مزّقت ظهرها المصنوع من الشاش، واستطعت أن أرى القرص بثُقوبه الستة: سرّ الصوت. مجرد قطعة مستديرة معدنية.

عبس الكبار واهتاجوا: «أنت ـ لا تعرفين ـ أن ـ تهتمي ـ بأي ـ شي ـ أنا ـ لم ـ أملك ـ في ـ حياتي ـ كلها ـ أية ـ لعبة ـ أطفال ـ وكنت ـ أبكي ـ بكاء ـ مريراً ـ من ـ أجل ـ اللعب ـ والآن ـ أنت ـ عندك ـ لعبة ـ جميلة ـ ولكنك ـ تمزقينها ـ ماذا ـ جرى ـ لك؟».

كم كان غضبهم عنيفاً. وهددت دموعي سطوتهم المتعالية ولامبالاتهم إن انفعال سنوات من الرغبات العنيفة غير المتحققة يرشح في أصواتهم. لـ أعرف لماذا كسرت الدمى. ولكني أعرف أن لا أحد سألني عما أرغب به في عيد الميلاد. ولو أن أحد الكبار، ممن له القدرة على تحقيق رغباتي: سألني عما أريد، لعرف بأني لم أكن أرغب في امتلاك أو اقتناء أي شيء: أردت، بالأحرى، أن أشعر بشيء آخر في عيد الميلاد. كان ينبغي أن يكون السؤال الحقيقي هكذا. «كلوديا العزيزة.. أي تجربة تحبين أن تمري بها في عيد الميلاد؟» ولأجبت بوضوح: «أريد أن أجلس على مقعد صغير في مطبخ الأم الكبيرة، وحضني مليء بالليل، وأصغي إلى الأب الكبيروهو يعزف الكمان من أجلي وحدي». لقد صنع الكرسي الواطىء من أجل جسمي الصغير، الأمان والدفء في مطبخ الأم الكبيرة، رائحة الليل: صوت الموسيقى، ومادام من الأفضل أن تنهمك كل حواسي في ذلك، فلا بأس من تذوّق خوخة واحدة.

ولكن بدلاً من ذلك، تذوقت وشممت الرائحة اللاذعة لصحون وأكواب قصديرية مصممة لحفلات الشاي التي تضجرني، وشاهدت بنفور ثياب جديدة تتطلب استحماماً كريهاً في بانيو مطليّ بالزنك قبل ارتدائها: الانزلاق فوق الزنك فقط، لاوقت للعب، أو غمر نفسك بالماء لأنـ يبرد سريعاً. لاوقت لتستمتع بعريك، هناك وقت فقط لتعمل حجاباً من الماء الملئ برغوة الصابون: المنحدر بشكل مائل بين الساقين. ثـ هناك المناشف الواخزة، والغياب البغيض والمهين للقذارة. النظافة المثيرة للغضب التي لا يمكن تخيلها. اختفت بقع الحبر من الأرجل والوجه. اختفى كل ماخلفته وراكمته طوال النهار، وحل محله بثو سخيفة.

حطمت دمى الأطفال البيضاء. ولكن تمزيق الدمى لم يكن هو الرعب الحقيقي. الشيء الأكثر رعباً كان انتقال النزوة نفسها إلى الفتيات البيض الصغيرات. واللامبالاة التي كان بإمكاني أن أضربهن معها ضربات قاطعة، لم تزعزعها سوى رغبتي في فعل التالي: أن اكتشف مافاتني أدراكه، سر الفتنة التي ينسجنها حول الآخرين. ماالذي يجعل الناس ينظرون إليهن ويقولون: «أوه، أوه، أوه» لهن، ليس لي؟ العيون الزائغة للنساء السود حينما يقتربن منهن في الشارع، والرقة الأخاذة حينما يمسكن بهن.

إذا قرصتهنّ، فأن عيونهن ـ بخلاف الومضات المخبولة في عيون لعب الأطفال ـ سترتعش من الألم. ولن تكون صرخاتهن مثل صوت باب الثلاجة، ولكن صرخات ألم آسرة، وعندما أدركت كم كان هذا العنف لمجرد العنف منفّراً، منفّراً لأنه لمجرد العنف، أصبحت اتخبط في خزيي بحثاً عن ملاذ، كان الحب هو الملاذ الأفضل. وهكذا كان التحول من الساديّة البدائية إلى الكراهية المصطنعة إلى الحب المخادع. خطوة صغيرة باتجاه شيرلي تمبل. وتعلمت، بعد ذلك بفترة طويلة، أن أعبدها. كما تعلمت أن أجد بهجة في النظافة. وكنت أعرف، بشكل موازٍ، أن هذا التغيير كان تكيّفاً بدون تحسين.

«حتى البارحة بقى ثلاثة أرباع قنينة الحليب. ثلاثة أرباع كاملة. والآن لا يوجد شيء. ولاقطرة واحدة. ليس عندي اعتراض أن يأخذ الشعب مايريد، ولكن ثلاثة أرباع القنينة! بحق الشيطان، أي شخص يحتاج إلى ثلاثة أرباع قنينة حليب؟».

«الشعب» الذي تشير إليه أمي هو ثلاثتنا: بيكولا وفريدا وأنا. كانت في المطبخ في حالة اهتياج بسبب كمية الحليب التي شربتها بيكولا. كنا نعرف أنها مولعة بكوب «شيرلي تمبل»، وكانت تنتهز أية فرصة لتشرب الحليب منه، لتمسك به وترى وجه شيرلي فقط. وكانت أمي تعرف أن فريدا وأنا لا نحب شرب الحليب، فافترضت بأن بيكولا قد شربته رغم أنها ليست جائعة. وبالطبع لم يكن بمقدورنا أن «نتجادل» معها. ولم نكن نبادر بالحديث مع الكبار، وإنما كنا نجيب على أسئلتهم فقط.

جلسنا هناك شاعرتين بالخجل من الإهانات التي انصبّت على رأس صديقتنا. تناولت شيئاً من المربى، وكانت فريدا تقضم أظافرها بأسنانها، بينما راحت أصابع بيكولا تتبع بعض الندب على ركبتها، ورأسها مائل جانباً.

كانت مناجاة أمي الغاضبة لنفسها تثيرنا دائماً وتصيبنا بالأحباط. مناجاة مطوّلة، مهينة، وموجعة بطعناتها رغم أنها لم تكن مباشرة (إنها لا تسمى أحداً أبداً باسمه، فهي تتحدث فقط عن «الشعب» وبعض الناس). كانت تستمر لساعات على هذا المنوال. تصل الهجوم بالهجوم حتى تتقيأ كل الأشياء التي كدّرتها. ثم، وبعد أن تصب لعناتها على كل شيء وكل شخص، تنفجر بأغنية وتظلّ تغني بقية اليوم. ولكن كان يمرّ وقت طويل قبل أن يأتي هذا الفصل الغنائي. وكنا، بين تلك الفترتين، نصغي بمعد فارغة وأعناق محترقة، متجنبات النظر إلى بعضنا البعض، وشاغلات أنفسنا بتناول شيء من المربى أو أي شيء آخر.

«... لا أعرف ما المفروض أن أدير هنا. جناح خيري كما أعتقد. حان الوقت لأخرج من مجال العطاء إلى مجال الأخذ. أعتقد أنه ليس من المفروض أن أملك شيئاً. من المفروض أن تكون نهايتي في الملجأ. يبدو أن لا شيء مما أعمله سيجنبني هذا المكان. الشعب يقضي كل وقته في استنباط طرق لأرسالي إلى الملجأ. وتضاعفت كثيراً مشاغلي مع مجيء فم جديد عليّ أن أطعمه مثل القطة، كما لو أنني لاأملك مايكفيني من المتاعب وأنا أحاول أن أطعم أطفالي و أُجنبهم الملجأ. والآن عندي شيء آخر هنا سيمتصني ويقذفني هناك. لا، لن تستطيع أن تفعل ذلك. لن تستطيع مادمت أملك قوة في جسدي ولساناً في فمي. هناك حدود لكل شيء. أنا لاأملك شيئاً لأبدده. لاأحد يحتاج إلى ثلاثة أرباع قنينة حليب. هنري فورد نفسه لا يحتاج إلى ثلاثة أرباع قنينة حليب. إن ذلك خطيئة صريحة. إني راغبة في عمل كل ما أستطيع من أجل الشعب. لا يستطيع أي شخص أن يقول أني لست كذلك ولكن كل هذا ينبغي أن يتوقف. وأنا بالضبط من سيوقف ذلك. الإنجيل يقول: احترس وصلّ أيضاً».

الناس يلقون عليك بأطفالهم ثم يستمرون في أعمالهم. لا أحد يلقي عليك حتى نظرة عجلى ليرى إذا كان الطفل يملك كسرة خبزٍ أم لا، إنهم كما يبدو يختلسون النظر ليروا فقط فيما إذا كنت أملك كسرة خبز لاعطيها إياها. ولكن لا، تلك الفكرة لا تخطر على بالهم. مرّ يومان كاملان على خروج ذلك العجوز التافه كولي من السجن، ولم تأتِ إلى هنا بعد ليرى فيما إذا كانت ابنته الصغيرة حية أم ميتة. كان يمكن أن تكون ميتة لكل الأسباب التي يعرفها. لم يأت الأم أيضاً. أي نوع من المخلوقات هؤلاء؟

عندما وصلت ماما في حديثها إلى هنري فورد وأولئك الناس الذين لايهتمون فيما إذا كانت تملك كسرة خبزٍ أم لا، كان وقت ذهابنا قد حان. لم نكن نريد أن نصغي إلى ذلك الجزءِ حول روزفلت ومعسكرات سي سي سي.

نهضت فريدا وهبطت السلم، وتبعناها، بيكولا وأنا، مشكلتين منحنىً واسعاً لتجنب مدخل المطبخ. وجلسنا على درجات المدخل حيث لاتصل إلينا كلمات أمي إلا على شكل دفقات.

كان يوم أحد موحشاً. فاحت من البيت رائحة النفتالين، والرائحة الحادة للخردل الممزوج بالخضار. كانت أيام السبت موحشة. مليئة بالهرج والمرج. أيام زلقة والاسوأ منها أيام الآحاد المتوترة، الرتيبة، المليئة بأقراص السعال. والأوامر.

حين تكون أمي في مزاج غنائي، فإن الأمر يصبح أقلّ سوءاً. كانت تغني حول الأوقات الصعبة، الأزمان الردئية، عن شخص «فعلها ومضى وتركني للزمن». كان صوتها عذباً جداً، والأغنيات الجميلة التي تقدمها تصهر القلب، فأجدني أحن إلى تلك الأوقات الصعبة، وأتوق إلى أن أكبر بدون أن تضاف تلك الصفات الغبية إلى اسمي. كنت أتطلع إلى تلك الأوقات العذبة حين سيتركني «رَجُلي»، حين «سأكره أن أرى غروب شمس المساء» لأنني سأعرف حينها أن «رجلي قد غادر هذه المدينة»(*). إن

(*) مقاطع من الأغنيات التي تغنيها الأم.

البؤس الملوّن بالأخضر والأزرق في صوت أمي يسحب كل الأحزان من الكلمات، ويتركني مقتنعة بأن ذلك الألم ليس محتملاً فقط، ولكنه عذب أيضاً.

ولكن أيام الآحاد، بدون غناء، تجثم فوق رأسي مثل قفة فحم، وإذا كانت أمي مهتاجة، مثلما هي الآن، فيبدو الأمر وكأن شخصاً يقذف رأسي بحجر «وأنا هنا فقيرة مثل صحن بطاطا؟ من تظنني؟ نوعاً من الساندي كلو؟ حسناً أنهم يستطيعون خلع جواربهم، فاليوم ليس عيد الميلاد...»

شعرنا بالضجر، فقالت فريدا:

ـ «دعينا نفعل شيئاً» فسألتها:

ـ «ماذا تريدين أن نفعل؟»

ـ «لا أدري. لاشيء» حدقت فريدا في أعالي الأشجار، ونظرت بيكولا إلى قدميها.

ـ «تريدين أن تصعدي إلى غرفة السيد هنري، وتري مجلاته النسائية؟»

بدا العبوس على وجه فريدا. لم تكن تحب أن نرى الصور البذئية. وواصلت كلامي: «حسناً، نستطيع أن نرى إنجيله، فهو أفضل» حكت فريدا أسنانها مصدرة صوت «بيء».

ـ «حسناً، نستطيع أن نلضم أبر السيدة العمياء. وستعطينا مقابل ذلك بنساً».

أطلقت فريدا صوتاً كالشخير: «تبدو عيناها مثل المخاط. لاأحب النظر إليهما. ماذا تريدين أن تفعلي يابيكولا؟»

ـ «لايهم ..أي شيء تريدانه».

وكانت عندي فكرة أخرى فقلت: «نستطيع أن نذهب إلى الزقاق، ونرى ما في براميل القمامة».

فردت فريدا: «الجو بارد جداً» وبدت ضجرة ومستاءة.

- «أنا أعرف. نعدّ بعض الحلوى».

- «هل تمزحين إضافة إلى هرج ومرج أمي؟ حين تغضب فإن غضبها يستمر طوال اليوم. لن تسمح لنا بذلك».

- «حسناً، لنذهب إلى الفندق اليوناني ونستمع إلى شتائمهم».

- «أوه، من يريد أن يقوم بذلك؟ إضافة إلى أنهم يرددون الكلمات نفسها».

نفد مخزوني من الأفكار، وبدأت أركّز تفكيري على البقع البيضاء في أظافر أصابعي. دل مجموعها على عدد الأصدقاء الشبان الذين سأعرفهم! سبعة. حلّ الصمت شيئاً فشيئاً محلّ مناجاة أمي: «يقول الأنجيل: أطعم الجوعى. هذا رائع. هذا حسن. ولكني لا أطعم أفيالاً.. أي شخص يحتاج إلى ثلاثة أرباع قنينة حليب ليعيش، عليه أن يخرج من هنا. إنه في المكان الخطأ. ما هذا المكان! شركة لصنع الزبدة والجبن؟

فجأة انتصبت بيكولا وعيناها مفتوحتان على سعتهما من الرعب، ثم صدر عنها صوت أنين: «ما بك؟» وقفت فريدا أيضاً.

ثم نظر كلانا إلى الموضع الذي كانت تحدّق فيه بيكولا. كان الدم يسيل على ساقيها، وسقطت بضع قطرات منه على الدرجات. قفزت من مكاني: «لقد جرحت نفسك. انظري! الدم على ملابسك».

بقعة دم حمراء غيرت لون ثوبها من من الخلف استمرت بالأنين وهي واقفة وساقاها منفرجتان.

قالت فريدا: «أوه يا إلهي! أنا أعرف. أعرف ما هذا!».

- «ماذا؟» وضعت بيكولا أصابعها على فمها.

- «أنه الطمث»

- «ماهذا؟»

- «أنت تعرفين»

- «هل سأموت؟»

- «لا لا، لن تموتي. هذا يعني فقط أنه بإمكانك أن تنجبي طفلاً»

- «ماذا؟»

- «كيف عرفت ذلك؟» كانت معرفة فريدا بكل شيء تجعلني أشعر بالمرض والتعب.

- «أخبرتني ميلدريد وكذلك ماما».

- «لاأصدق ذلك».

- «لاتصدقي ياغبية. اسمعي. انتظري هنا. إجلسي يا بيكولا هنا» كانت فريدا تتمتع بالحيوية والسلطة. ثم خاطبتني: «وأنتِ..اذهبي واجلبي كمية من الماء».

- «ماء؟»

- «نعم، أيتها الغبية. كوني هادئة وإلا ستسمعك ماما».

جلست بيكولا ثانية، وخوف أقل في عينيها، وذهبت أنا إلى المطبخ. وسألتني أمي التي كانت تشطف الستائر: «ماذا تريدين ياصبية؟»

- «ماء ماما»

- «حيث أعمل؟ بالطبع..حسناً خذي كأساً. لايوجد كأس نظيف. خذي تلك الجرّة».

أخذت جرة وملأتها ماء من الحنفية، وبدا أن ذلك استغرق وقتاً طويلاً.

- «لا يطلب أحدكم أي شيء حتى يراني عند المغسلة، ثم تأتون كلكم لتشربوا ماء..»

تحركت لمغادرة الغرفة عندما امتلأت الجرّة.

- «إلى أين تذهبين؟»

- «خارجاً»

- «اشربي الماء هنا».

- «لن أكسر شيئاً»

ـ «أنت لا تعرفين ماذا ستفعلين».

ـ «نعم يا أمي. أعرف. دعيني آخذها. لن أسكب منها قطرة».

ـ «لاتراهني على ذلك».

ذهبت إلى المدخل ووقفت هناك مع جرة الماء. كانت بيكولا تصرخ:

ـ «لماذا تصرخين؟ يؤلمك؟ ـ هزّت رأسها ـ إذاً، أوقفي مخاطك»

فتحت فريدا الباب الخلفي. وبدا أن شيئاً اندس في بلوّزتها. نظرت إليّ بحيرة وأشارت إلى الجرّة: «ما المفروض أن نفعل بهذا؟»

ـ «أنت قلت لي. قلت: إجلبي ماء».

ـ «ليس جرة عتيقة صغيرة. كميات من الماء لننظفّ الدرجات بها ياغبية!»

ـ «وكيف من المفروض أن أعرف ذلك؟»

ـ «نعم. كيف من المفروض أن تعرفي. تعالي».

سحبت بيكولا من ذراعها واتجهتا إلى جانب المنزل حيث الشجيرات الكثيفة.

ـ «هاي، وماذا عني؟ أريد أن أذهب معكما»

ـ «اخـ..ر..سي» همست فريدا في أذني بشكل مسرحي: «ستسمعك ماما. اغسلي أنت الدرجات»

اختفتا عند زاروية البيت.

كان سيفوتني شيء ثانية. هناك شيء مهم كان سيحدث، ولكن كان يتوجب عليّ ان أبقى، وأن لا أرى أي شيء منه سكبتُ الماء على الدرجات. حركته بحذائي ثم ركضت لألتحق بهن.

كانت فريدا منحينة، وقطعة قطن بيضاء مستطيلة قربها على الأرض. نزعت سروال بيكولا التحتي: «هيا تحركي» نجحت في خلع السروال وقذفته بقوة إلي: «ما المفروض أن أعمل به».

ـ «احرقيه ياغبية».

أخبرت فريدا بيكولا أن تبقي القطن بين ساقيها.

ـ «وكيف ستمشي بهذا الشكل؟» لم تجبني، وبدلاً من ذلك نزعت دبوسين من ثنايا تنورتها، وبدأت تشبك نهايات المنديل على ثوب بيكولا بالدبوسين.

حملت السروال باصبعين وبحثت حولي عن شيء لأحفر به حفرة. أجفلني صوت خشخشة في وجه أبيض كالعجين.

كانت «روزمري» تراقبنا. أمسكت بوجهها، ونبشت أظافري في أنفها، فصرخت وقفزت عائدة.

سمعتها تصيح: «مدام ماكتير.. مدام ماكتير. فريدا وكلوديا في الخارج تقومان بأفعال قذرة..مدام ماكتير.. »

فتحت أمي النافذة ونظرت إلينا»:

ـ «ماذا؟»

ـ «تقومان بأفعال قذرة مدام ماكتير.. وكلوديا ضربتني لأني رأيتهما»

صفقت أمي النافذة بقوة، وأتت راكضة من الباب الخلفي.

ـ «ماذا تفعلن كلكنّ هنا؟ أوه..أوه..آه تقومان بأعمال قذرة..ها؟»

ـ «كان من الأجدر بي أن أربي خنازير بدلاً من فتيات قذرات، على الأقل أستطيع أن أذبح الخنازير».

أخذنا نصرخ: «لا ياماما، لا ياماما، لم نفعل ذلك إنها تكذب. لا ياماما، لا ياماما، لا»

أمسكت ماما بفريدا من كتفها. وأدارتها ثم جلدتها ثلاث أو أربع جلدات على رجليها: «تفعلين أفعالاً رذيلة، ها؟ الآن لا تستطعين».

انهارت فريدا. لقد سبب لها الجلد جروحاً، وأحست بالاهانة، ثم نظرت ماما إلى بيكولا: «وأنت أيضاً؟ سواء أكنت ابنتي أم لا..» أمسكت ببيكولا وجعلتها تدور حول نفسها. أنفك الدبوس من أحد طرفي المنديل، ورأته أمي يسقط من تحت الثوب، تأرجح السوط في الهواء، بينما كانت أمي تنظر بذعر: «بحق الشيطان، ماذا يجرى هنا؟»

بدأت فريدا تنشج. وبدأت أنـا، وكنـت واقفـة خلفهـا، أشـرح الأمر: «نزفت دماً، وكنا نحاول وقف النزيف».

نظرت ماما إلى فريدا لتتحقق من كلامي. أومأت فريدا برأسها موافقـة: «كنا نسعفها..كنا نساعدها فقط».

تركت ماما بيكولا ووقفت تنظر إليها، ثم سحبتهما كلاهما باتجاههـا، واحتضنتهما. كانت عيناها مليئتين بالأسف: «حسناً، حسناً. والآن توقفـا عن البكـاء. لم أكـن أعـرف. تعـالا الآن، ولنذهـب إلى البيـت..اذهـبي إلى البيت ياروزمري. انتهى العرض».

اندفعنا إلى البيت. كانت فريدا تنتحـب بهـدوء، وأنـا أحمـل السـروال الداخلي للفتاة الصغيرة التي تحوّلت إلى امرأة.

قادتنـا مامـا باتجـاه الحمـام. حثـت بيكـولا علـى الدخـول، وأخـذت الملابس الداخلية مني ثم أمرتنا أن نبقى خارج الحمام.

كـان بإمكاننـا أن نسـمع صـوت المـاء المتدفـق في بـانيو الحمـام، «هـل تعتقدين أنها ستغرقها؟».

ـ «آه كلوديا. أنت غبية جداً. ستغسل ملابسها فقط، وهذا كل شيء».

ـ «هل ينبغي أن نضرب روزمري؟».

ـ «لا، دعيها وشأنها».

استمر الماء متدفقاً، ولكن موسيقى ضحكة أمي على صوته.

اضطجعنا، تلك الليلة، ثلاثتنا في السرير بلا حراك. كنا تملأنا الرهبـة والاحترام لبيكولا. فأن تتمدد جوار شخص حقيقـي كـان يـنزف دمـاً لهـو شيء مقدس فعلاً.

ابتداءً من الآن، هي مختلفة عنّـا، شـبيهة بالبـالغين. وهـي، نفسـها، أحست بالمسافة بيننا، ولكنها أبت أن تتسلط علينا.

سألت بكل رقة بعد فترة صمـت طويلـة: «هـل أستطيع أن ألـد طفـلاً الآن؟»

فقالت فريدا وهي نعسانة: «بالتأكيد. بالتأكيد تستطعين ذلك» فسألت بيكولا بصوت تخنقه الدهشة: «ولكن كيف؟» فأجابت فريدا:

- «أوه، يجب أن يحبك شخص ما».

- «أوه».

حل صمت طويل فكرنا خلاله أنا وبيكولا بالأمر.

افترضت أن ذلك يشمل «رجلي» الذي سيحبني قبل أن يتركني. ولكن ليس هناك أطفال في الأغاني التي تغنيها أمي. ربما لهذا السبب النساء حزينات. يتركهن الرجال قبل أن يصبح بإمكانهن أن يلدن. ثم سألت بيكولا سؤالاً لم استوعبه: «كيف تفعلين ذلك؟ أعني كيف تجلعين شخصاً يحبك؟ ولكن فريدا نامت، وأنا لم أعرف الجواب.

* * *

هناك مخزن مهجور في الزاوية الجنوبية الشرقية من «برودوي» وشارع «٣٥» في يورين، أوهيو. لا هو يختفي في تلك الأرض ذات السماء الرمادية، و لا هو ينسجم مع البيوت الرمادية الخشبية الهياكل. بدلاً من ذلك، يدّس نفسه في عيون العابرين، بطريقة بغيضة وكئيبة أيضاً. ويتعجب الزائرون الذين يغدون إلى هذه المدنية الصغيرة بسيارتهم من عدم تهديمه، بينما يدير المشاة الساكنين في الجوار عيونهم عنه ببساطة.

في وقت من الأوقات، عندما افتتح في البناية محل بيتزا، كان الناس يرون فقط الأولاد المراهقين البطيىء الخطوات محتشدين حول الركن. كان هؤلاء يلتقون هناك، يتحسسون أعالي أفخاذهم ويدخنون السكائر، ويخططون لاعتداءات خفيفة. كانوا يستنشقون دخان سجائرهم بعمق ليملأوا به رئاتهم، وقلوبهم، وأفخاذهم، وليمنع ارتعاشات وحيوية الشباب. إنهم يتحركون ببطء، ويضحكون ببطء، ولكنهم ينفضون رماد سكائرهم بسرعة وبكثرة، فاضحين أنفسهم، لمن يهتم بمراقبتهم، على انهم مبتدئون في هذه العادة. قبل وقت طويل من استعراضات هؤلاء الشباب

الرخيصة، ومشاهد تباهيهم، كانت البناية قد أجّرها خباز هنغاري اشتهر «بالبريوش»(*)، وأرغفة القمح بلونها الأحمر الفاتح. وقبل ذلك كان هناك مكتب عقاري، وفي وقت أبكر من ذلك، استخدم بعض الغجر البناية كقاعدة لعملياتهم. ومنحت عائلة غجرية سمة وتميزاً للنافذة البلورية الكبيرة. فقد كانت فتيات العائلة يتبادلن الجلوس بين ياردات من ستائر أجواخ شرقية مخملية معلقة على النوافذ. كنّ ينظرن إلى الخارج، ويبتسمن من حين آخر، أو يغمزن بعيونهن أو يومئن بأيديهن ـ فقط من حين الآخر وغالباً ماكنّ يبدوْن بملابسهن الفضفاضة ذات الأكمام الطويلة والتنانير الفضفاضة، خافيات العري الكامن في عيونهن.

كان سكان المنطقة يتغيرون باستمرار، وقبل وقت طويل، طويل جداً ربما لا يتذكره أحد، قبل زمن الغجر، وزمن أولئك المراهقين، عاشت عائلة «بريدلوف» هناك، وعاشوا معاً في شقة متفرعة عن حانوت، متقيحين دماً تحت رحمة نزوات أحد السماسرة، منسلين من والى تلك العلب ذات الطلاء الرمادي المتقشرّ، بدون أية حركة في الجوار، أو نأمة في العمل، أو إشارة يد في مكتب رئيس البلدية. كل فرد من العائلة مسجون في زنزانة وعيه، كل يرقعّ لحاف واقعه بجمع شظايا تجربة من هنا، وبعض معلومات من هناك. ويخلقون، من انطباعات صغيرة يلتقطونها من بعضهم البعض، حساً بالانتماء، ويحاولون أن يجدوا لهم علاقة بطريقة الحياة التي وجدوا بعضهم بعضاً فيها.

كانت خطة بناء هذه المساكن في المنطقة خطة خيالية تفتقّ عنها ذهن ملاّك يوناني من الجيل الأول. لقد فُصلت مساحة «المخزن» الواسعة إلى غرفتين بواسطة ألواح خشبية مضغوطة من الفايبر لاتبلغ السطح. كانت هناك غرفة الجلوس، التي تسميها العائلة الغرفة الأمامية، وغرفة النوم حيث يقضون وقتهم. وتوجد أريكتان في الغرفة الأمامية. وبيانو عمودي الأوتار، وشجرة عيد ميلاد اصطناعية صغيرة مزينّة يغطيها الغبار منذ

(*) البريوش: خبز محلّي يعد مع قليل من الزبدة والبيض.

سنوات، أما في غرفة النوم، فهناك ثلاثة أسرّة: سرير حديدي ضيق لـ«سامي»، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، وآخر لـ«بيكولا» ذات الأحد عشر عاماً، وسرير مزدوج لـ«كولي» و«بريدلوف». وانتصب موقد من الفحم في وسط الغرفة من أجل توزيع متساو للحرارة. ووضع قرب الحائط صندوق ثياب، وكراس، ومائدة صغيرة و«خزانة» كارتونية. وكان المطبخ في الجانب الخلفي من هذه الشقة، منفصلاً عن باقي الغرف. أما الحمّام فلا توجد فيه أية لوازم، ماعدا مقعد تواليت لا تبصره عين المستأجر، ولا تسمع منه شيئاً.

لا يوجد شيء أكثر يمكن قوله حول الأثاث. لقد تم وصفه، وتصوره، وصنعه، وشحنه بالسفن، وبيع في حالات مختلفة من عدم التفكير، والطمع، واللامبالاة لقد أصبح بالياً دون أن يصبح أليفاً. ملكه أناسٌ ولكنهم لم يعرفوه قط. لم يضيّع أحد بنساً أو بروشاً تحت وسائد أي من الأريكتين وتذكر المكان الذي أضاعه فيه أو وجده فيه. لم يقوّق أحدهم كالدجاجة قائلاً: «ولكنه كان معي قبل لحظه فقط. كنت جالساً هناك أتحدث مع...» أو «أنه هنا. لابد أنه انزلق مني بينما كنت أطعم الطفل» لم تلد احداهن فوق أي سرير من الأسرّة - أو تتذكر بحنين الجدران المقشرة الدهان لأن الطفل، وهو يتعلم أن يقف، اعتاد أن ينزعها. لم يدسّ طفل علكة تحت المائدة. لم يجلس سكير سعيد - صديق للعائلة ذو رقبة غليظة، غير متزوج كالعادة، وا لله وحده يعرف كم كان يأكل! - إلى البيانو ليعزف: «أنت بهجتي» لم تنظر أية صبيّة إلى شجرة عيد الميلاد الصغيرة، وتتذكر الوقت الذي زينتها فيه، أو تتساءل فيما إذا كانت تلك الكرة الزرقاء ستصمد، أو «إنه» سيأتي ليراها ثانية.

لم تكن هناك ذكريات بين هذه القطع لاذكريات هناك ليعتزوا بها. من حين لحين، يثير موضوع ما ردّ فعل جسدي: زيادة في الحموضة أعلى الجهاز المعوي، رشح خفيف من العرق خلف الرقبة، حينما تستذكر الظروف التي أحاطت بقطعة أثاث، ولنأخذ الأريكة مثلاً. لقد أشتروها جديدة، ولكن القماش أنشق عمودياً في الوقت الذي جلبوها فيه، والمخزن لايحتمل أية مسؤولية..

ـ «انظر ياأخ، لقد كانت بحالة جيدة عندما وضعتها في عربة النقل، لا علاقة للمتجر بها بعد أن تصبح في العربة».

ـ «ولكني لاأريد أريكة ممزّقة حتى لو كانت جديدة»

عيون ملتمسة، وخصىً مشدودة

ـ «أنت جلف ياأخ، اللعنة..»

يمكن أن تكره أريكة بالطبع، هذا إذا كنت قادراً على كره أريكة. ولكن لا يهم ذلك.

وإذا كنت تكسب ٤,٨٠ دولاراً في الشهر، وتدفع ٤,٨٠ دولاراً في الشهر من أجل أريكة أخذت تتمزق، فهذا شيء غير جيد ومذلّ..لا يمكنك أن تجد أيّ سعادة في امتلاكها. نتانة التعاسة تتخلّل كل شيء. رائحتها الكريهة تمسكك عن طلاء الجدران بالفايبر، ومن الحصول على قطعة خشبية لتصليح الكرسي، تمسكك حتى عن خياطة الشق الذي أصبح تصدعاً، الذي أصبح فجوة فاغرة فاها،تفضح الهيكل الرخيص والتنجيد الأرخص. أنها تحول دون أن يستريح النائم في نومه، وتفرض عليك أن تمارس الحب فوقها خلسة. إنها مثل سن متقرّح لا يرضى أن ينبض بالألم بمفرده، وإنما ينشر ألمه إلى بقية الأجزاء والأخرى من الجسم ــ فيجعل التنفس صعباً، والرؤية محدودة، والأعصاب متوترة. وهكذا فإن قطعة مكروهة من الأثاث تسبّبُ ضيقاً مزعجاً يؤكد نفسه في أرجاء البيت، ويضع حداً لبهجتك بأشياء ليست ذات صلة به.

كان الشيء الوحيد في بيت «بريدلوف» موقد الفحم الذي بقي مستقلاً عن كل شيء وعن كل شخص. وسواء أكانت ناره «مطفأة» أو «كومة رماد» أو «موقدة عالياً»، فإنه حرّ في تصرفه، بالرغم من حقيقة أن العائلة هي التي تغذيه وتعرف كل التفاصيل عن طريقة عمله! انتشري أيتها النار، لا تتحولي إلى كومة رماد، هذا كثير... ولكنها تعيش، تخمد أو تموت طبعاً لنظامها هي.

وفي الصباح، على أية حال، ترى دائماً أن الوقت حان لتموت.

* * *

لم تعش عائلة «بريدلوف» في ذلك البيت الـذي هـو جـزء مـن حـانوت لأنهم واجهوا مصاعب وقيتة بسبب تخفيض الانتاج في المصنع. لقد عاشـوا هناك لأنهم فقراء وسود، وبقوا هناك لأنهم كـان يعتقـدون انهـم قبيحـون. بالرغم من أن فقرهـم كـان تقليديـاً وسـخيفاً، فإنـه لم يكـن فريـدا. ولكـن قبحهم كان فريداً. ولم يستطع أحد أن يقنعهم أن هذا القبح ليـس عدوانيـاً وقاسياً. وماعدا الأب كولي، الذي كان قبحه (نتيجة لليأس، والانغماس في الملذات، والعنف المسلّط على الأشخاص الهامشيين و الناس الضعفاء) يكمن في سلوكه، فإن بقية أفراد العائلة ـ السـيدة بريدلـوف، سـامي بريدلـوف، بيكولا بريدلوف ـ يلبسون قبحهـم، يرتدونـه إذا صـح التعبـير، رغـم أنـه لايعود إليهم. إن العيـون، العيـون الصغـيرة وضعـت باتقـان تحـت جبـاه ضيقة. مفرق الشعر المنخفض غير المتناسق يبدو حتى أقل تناسـقاً بالمقارنـة مع الحاجبين المستقيمين الكثيفين. اللذين يكـادان يلتقيـان. أنـوف قويـة، ولكن معقوفة، ذات مناخر شامخة. عظام وجنات بـارزة، وآذان ملويّـة إلى أمام، شفاه جميلة لاتجذب الانتباه إليهـا، وإنمـا إلى بقيـة الوجـه. تنظـر إليهم فتتعجب لماذا هـم قبيحـون، وحـين تنظـر إليهـم عـن قـرب أكـثر، لاتستطيع أن تجد مصدر هذا القبح. ثم تدرك أن ذلـك نـابع عـن اقتنـاع، اقتناعهم هم، كما لو أن سيّداً غامضاً عارفاً بكلّ شيء، أعطـى لكـل منهـم ساعة قبح ليلبسها. وكلّ منهم قد قبل ذلك راضياً. كان السيد الغامض قـد قال: «أنتم اناس قبيحون»، فنظروا إلى أنفسهم فلم يروا شيئاً ينـاقض هـذا الإعلان، بل رأوا، في الواقع، دعماً له يطل عليهم من كل لوحـة إعـلان، وكل فيلم، وكل لمحة. لقـد أخـذوا القبـح بأيـاديهم، ورمـوه فوقهـم مثـل عباءة، وأخذوا يطوفون العالم معــه. كـان كـل منهـم يتعـامل معـه حسـب طريقته. فقد اسـتخدمته السـيدة بريدلـوف كمـا يسـتخدم ممثـل البروفـة: علاقة الشخصية مع الشخصيات الأخرى، ودعـم دور تصـورت مـراراً أنـه

دورها: الشهادة. واستخدم سامي قبحه كسلاح ليسبّب الألم للاخرين. كان يكيفّ سلوكه معه، ويختار رفاقه على أساسه، الرفاق الذين، يكمن أن يذهلهم، وحتى يرعبهم هذا القبح. بيكولا؟ لقد توارت وراء قبحها: مخفية، محجّبة، منكسفة نادراً ما تختلس النظر من وراء حجابها، وإذا مافعلت ذلك، فإنها تفعله لتحنّ إلى قناعها فقط.

في صباح يوم أحد من أكتوبر/ تشرين الأول/ بدأت هذه العائلة، واحداً بعد الآخر، تتحرك لتخرج شيئاً فشيئاً من أحلام الرفاهية والثأر، لتدخل في حالة بؤس لا يمكن تسميته في ذلك البيت.

انسلت السيدة بريدلوف من سريرها بهدوء. وضعت كنزة فوق ثوب النوم الذي كان ثوباً بالياً تلبسه في النهار أيضاً، واتجهت إلى المطبخ أحدثت قدمها السليمة وقعاً ثقيلاً كأنه نقر عظام على مشمّع الأرضية، أما قدمها الأخرى الملتوية فقد مسته مساً خفيفاً. أحدثت بفتحها الباب، والحنفيه، واستخدامها المقلاة ضجيجاً في المطبخ، ضجيجاً أجوف، ولكن التهديد الذي ينطوي عليه لم يكن كذلك. فتحت بيكولا عينيها، وظلتّ متمددة محدقة في موقد الفحم الخامد. وتمتم كولي، وتقلبّ في فراشه لدقيقة ثم همد.

كان بإمكان بيكولا، حتى من مكانها وهي مضطجعة، أن تشم رائحة الويسكي الصادرة من كولي. أصبح الضجيج أعلى في المطبخ، وأقل كتماناً. هناك غرض في حركات السيدة بريدلوف لاعلاقة له بإعداد طعام الفطور. هذا الأدراك، الذي تدعمه شواهد من الماضي، جعل بيكولا تقلّص عضلات معدتها وتقطع أنفاسها.

لقد أتى كولي إلى البيت مخموراً. ولسوء الحظ كان مخموراً جداً لدرجة لايستطيع معها الشجار، ولذلك سينفجر الموضوع كلّه هذا الصباح. وسيفتقر العراك إلى العفوية لأنه لم يحدث في وقته. سيكون محسوباً، غير ملهم، ومهلكاً.

دخلت السيدة بريدلوف بخفة إلى الغرفة، ووقفت عند السرير حيث ينام كولي:

ـ «أريد بعض الفحم في هذا البيت».

ـ «لم يتحرك كولي».

ـ «هل تسمعني؟» ولكزته في قدميه.

فتح كولي عينيه ببطء. كانتا حمراوين متوعدتين. كان كولي يملك أخبث عينين في المدينة.

ـ «آه...آه ياامرأة!».

ـ «قلت أريد بعض الفحم. أشعر بالبرد مثل عصفور صغير في هذا البيت. عليّ أن أقوم بعدة أشياء. ولا أريد أن أتجمد من البرد».

ـ «دعيني وحدي».

ـ «ليس قبل أن تحضر لي بعض الفحم. أليس من حقي أن أحس بالدفء وأنا أعمل كالبغلة. لماذا أعمل كل ذلك؟ أنت لاتقوم باي شيء، وإذا بقيت الأمور بهذا الشكل فسنموت كلنا. كان صوتها مثل وجع الأذن في الدماغ «إذا كنت تعتقد بإني سأخرج في هذا البرد وأجلب الفحم بنفسي، فمن الأفضل لك أن تعيد التفكير بذلك».

ـ «اللعنة، لايهمني كيف تحصلين عليه».

ـ «هل ستنهض ياسكيرمن هذا الفراش. وتجلب لي بعض الفحم أو لا؟»

صمت.

ـ «كولي!».

صمت.

ـ «لاتتعبني هذا الصباح يارجل. كلمة أخرى منك واشقك نصفين».

صمت..

ـ «حسناً..حسناً. ولكني إذا عطست مرة، مرة واحدة فقط، فستكون نهايتك».

استيقظ سامي أيضاً، ولكنه تظاهر بالنوم. كانت بيكولا ماتزال تشد على عضلات معدتها. وتمسك أنفاسها. كانوا يعرفون كلهم أن السيدة بريدلوف تستطيع، وسوف تفعل وقد فعلت ذلك سابقاً، أن تحضر الفحم من الحظيرة، أو إنها ستأمر سامي أو بيكولا أن يجلباه. ولكن تلك الليلة

التي لم يتشاجرا فيها، ظلّت معلّقة مثل النغمة الأولى لترنيمة جنائزية في الهواء الطلق المشبعّ بالحزن.

إن السكر الطائش كانت له خاتمته الشعائرية، بغض النظر عن روتينيّتها، لقد تحددت أيام السيدة بريدلوف العادية، وتماهت مع هذه الشجارات. لقد منحت مادة للحظات وساعات كانت ستكون بدونها باهتة لاتذكر.

وخففت من ضجر الفقر، أضفت فخامة على الغرف الهامدة. كان بإمكانها في انفجارات العنف المتكررة هذه، التي أصبحت هي نفسها روتيناً، أن تكشف عن الأسلوب والخيال اللذين تعتقد أنهما يمثلان ذاتها الحقيقية. وتجريدها من هذه الشجارات يعني تجريدها من نكهة ومعقولية الحياة. وكان كولي، بسكره المعتاد ومزاجه الفوّار، يزودهما كلاهما بالمادة التي يحتاجانها لجعل حياتهما محتملة. كانت السيدة بريدلوف تعتبر نفسها امرأة مسيحية مستقيمة يثقل على كاهلها رجل لايُعتمد عليه أراد للّه أن يعاقبها به. وبالطبع فإن تخليص كولي أمر ميئوس منه، والتخليص ليس هو المسألة، فلم تكن كولي مهتمة بيسوع المخلّص، بل بيسوع القاضي. وغالباً ماسُمعت تخاطب يسوع بخصوص كولي، مناشدة إياه أن يساعدها على «ضربه في صميم كبريائه» كانت تصرخ كلما رأته يترنح مخموراً عند الموقد ذي النار الحمراء: «خذه يايسوع! خذه!» لو توقّف كولي عن الشرب، فإنها لن تسامح يسوع على ذلك أبداً. إنها تحتاج إلى خطايا كولي بشدة. فكلما انحدر أكثر، وكلما أصبح مستهتراً وعنيفاً أكثر، كلما ازدادت هي روعة، وازدادت مهمتها روعة.

باسم يسوع.

لم تكن حاجة كولي إليها أقل. إنها، بالنسبة له، واحدة من الأشياء البغيضة القليلة التي يستطيع أن يلمسها وبالتالي يؤذيها. لقد صبّ عليها كل عنفه الغامض ورغباته المجهضة. كان يستطيع، من خلال كرهها، أن يترك نفسه سليماً. عندما كان مايزال في بداية شبابه، فاجأه بين الشجيرات رجلان أبيضان حينما كان يحاول مجامعة فتاة ريفية

صغيرة.سلطا ضوءاً كاشفاً على ظهره، فتوقف مرعوباً، فضحكا ضحكة خافتة. ظل الشعاع مثبتاً على ظهره، ثم قالا له: «استمر، وانتبه، فالزنجي يفعل ذلك جيداً» لم يتحرك ضوء المصباح اليدوي. لم يشعر كولي، لسبب ما، بكره تجاه الرجلين. وإنما شعر بكره واحتقار للفتاة. كان مجرد تذكر هذا المشهد، ولو نصف تذكر، وماعرفه من اذلال، وهزائم، واخصاءات لاتُحصى. يجعله ينغمر في موجات عن الانحلال بشكل يدهشه - يدهشه هو فقط. وبطريقة أو بأخرى، لم يستطع أن يُدهِش أحداً. كان يمكن أن يُدهَش فقط. وهكذا تخلى عن ذلك أيضاً.

كان كولي والسيدة بريدلوف يتقاتلان بـ«شكلية» وحشية غامضة لايوازيها إلا فعلهما الحب. لقد اتفقا، ضمنياً، على أن لايقتلا بعضهما البعض. كان يقاتلها بالطريقة نفسها التي يقاتل فيها جبان رجلاً شجاعاً - بالأقدام، والأكف، والأسنان، وكانت هي بالمقابل، تقاتله بطريقة أنثوية بحتة - بمقلاة القلي، والمسعار، وأحياناً بالمكواة التي تقلع باتجاه رأسه. لم يكونا يتحدثان، أويئنان، أو يلعنان خلال الضرب المتبادل. كان يُسمع فقط الصوت المكتوم للأشياء المتساقطة، وصوت اللحم فوق اللحم.

أما بالنسبة لردود أفعال الأطفال، فكان هناك اختلاف بينهما تجاه هذه المعارك. كان سامي يصب اللعنات لفترة من الوقت، أو يغادر المنزل، أو يلقي نفسه في أتون المعركة. عُرف عنه، منذ الرابعة عشرة من عمره، هروبه من البيت ليس أقل من سبع وعشرين مرّة. وكان يعود، سواء بالقوة أو لظرف قاهر، غاضباً متوعداً.

ومن ناحية أخرى، جرّبت بيكولا، التي كان يقيدها شبابها وجنسها، كل أساليب التحملّ. وبالرغم من أن هذه الأساليب كانت متنوعة، فإن الألم كان ثابتاً بقدر ما هو عميق.

كانت رغبة طاغية تنازعها بأن يقتل أحدهما الآخر، وأمنية عميقة بأن تموت هي نفسها. كانت تهمس: «لاتفعلي ذلك، ياسيدة بريدلوف، لاتفعلي..». لقد كانت، مثل سامي وكولي، تدعو أمها بالسيدة بريدلوف دائماً.

«لاتفعلي ذلك ياسيدة بريدلوف...لاتفعلي».

ولكن السيدة بريدلوف فعلت ذلك. بفضل ا لله بلاشك، عطست السيدة بريدلوف. مرة واحدة فحسب.

ركضت إلى غرفة النوم وهي تحمل وعاءً مليئاً بالماء البارد قذفته في وجه كولي. جلس، وهو يشرق بالماء ويبصق على الأرض، ثم قفز من السرير عارياً شاحب الوجه، وأمسك بشكل خاطف بزوجته من خصرها. وسرعان ما ارتميا معاً على الأرض. رفعها كولي وضربها بظهري يديه، فسقطت على مؤخرتها وظهرها مستند إلى سرير سامي. لم تتخلَّ عن الإناء، وبدأت بضرب كولي على ساقيه وأعلى الفخذين في ذلك المكان الفاقد للحس الذي كانت تثيره منه. وضع قدميه على صدرها، فاسقطت الانساء. وبينما هو يسقط على ركبتيه، ضربها عدة مرات في وجهها. ربما كانت قد استسلمت مبكراً لو لم ترتطم يداه بالسرير المعدني عندما تفادت زوجته الضرب. استغلت السيدة بريدلوف هذا التوقف القصير للضرب، وانزلقت من بين يديه. فجأة بدأ سامي، الذي كان يراقب بصمت صراعهم من طرف السرير، يضرب أباه حول رأسه بكلتا قبضتين وهو يصرخ: «ياقوّاد، ياقوّاد..» أعلى فأعلى فأعلى. ركضت السيدة بريدلوف، التي انقلبت الجولة لصالحها، على رؤوس أصابعها نحو كولي الذي كان يحاول أن ينهض، وضربته ضربتين.

ثم ألقت، وهي تلهث، لحافاً عليه وتركته مستلقياً.

وزعق سامي: «اقتليه ! اقتليه !»

نظرت السيدة بريدلوف إلى سامي بدهشة !

«توقف عن هذا الضجيج ياولد» أعادت غطاء الموقد إلى مكانه، واتجهت إلى المطبخ، ثم توقفت لفترة عند الباب لتقول لابنها: «انهض من الفراش. أنا بحاجة إلى بعض الفحم».

غطت بيكولا، بعد أن تركت نفسها تتنفس بهدوء، رأسها باللحاف، داهمها الشعور بالغثيان، الذي كانت تحاول أن تمنعه بالضغط على

معدتها، بسرعة رغم كل تدابيرها. واعتملت في نفسها الرغبة في التقيؤ، ولكنها كانت تعرف أن ذلك لن يحصل كالعادة.

«أرجوك ياإلهي» همست وراحة يدها على فمها: «أرجوك ياإلهي، دعني اختفي». ضغطت على عينيها لتغلقهما. إضمحلت بضعة أجزاء من جسمها. ببطء، بسرعة كبيرة، ببطء ثانية. اختفت أصابعها، الواحد بعد الآخر، ثم اختفت أذرعها إلى المرفقين. أقدامها الآن. نعم، تم ذلك بشكل جيد. كل رجليها الآن. كان الأمر أصعب مع الفخذين، إذ كان عليها أن تكون ساكنه تملماً ومسيطرة على انفعالاتها. قاومت معدتها ولكنها اختفت أخيراً، ثم صدرها، ثم رقبتها. كان الأمر صعباً مع وجهها أيضاً. ولكنها نجحت تقريبياً. بقيت عيناها، عيناها المشدودتان فقط. إنهما تبقيان دائماً.

لم تستطع، مهما حاولت بكل قوتها، أن تجعل عينيها تختفيان قط. ماالمسألة إذن؟ لقد كان كل شيء كل شيء كان هناك، فيهما. كل تلك الصور، وكل تلك الوجوه. لقد تخلّت، منذ وقت طويل، عن فكرة الهروب كي نرى صوراً جديدة، ووجوهاً جديدة، كما كان سامي يفعل غالباً. لم يأخذها معه قط، وهو لم يفكر بوجهة هربه مسبقاً، ولذلك لم يكن الأمر مخططاً له.

وعلى أيّة حال، لم يكن الأمر لينجح. فمادامت تنظر بتلك الطريقة، ومادامت قبيحة، فإنها ستبقى مع هؤلاء الناس. إنها تنتمي إليهم بشكل من الأشكال. كانت تجلس لساعات طويلة أمام المرآة لتكتشف سرّ القبح، القبح الذي يجعل معلميها وزميلاتها في المدرسة يتجاهلونها ويحتقرونها، إنها التلميذة الوحيدة التي تجلس على طاولة مزدوجة في صفها. الاسم الأول من اسمها يحتم عليها الجلوس في الصف الأول دائماً. ولكن ماذا عن ميري أبولونيير؟ إنها أمامها، ولكنها تشترك مع لوك أنجيلينو في طاولة واحدة. كان معلموها يعاملونها بهذه الطريقة دائماً. لم يحاولوا قط أن يلقوا عليها نظرة خاطفة، وينادونها فقط عندما يطلب من كل شخص أن يجيب على الاسئلة. وكانت تعرف أيضاً انه عندما تريد أية فتاة من فتيات المدرسة أن تهين ولداً معيناً أو تريد أن تحصل على ردة فعل فورية

منه، فإنها تقول له: «بوبي يحب بيكولا بريدلوف» وعندها تنجح في إحداث ضحك مدوّي من أولئك الذين يسمعونها، وغضب زائف من الشخص المتهم.

خطر في بال بيكولا، في وقت ما، بأن عينيها، تانك العينين اللتين خزنتا الصور والمشاهد.. لو أن تانك العينين كانتا مختلفتين. بكلمة أخرى لو كانتا جميلتين لأصبحت هي نفسها جميلة. كانت أسنانها بحالة جيدة، ولم يكن أنفها، على الأقل، كبيراً مسطحاً مثل أنوف بعض النساء اللواتي يُعتقد أنهن فاتنات جداً. إذا أصبحت مختلفة، جميلة، فربّما يصبح كولي مختلفاً أيضاً. السيدة بريدلوف كذلك. ربما سيقولان: «يالعينيْ بيكولا الجميلتين.. لايجب أن نقوم بأشياء سيئة أمام هاتين العينين الجميلتين».

عيون جميلة. عيون زرقاء جميلة. عيون واسعة زرقاء جميلة. اركضٍ يا (جيب) اركض. جيبٍ يركض. أليس تركض. أليس تملك عيوناً زرقاء. جيري يملك عيوناً زرقاء. جيري يركض. أليس تركض. إنهما يركضان بعيونهما الزرقاء. أربع عيون زرقاء جميلة. عيون بزرقة السماء. زرقاء مثل بلوزة مستر فورست. زرقاء مثل نجمة الصباح. أليس ـ و ـ جيري ـ عيون ـ حكايات ـ زرقاء.

في كل ليلة كانت تصلي، بانتظام، من أجل عيون زرقاء. لسنةٍ كاملة ظلّت تصلي بحرارة. وبالرغم من ثبوط همتها نوعاً ما، إلا أنها لم تفقد الأمل. أن امتلاك شيء رائع كهذا يحتاج إلى وقت طويل. لن تعرف أبداً جمالها بعد أن تملكها اعتقاد راسخ بأن معجزة فقط ستنقذها، ولم تعد ترى إلا شيئاً واحداً: عيون الآخرين.

مشت في الشارع باتجاه مخزن صغير للبقاليات يبيع سكر نبات ببنس واحد. انزلقت البنسات الثلاثة في حذائها. واستقر البنس الرابع بين الجورب وباطن القدم. شعرت مع كل خطوة بضغط القطع المعدنية المؤلم على قدمها. تهيج عذب ممكن تحمّله، لايُنسى، مليء بالوعد والطمأننية، حتى أنه يبعث على الاعتزاز. هناك وقت كاف لتفكر ماذا تشتري. مشت

في الشارع العريض مُساقة بالصور المألوفة، المحببّة لأنها مألوفــة. أعشـاب الهُندباء البرية علـى قـاعدة عمـود التلفون تساءلت لمـاذا يسميها النـاس بالأعشاب الضارة. فكـرت بأنهـا جميلـة. ولكـن الكبـار يقولـون: «الآنسـة دونيون تعتني كثيراً ببيتهـا ولاهندبـاء بريـة واحـدة في أي مكـان» دخلـت نساء من أوروبا الشرقية بسلالهن لينتزعن أعشاب الهندباء البرية. لم يكـنّ يردن الأطراف الصفراء. بل الأوراق الحادة الخشنة فقط. إنهن يعملن حساء هندباء، ونبيذ هندباء. لا أحد يحب رأس هندباء، ربما لأنها كثيرة جـداً، وقاسية. وسريعة الذبول.

كان هناك تصدع جانبي يشبه حرف «Y» وتصدع، آخر شقّ الأسمنـت عن الأرضية القذرة. قادتها خطواتها المنزلقة مراراً إلى ذلـك الشـرخ القديـم الأملس، حيث كان التزحلق سهلاً عليه، وكـانت العجـلات تـنزلق عليـه بشكل متواز، وأزيز خفيـف. أمـا الأرصفـة الأخـرى المبلّطـة حديثـاً، فقـد كانت وعرةً وغير مريحة، وكان صوت العجلات المنزلقة مهيجاً للأعصاب.

لقد رأت وجرّبت هذه الأشياء، وأشياء أخرى بليدة. كانت هذه الأشياء بالنسبة لها، هي مفاتيح ووسائل اختبار للعـالم، قابلـة للنقـل والامتـلاك. امتلكت ذلك الشق الذي جعلها تتعثّر، امتلكت تلك المجموعة من أشـجار الهندباء التي أطاحت برؤوسها البيضاء في الخريف الماضي، والـتي تحـدق في رؤوسها الصفراء هذا الخريف. امتلاكها لهـا جعلهـا جـزءاً مـن العـالم، وجعل العالم جزءاً منها.

تسلقت أربع درجات خشبية باتجاه بـاب محـل «ياكوبوسـكي» الـذي يبيع الخضراوات الطازجة، واللحم ، وكل شيء. يرن الجرس حالما تفتـح الباب.

تنظر، وهي تقف أمام الطاولة، إلى مجموعة الحلويات. تحسـم الأمـر: كل أنواع حلوى ماري جينز كل ثلاثة قطع ببنس واحد.

تخلـع حذاءهـا، وتسـتخرج الثلاثـة بنسـات. يلـوح رأس السـيد «ياكابوسكي» الرمادي من فوق الطاولة. يرفع عينيه، بعد أن كان مستغرقاً

في التفكير ليواجهها. عينان زرقاوان. كليلتان. يتحرك ببطء، مثل صيف هندي تدريجياً، وبشكل غير محسوس، باتجاه الصيف، ينظر تجاهها. عند مكان مابين بين الشبكية والجسم المنظور، بين الرؤيا والرؤية ترتدّ عيناه، مترددتين، مرفرفتين. عند نقطة محددة في الزمان والمكان، يشعر أنه لايحتاج إلى بذل جهد لإلقاء نظرة عجلى أنه لايراها، فلا يوجد، بالنسبة إليه، شيء ليراه. كيف يمكن لصاحب دكان أبيض مهاجر في الثانية والخمسين من عمره، في فمه مذاق البطاطا والبيرة، وعيناه تتوقان لرؤية عيني العذراء ماري اللتين تشبهان عيني الغزال، والذي يعمي أحساسه توجس دائم من الخسارة، أن يرى فتاة سوداء صغيرة؟ لاشيء يوحي أن هناك عملاً مجيداً في حياته، هذا إذا لم نقل مرغوباً أو ضرورياً.

ـ «نعم؟»

تنظر إليه وترى الفراغ يستقر فيهما بدل الفضول. وشيء آخر. غياب كامل للإدراك الانساني ـ انفصال ذو غشاوة شبه زجاجية. لاتعرف مالذي يبقي نظراته معلّقة، ربما لأنه بالغ أو رجل، وهي فتاة صغيرة. ولكنها رأت سابقاً اهتماماً، وقرفاً، وحتى غضباً في عيون ذكور بالغين. ومع ذلك، فان هذا الفراغ ليس جديداً بالنسبة لها. إن له نهاية حادةً في مكان ما، في أسفل الجفن، يستقر النفور، لقد رأته كامناً في عيون كلّ البيض. لابد أن هذا النفور موجّه لها، لسوادها. كل الأشياء داخلها في حال تغير دائم، ولكن سوادها سكونيّ ومفزع. السواد هو المسؤول عن ذلك، وهو الذي يخلق ذلك الفراغ المشبع بالنفور في عيون البيض.

أشارت بإصبعها إلى الحلوى التي اسمها «ميري جينز»، إصبع مثل قصبة صغيرة سوداء، يضغط طرفها المستدقّ فوق الواجهة. إصرار هادىء غير عدواني لطفلة سوداء تحاول أن تقيم اتصالاً مع رجل كبير أبيض. «هذه» كلمة أقرب إلى التنهيدة منها إلى كلمة ذات معنى «ماذا؟ هذه؟ هذه؟» البلغم ونفاد الصبر يمتزجان في صوته.

هزّت رأسها، وثبتّت طرف أصبعها على قطعة الحلوى.. لايستطيع أن يفهم قصدها ـ زاوية رؤيته، وميلان إصبعها، جعلا الأمر غير مفهوم له.

تتحرك يده الحمراء المكتنزة في الخزانة الزجاجية مثل رأس دجاجة مرتعش فقد جسده.

- «ياللمسيح. أليس بمقدورك الكلام؟».

تلامس أصابعه قطعة الحلوى.

تومىء برأسها علامة الموافقة.

- «حسناً لماذا لم تقولي ذلك؟ كم؟ واحدة؟»

فتحت بيكولا قبضة يدها لتريه الثلاثة بنسات. يقذف بثلاث قطع باتجاهها ثلاثة مستطيلات صفراء. تمد له يدها بالنقود. يتردد غير راغب بلمس يدها. لاتعرف كيف تحرك أصبع يدها اليمنى من فوق الواجهة، أو تمديدها اليسرى بالقطع المعدنية.

أخيراً يقترب منها، ويأخذ البنسات من يدها، فتخدشُ أظافره راحة يدها الرطبة.

تشعر بيكولا، في الخارج، أن خجلها الذي لايمكن تفسيره يتضاءل.

أعشاب الهندباء البرية، تتدفق نحوها. دفعات من المحبة تتصاعد من داخل بيكولا. ولكنها لاتنظر إلى بيكولا، ولاتبادلها الحب. وتفكر بيكولا! «إنها قبيحة. مجرد أعشاب ضارة» تطفر فوق شقوق الرصيف، مشغولة بهذا الكشف. غضبٌ يستيقظ ويتحرك داخلها. يفتح فاه ويلعق، مثل جرو جائع وعطشان، ماتبقى من خجلها.

الغضب أفضل. هناك معنى لكونك في حالة غضب. شيء حقيقي، موجود. إدراك للقيمة. جيشان جميل. تعود بأفكارها إلى عيني السيد ياكوبوسكي، وصوته المليء بالبلغم. ولكن الغضب لن يصمد. فمن السهل إشباع الكلب، وإرواء ظمأه بسرعة، فينام. ينبثق الخجل ثانية، وينزّ نهيره الطينيّ في عينيها. ماالعمل قبل أن تنهمر الدموع. تتذكر «ميري جينز».

كل غلاف أصفر باهت عليه صورة. صورة «ميري جينز» صغيرة، تيمناً بها سُمّيت هذه الحلوى. وجه أبيض مبتسم. شعر أشقر منفوش بلطف،

عينان زرقاوان تطل عليها من عالم مليء بالعزاء والنقاء. العينان شقيّتان وقحتان، ولكنهما، ببساطة، جميلتان بالنسبة لبيكولا. تأكل الحلوى، طعمها لذيذ. أن تأكل الحلوى فهذا يعني، نوعاً ما، أنك تأكل العيون. تأكل ميري جينز. أحبب ميري جينز. كن ميري جينز.

حققت لها ثلاثة بنسات تسع هزاتٍ من النشوة مع ميري جينز. ميري جينز الجميلة التي سُميّت الحلوى تيمناً بها.

* * *

عاشت ثلاث عاهرات في الشقة التي فوق بيت بريدلوف. تشاينا، وبولند، والآنسة ماريا.

أحبتهن بيكولا، وكانت تقوم بزيارتهن وتأدية بعض المهام الصغيرة لهنّ. وكن هن، بالمقابل، لايحتقرنها.

صعدت بيكولا السلم إلى شقتهن. واستطاعت، حتى قبل أن يُفتح الباب استجابة لطرقاتها، سماع غناء بولند - كان صوتها عذباً — قاسياً مثل فروالة في صباح ما من أكتوبر/تشرين الثاني، صباح «انتصار غطاء الموقد»، طازجة: «أهلاً ياقشدة. أين جواربك؟» نادراً ماتدعو ماريا بيكولا باللقب نفسه مرتين. ولكن كانت القابها دائماً ألقاباً محببّة تختارها من الأطباق وقوائم الطعام الحاضرة أبداً في ذهنها قبل أي شيء آخر.

- «مرحبا آنسة ماريا. مرحبا آنسة تشاينا. مرحبا آنسة بولند».

- «لقد سمعتيني. أين جواربك؟ أنت عارية الرجلين مثل كلب زرائب».

- «لم أستطع أن أجد أيّاً منها».

- «لم تستطيعي أن تجدي أيّا منها؟ لابد أن شيئاً في بيتكم يحب الجوارب».

ضحكت تشاينا ضحكة خافتة. عندما يفُقد أي شيء فإن ماريا تعزو اختفاؤه إلى «شيء مايحبه». «شيء في هذا البيت يحب حمالات الصدر». كانت تقول متوعدة.

كانت بولند وتشاينا على أهبة الاستعداد. بولند تكوي الملابس دائماً، وتغني دائماً، تشاينا، الجالسة على كرسي المطبخ ذي اللون الأخضر الفاتح، تجعّد شعرها دائماً. أما ماريا فإنها لم تكن جاهزة يوماً قط.

كنّ ودودات، ولكنهن بطيئات في المبادرة بالكلام فكانت بيكولا تبادر دائماً في الحديث مع ماريا التي من الصعب أن تتوقف حالما يصيبها الألهام.

ـ «كيف استطعت أن تحصلي على كثير من الأصدقاء آنسة ماريا؟».

ـ «أصدقاء؟ أصدقاء؟ لم أرَ ولداً منذ ١٩٢٧».

ـ «لم تر ولداً منذ ذلك الوقت» غرزت تشاينا أداة تجعيد الشعر في علبة «نونايل»، فَأصدر الزيت هسهسة عند ملامسته المعدن الحار.

أصرّت بيكولا على سؤالها: «كيف حصل ذلك؟»

ـ «كيف حصل ماذا؟ لم أر ولداً منذ ١٩٢٧؟ لأنه لايوجد شباب منذ ذاك الوقت. لقد انقطعوا منذ ذاك الوقت. وبدأ الناس يولدون شيوخاً».

ـ «تعنين أن ذلك حصل عندما أصبحت أنت عجوزاً».

ـ «أنا لم أكبر أبداً. لقد سمنت فقط».

ـ «نفس الشيء».

ـ «هل تعتقدين أن الناس يظنون أنك شابة لأنك نحيفة؟ يمكن أن تفعلي ذلك بحزام».

ـ «وأنت تبدين مثل بغلة عجفاء».

ـ «كل ماأعرفه أن رجليك المتقوستين مترهلتان مثل رجليّ».

ـ «لاتقلقي بشأن رجليّ المتقوستين. إنهما أول شيء يفتحونه».

ضحكت النساء الثلاث. ألقت ماريا رأسها إلى الخلف، وأتى صوتها المنبثق من أعماقها مثل صوت أنهار متجهة معاً، حرة، عميقة، عكرة، لتصب في بحر مفتوح. وقهقهت تشأينا قهقهة متشنجة. كان كل لهاث يبدو وكأنه أنتزع منها بواسطة يد غير مرئية تهزّ وتراً غير مرئي. وضحكت بولندة، التي نادراً ماتتكلم إلا إذا كانت مخمورة، دون صوت، إنها تدندن في الأغلب، عندما لاتكون مخمورة، أو تغني أغاني «البلوز» التي تعرف عنها الكثير.

مدت بيكولا أصبعها لتلمس وشاحاً موضوعاً على الجانب الخلفي من الأريكة: «لم أر أحداً قط لديه عدد كبير من الأصدقاء مثلك آنسة ماريا. كيف حصل أنهم كلهم يحبونك؟».

فتحت ماريا قنينة من جعة الجذور(*).

ـ «وأيّ شيء آخر يفعلونه؟ أنا غنيّة وجميلة. إنهم يريدون أن يضعوا أصابع أقدامهم في شعري المجعدّ حتى يصلوا إلى مالي».

ـ «أنت غنية آنسة ماريا؟»

ـ «ورثت فلوس ماما ياحلوة».

ـ «من أين حصلت على المال وأنت بلا عمل؟».

وقالت تشانيا: «نعم، من أين حصلت على المال؟».

ـ «من هوفر. قدمت له مرة معروفاً لمصلحة أف.بي.آي».

ـ «ماذا فعلت؟»

ـ «أسديت له معروفاً. كانوا يريدون أن يقبضوا على هذا المحتال. اسمه جوني كما تعرفن. كان حقيراً وحالماً...».

ـ «نعرف ذلك» قالت تشاينا وهي ترتّب شعرها.

ـ «...كان مطلوباً جداً من أف.بي.آي. لقد قتل أناساً أكثر من السل. أما إذا قاومتيه؟ يايسوع! إنه سيركض خلفك مادامت هناك أرض. حسناً، كنت صغيرة وفاتنة في ذاك الوقت. لم يكن وزني أكثر من تسعين باونداً، رطبة دائماً».

(*) شراب غازي أو فوّار مستخلص من الجذور والأعشاب.

فقالت تشانيا: «لم تكوني رطبة في يوم من الأيام».

ـ «وأنت لم تكوني جافة قط. اسكتي. دعيني أخبرك ياحلوة. وأخبرك بصدق، وأنا الوحيدة التي استطاعت أن توجهه حين كان يذهب ويسرق بنكاً أو يقتل بعض الناس، كنت أقول له: «جوني، لاينبغي أن تفعل ذلك. فيقول لي أنه ينبغي عليه أن يشتري لي أشياء جميلة، سراويل دانتيلا وكل شيء. وكل مساء سبت كنا نشرب قنينة بيرة ونقلي سمكاً. ونقلي خليط جريش وبيض، وعندما يسمّر ويصبح هشاً. نفتح البيرة الباردة...» تصبح عينا ماريا أكثر صفاء كلما تذكرت مثل هذه الوجبات، في أي وقت وأي مكان، وتنشلّ حركتها. كل حكاياتها كانت تتوقف عند وصف الطعام. رأت بيكولا أسنان ماريا على رقائق ظهر سمك الشّبص، رأت الأصابع الدهنية تمتد لتضع في فمها رقائق صغيرة من زلال البيض، وقطعاً من اللحم الأبيض الحار تسقط من فمها، سمعت «فرقعة» سدادة قنينة البيرة الباردة تحرق لسانها، انهت حلم اليقظة هذا قبل ماريا بفترة طويلة. ثم سألتها: «ولكن ماذا حول الفلوس؟».

فضحكت تشانيا ضحكاً كالعواء: «إنها تتصرف وكأنها السيدة ذات الرداء الأحمر التي وشت بـ«ديلنجر» ديلنجر لن يقترب منك قبل أن يذهب إلى افريقيا ويصطاد لك فرس النهر».

ـ «حسناً، فرس النهر هذا له مؤخرة مستديرة في شيكاغو إهوو، يايسوع. تسع وتسعون!»

ـ «كيف يمكنك أن تقولي دائماً «يايسوع» وتذكري رقماً؟»

ـ «لأن أمي علمتني أن لا ألعن أحداً أبداً..».

فسألت تشانيا: «ألم تعلمك ألا تسقطي سروالك؟».

ـ «لم أكن أملك أي سروال. لم أر سروالاً داخلياً حتى بلغت الخامسة عشرة من عمري. عندما تركت جاكسون واشتغلت في النهار في سينسيناتي. أعطتني سيدتي البيضاء بعض سراويلها القديمة، فاعتقدت أنها نوع من القلنسوات الطويلة، فوضعتها على رأسي لأحتمي بها من الغبار. وعندما رأتني سيدتي أرادت أن تتعارك معي».

- «لابد أنك كنت فتاة غبية» أشعلت تشانيا سيكارة، وبردّت المكواة.

- «وكيف كان بإمكاني أن أعرف؟» توقفت ماريا ثم قالت: «وما الفائدة من لبس شيء ستنزعينه بعد ذلك كل الوقت؟ لم يسمح لي «ديوي» أن احتفظ بها لفترة طويلة حتى لا أعتاد عليها».

- «من هو ديوي؟» أنه شخص جديد بالنسبة لبيكولا.

- «ديوي من؟ دجاجة! ألم تسمعيني أتحدث عن ديوي؟»

أحست ماريا بالصدمة نتيجة أهمالها هذا.

«لا مدام»

«أوه ياحبيبتي. لقد ضيعت نصف حياتك. قف يايسوع! واحد تسعة. خمسة. أية نعومة! لقد قابلته عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري. هربنا وعشنا معاً كزوجين لثلاث سنوات. هل تعرفين سادة القوم أولئك الذين ترينهم يجرون هنا؟ لو جمعت خمسين منهم معاً فانهم لايعادلون عظمة واحدة من ركبة الأمير ديوي. آه ياإلهي كم كان يحبني!».

كانت تشانيا ترتبّ خصلات من شعرها محدثة صوتاً مسموعاً: «إذن لماذا تركك تبيعين مؤخرتك؟».

- «ياصبية، حينما اكتشف أني أستطيع أن أبيعها، وأن أحداً ما يدفع لي نقداً من أجلها، فإنك تستطعين أن تطرحيني أرضاً. بريشة».

ضحكت بولند دون صوت!

- «وأنا أيضاً. جلدتني عمتي، في المرة الأولى، حين أخبرتها بأني لم آخذ فلوساً. قلت لها: فلوس؟ لماذا؟ إنه ليس مديناً لي بشيء».

فقالت: «الجحيم أنه ليس مديناً لك».

غرقن كلهنّ في الضحك.

ثلاثة جارجو يلات(*) مرحات. ثلاث عجائز شكسات مرحات. يسلّين أنفسهن بتذكر زمن الجهل الذي مضى عليه وقت طويل. لم يكنّ منتميات

(*) جارجويل: تمثال أوشخص بشع الوجه.

إلى تلك الأجيال من العاهرات التي ابتكرتها الروايات، ذوات القلوب الكريمة اللواتي كرسن أنفسهن لجعل حيوات الرجال النكدة حياة محتملة، واللواتي يأخذن نقوداً عرضاً وبتذلل لقاء «تفهمهنّ».

وليس هن من الصنف الحساس من الفتيات الشابات اللواتي أدت بهنّ الأقدار إلى الزلل، وأُجبرن على تنمية هشاشة خارجية ليحمين شبابهن من صدمات إضافية، ولكنهن كن يعرفن أنهن صالحات لأشياء أفضل. وقادرات على أسعاد الرجل المناسب. ولم يكنّ، أيضاً، من نوع العاهرات القذرات غير القادرات على كسب عيشهن من العهر فقط، فيتحولن إلى استهلاك المخدّرات والاتجار بها، أو إلى قوّادات ليكملن تدميرهن الذاتي، إنهن يتجنين الانتحار فقط من أجل معاقبة ذكرى أب غائب، أو ليغذين بؤس أم صامتة، وماعدا حب ماريا الخرافي للأمير ديوي، فإن تلك النسوة كرهن الرجال، كل الرجال، دون خجل، أو اعتذار، أو تمييز. إنهن يئسن معاملة زوّارهن ويحتقرنهم بشكل أصبح آلياً نتيجة الممارسة. رجال سود، رجال بيض، بورتوريكان، مكسيكيون، يهود، بولونيون، أيا كانوا ـ كلهم غير مناسبين، كلهم ضعفاء كلهم كانوا يمرون تحت عيونهن الحاقدة، وكن يستقبلن غضبهم ولامبالاتهم. لكن يجدو متعتهن في خداعهم. وهناك حادثة تعرفها كل المدينة. فقد أغوين مرة يهودياً على السلم، وانقضضن عليه ثلاثتهن، ثم حملنه من كعبيّ قدميه، بعد أن بعثرن كل شيء في جيوب بنطاله، وقذفنه من النافذة.

كذلك لم يكنّ يحترمن النساء اللواتي يخدعن أزواجهن، بشكل منتظم أو غير منتظم، فهذا لا يغير من الأمر شيئاً، رغم أنهن لسن زميلات لهن إذا صح التعبير. كن يسمينهن «العاهرات المطليات بالسكر»(*) ولم يكنّ يتقنّ أن يحلّنّ محلهنّ. كن يحترمن فقط النساء اللواتي يدعونهن بـ«النساء المسيحيات الملوّنات الطيبات»، النساء اللواتي كانت سمعتهن بلا شائبة،

(*) في الأصل sugar- coated: يلبّس بالسكر، أي يجعله جذاباً أو سائغاً على نحو سطحي أو ظاهري.

اللواتي يرعين عوائلهن، اللواتي لا يشربن أو يدخنّ أو يجرين هنا وهناك. هاته النساء يملكن محبة لاتموت ولو أنها خفيــة. وينمـن مـع أزواج هاتـه النساء، ويأخذن نقودهم، ثأراً لهن.

لم يحمين أو يحرصن على براءة شبابهن، فهن ينظـرن إليـه علـى انـه عهد الجهل، ويتأسفن على أنهن لم يسـتفدن أكـثر منـه. وكذلـك لم يكـن فتيات شابات في ملابس عاهرات، أو عاهرات يتندمن على فقدان البراءة، بل كن عاهرات في ملابـس عـاهرات، عـاهرات لم يكـن شـابات قـط، ولم يعرفن كلمة البراءة. كن مع بيكولا حرات كما مع بعضهن البعـض. كـانت ماريا تختلق القصص لها لأنها طفلة، وكانت قصصاً مرحـة وغـير مهذّبـة. ولو أن بيكولا عبرت عن نيتها أن تعيش الحياة التي يعشنها، لما حـاولن ثنيها عن ذلك أو تحذيرها.

- «عندكم أطفال أنت وديوي برنس آنسة ماريا؟»

- «نعم، عندنا بعض الأطفال».

تململت ماريا، وسحبت دبوساً من شـعرها، وبـدأت تنظـف أسـنانها، وكان هذا يعني أنها لاتريد أن تتكلم أكثر.

اتجهت بيكولا إلى النافذة ونظرت إلى الشارع الفارغ.حزمة من العشـب شقتّ طريقها إلى الأعلى من خلال شقّ في الرصيف، من أجل أن تسـتقبل ريح أكتوبر الرطبة.

فكرت بديوي برنس وكم كان يحب ماريـا. كيـف يبـدو الحـب؟ مـاذا يفعل الكبار حين يحبون بعضهم بعضاً؟

يأكلون سمكاً سوية؟ قفزت إلى ذهنها صورة كولي والسـيدة بريدلـوف في الفراش. إنه يصدر أصواتاً كأنه يتألم، كأن شيئاً أمسكه من حنجرته وأبي أن يتركه. ولكن مهما كان ضجيجه مزعجاً، فإنه ليس أكثر ازعاجاً من ذلـك السكون الذي تغرق فيه أمها وكأنها ليست هناك. ربما يكون هذا هو الحب.

نظرت بيكولا إلى النساء الثلاث وهي تدير عينيها عن النـافذة. وكـانت بيكـولا قـد غـيرّت رأيهـا بخصـوص الخصـلات القصـيرة، وبـدأت بعمـل

تسريحة بومبادور صغيرة(*). كانت بارعة في ابتداع عدة أشكال من تسريحات الشعر. ولكن بعد كل تسريحة تشعر بالانزعاج والضيق. ثم وضعت مكياجاً مبالغاً فيه، فعملت لنفسها حاجبين مدهشين وفماً مثل سهم كيوبيد، وفيما بعد غيرت ذلك، فعملت حاجبين شرقيين، وفماً مشقوقاً بشكل شيطاني.

بدأت بولند بصوتها العذب كالفريز تغني أغنية أخرى:

أعرف فتىً أسمر اللون كسماء رائقة

أعرف فتىً أسمر اللون كسماء رائقة

يقفز التراب فرحاً حين تلامس قدماه الأرض

يتبختر كالطاووس

عيناه نحاس متوهج

ابتسامته شراب من عصير السكر

يقطرّ حلاوته شيئاً فشيئاً

إلى آخر قطرة

أعرف فتىً أسمر مثل سماء رائقة.

جلست ماريا تقشر فولاً سودانياً وتدسّه بسرعة في فمها. وظلت بيكولا تنظر، وتنظر إلى هاته النساء. هل هن حقيقيات؟

ثم تجشأت ماريا بصوت خفيض، ناعم، لطيف.

(*) تسريحة يرفع الشعر عالياً فوق الجبين.

الشتاء

وجه أبي يستحق الدراسة. يزحف إليه الشتاء ويتصدره. تصبح عيناه جرفاً من الثلج ينذر بكتلة جليدية ضخمة. ينثني حاجباه مثل فروع كبيرة سوداء في أشجار عارية من الأوراق. يتخذ جلده لون شمسِ الشتاء الأصفر، الباهت، الكئيب. فكهّ مثل حافة حقل محاصر بالثلج منقّطٍ بالقش. جبينه العالي مثل تيار متمجد في بحيرة «أيري»، تدفق مكتوم من أفكار باردة تدوّم في الظلام. تحول قاتل الذئاب إلى مقاتل صقور. اشتغل ليل نهار ليردّ غائلة الجوع. إله يحرس النار، ويعطينا تعليماته حول أي الأبواب يجب أن نغلقها أو نفتحها من أجل توزيع مناسب للحرارة، يضرم النار، يبحث بالتفصيل نوعية الفحم، ثم يعلمنا كيف نقلبه، ونغذي النّار، ونكوّم الفحم.

* * *

طوّق الشتاء رؤوسنا بطوقه البارد وأذاب عيوننا. وضعنا مسحوق الفلفل في الجوارب. وفازلين على وجوهنا. وكنا نحدق خلال الصباحات المظلمة الباردة كالثلاجة في أربع قطع من البرقوق المجفّف، وأكوام من دقيق الشوفان، وأوراق من الكوكا المجففة التي تغطيها القشور لكننا كنا، في أغلب الأحيان، ننتظر الربيع حين ستخضر الحدائق.

وفي الوقت الذي كان فيه الشتاء متيبساً في أنشوطة بغيضة لايمكن لأي شيء أن يحلّها، شيءٌ ماحلّها، أو بالأحرى، شخص فك الأنشوطة إلى خيوط فضية تشبكنا، تشربكنا، تجعلنا نتوق إلى ذلك الغيظ البليد الذي كان يسببه السأم في السابق.

مُمزِّق الفصول هذا كان فتاة جديدة في المدرسة اسمها مورين بيل. فتاة خلاسية طويلة رائعة الجمال بشعر بني طويل مجدول في جديلتين متدليتين على ظهرها. كانت غنية، حسب مقاييسنا على الأقل، غنية مثل أغنى الفتيات البيض، وتبدو عليها الراحة والسعادة. وكانت نوعية ثيابها تجعلنا، فريدا وأنا، نفقد عقلينا. أحذية ذات جلد صقيل بأبزيم، كنا نحصل على أحذية رخيصة تقليداً لها في عيد «الفصح» فقط، وما أن يحل/ أيار، حتى تكون قد تمزقت. كنزات من الوبر لها لون قطرات الليمون مثبتة تحت تنورات ذات ثنيات مرتبة بشكل يصعقنا. جوارب قصيرة ملونه بحواش بيضاء، وسترة بنية مخملية محلاة بالفرو الأبيض، وفروة تنسجم معها. كانت هناك لمعة من الربيع في عينيها ذات الاخضرار الغامق، وشيء صيفي في بشرتها، ونضوج خريف ثريّ في مشيتها.

لقد سحرت المدرسة كلها. يبتسم لها المعلمون مشجعين حين يسألونها، ولايدفعها الأطفال السود في الحفر، ولايرمونها بحجر، ولاتصك الفتيات البيض على أسنانهن عندما تكون شريكتهن في العمل، وتنحني الفتيات السود جانباً حين تريد أن تستخدم حنفية التواليت، ويسبلن عيونهن تحت أجفانهن. لم تكن مضطرة للبحث عن زميلة لتأكل معها في الكافيتريا، فالكلّ يتسابق إلى الطاولة التي اختارتها، حيث تتناول وجبات فاخرة تجعلنا نحس بالخجل من خبزنا المتَشَرب بالجلي، وسندويش البيض مع السلطة المقسّم إلى أربع قطع رقيقة، وأكواب كيك، ومرقة جزر وكرفس، وتفاح كبير غامق. وكانت تشتري وتحب حتى الحليب.

كنا، فريدا وأنا، مذهولتين، مثارتين. ومسحورتين بها. وكنا نحاول أقصى مانستطيع أن نكتشف أي عيب فيها لنستعيد توازننا، واكتفينا، في البداية، باختيار اسم بشع لها، فغيرنا مورين بيل إلى «ميرنجيو باي»(*). وفرحنا فرحاً شديداً حين اكتشفنا، فيما بعد، أن لها ناباً ـ رغم انه جميل حقاً ـ ولكنه ناب مع ذلك وضحكنا عندما اكتشفنا إنها وُلدت بست أصابع

(*) أي حلوى تصنع من بياض البيض والسكر.

في كلّ يد، وقد ترك كل إصبع نتوءاً صغيراً بعد إزالتـه. كـانت انتصـارات صغيرة، ولكننا استفدنا منها قدر مانستطيع ـ ضحكـات نصـف مكتومـة خلفها، وتسميتها بالحلوى ذات الست أصابع وناب. ولكن كان علينــا أن نفعل ذلك وحدنا، فلم تتعاون أي من الفتيات الأُخريات معنا في عداوتنا هذه.

وعندما خُصصت لها خزانة بعد خزانتي، كنـت أطلـق لعنـان لغـيرتي أربع مرات في اليوم. وراودتنا الشكوك، أنا وأختي، بانهم يعدون، بشـكل خفي، لجعلنا صديقات، هذا إذا سمحت هي بذلك. ولكني كنت أعرف أن هذه الصداقة ستكون صداقة خطرة، لأنني كلما تتبعت بعيني تلك النقـوش البيضاء على حواشي جواربها ذات اللـون الأخضـر الضـارب إلى الصفـرة، وشعرت بارتخاء وتهدل جواربي البنية، أردت أن أركلها. كلما فكرت بذلك الترفع الموروث في عينيها، أردت أن اضربها على يدها بباب الخزانة.

بدأنـا نعـرف بعضنـا قليـلاً بسـبب قـرب خزانتينــا مــن بعضهمــا، واستطعت حتى أن أتبادل معها حديثاً معقولاً دون أن أتصورها ساقطة من جرف صخري، أو أقهقه مما أتصوره إهانة ذكية.

في أحد الأيام، بينما كنت انتظر أختي، اقتربت مني قائلة:

ـ «مرحبا»

ـ «مرحبا»

ـ «تنتظرين أختك؟»

ـ «أي..أي»

ـ «في أي طريق تذهبان إلى البيت؟»

ـ «شارع٢١، إلى البرودواي».

ـ «لماذا لاتذهبان إلى الشارع٢٢».

ـ «لأني أعيش في شارع ٢١».

ـ «أوه، بإمكاني أن اتخذ هذا الطريق كما أعتقد...جزءاً منه علـى أيـة حال».

ـ «نحن في بلد حر».

أقبلت فريدا نحونا، وجواربهـا البنيـة ممطوطـة عنـد ركبيتهـا، لأنهـا عقفت أصبع قدمها حتى تخفي شقاً في الجورب عند الكعب.

ـ «ستمشي مدرين جزءاً من الطريق معنا».

تبادلنا النظرات فريدا وأنا. كانت عيناها تتوسـل تحفظـاً مـني، بينمـا بقت عيناي جامدتين. كان يوماً ربيعياً كاذباً، اخترق، مثل مورين، قشره شتاء مائت، فقد ضللتنا فيه البرك الموحلة، والطين، والدفء المغري، إنه من تلك الأيام التي نثني فيها معاطفنا فوق رؤوسنا، ونترك فيها الكلوشـات(*) في المدرسة، فنأتي في اليوم التالي ونحن مصابات بالخُناق. كنا نستجيب لأي تغيير في الجو في اللحظة ذاتها. وكنا فريدا وأنا، وقبل أن تتحـرك البـذور بوقت طويل، نحني أعناقنا ونلكز الأرض، نملأ أفواهنا بالهواء، ونشرب المطر.

ما أن انطلقنا من المدرسة مع مورين، حتى بدأنـا نتخلـص مـن أغطيـة رؤوسنا ومعاطفنا. وضعنا الأغطيـة في جيـوب المعـاطف، ووضعنـا المعـاطف فوق رؤوسنا. كنت أتساءل في داخلي عن الطريقة التي ألقي فيهـا بقلنسـوة موريـن الصوفيـة في البالوعـة مستغلة الزحـام في ملعـب الأطفـال. كـانت مجموعـة مـن الأطفـال تشـكل، عنـد تجويـف في الحـائط، حلقـة حـول ضحيتهـا: بيكـولا بريدلـوف، إنهـم بـاي بـوي، وودروكـين، وبـودي، وويلسون، وجوني بوغ ـ مثل قلادة من أحجار شبه كريمة كانوا يطوّقونها. وكانوا، وقد أسكرتهم رائحة المسك التي تفوح منهم، وإحساسهم بالانتشـاء بقوتهم العددية البسيطة، يقومون بغارات متكررة عليها وهم مبتهجون:

«سوداء، ياسـوداء أبـوك ينـام عاريـاً... ياسـوداء، ياسـوداء أبـوك ينـام عارياً.. ياسوداء..»

كان يرتجلون بيتاً من الشعر مؤلفاً من إهانتين حول أمـور خـارج إرادة الضحية: لون جلدها، وتخمينات متنافرة جداً عن عادات النوم عند رجل كبير السن، فإن يكونوا هم أنفسهم سوداً، وقد يكـون آبـاءهم لهـم العـادات نفسها في الاسترخاء، فهما أمـران لاعلاقـة لهمـا بـالموضوع. إن احتقـارهم

(*) الكلوش: حذاء فوقي مطاطي يلبس فوق الحذاء العادي.

لسوادهم هو مايمنح الإهانة الأولى تأثيرها المؤلم. كانوا يبدون وكأنهم أخذوا كل جهلهم الذي تربّوا عليه، وكل الكره الذاتي العنيف الذي تعلموه، وكل ذلك اليأس الحاد المضمر، وضعوا ذلك داخل قمة بركان مستعر من الاحتقار، ظلّ مشتعلاً لعصور في تجاويف عقولهم، ثم برد، ثم اندلق على الشفاه الغاضبة ملتهماً كلّ شيء في طريقة. رقصوا رقصة الموت حول الضحية التي كانوا مهيئين، من أجل سواد عيونهم، للتضحية بها حتى النفس الأخير.

ياسوداء، ياسوداء، أبوك ينام عارياً

تا...تا تا...تا

تا...تا تا...تا

تحركت بيكولا ببطء حول الحلقة وهي تبكي، وكانت قد ألقت دفاترها المدرسية، وغطتْ وجهها بيديها.

كنا نراقب ذلك خائفين من أنهم قد يلاحظوننا، ويهجمون علينا، ثم خطفت فريدا، بضراوة وعنف ماما نفسها، معطفها من رأسها ورمته على الأرض. اندفعت تجاههم وهوت بكتبها على رأس وودروكين. تفرق الأولاد، وأمسك «وودروكين» برأسه:

«مرحباً ياصبية!»

«توقف عن ذلك..هل تسمع؟» لم نسمع صوت فريدا بهذه القوة من قبل، كان عالياً وواثقاً. ربما لأن فريدا كانت أطول منه، ربما لأنه رأى عينيها، أو ربما فقد اهتمامه بهذه اللعبة. وربما كان متعلقاً بفريدا.. على أية حال، بدا «وودروكين» مرعوباً لفترة منحت فريدا شجاعة إضافية.

«دعها وشأنها، وإلا أخبرت كلّ شخص بما فعلت».

لم يجب وودورا، واكتفى بتقليب عينيه في اتجاه آخر. أخذ باي بوي الكلام: «استمري يافتاة.. لن يزعجك أحد».

- «أسكت أنت يا أحمق» وجدت لساني أخيراً.

- «من دعاني بالأحمق؟».

- «أنا دعوتك بالأحمق. يا أحمق».

سحبت فريدا بيكولا من يدها

«تعالي» رفع باي بوي قبضته عليّ: «تريدين لطمة على وجهك؟»

ـ «نعم، هات واحدة».

ـ «ستنالين واحدة».

ظهرت مورين قربي. فبدا الأولاد غير راغبين بالاستمرار أمام عينيها المشرقتين المليئتين بالربيع، واللتين انفتحتا على سعتهما اهتماماً. أخذوا يلتوون، وتراجعوا مرتبكين غير راغبين بضرب ثلاث فتيات تحت نظراتها المحدّقة اليقظة. لقد سمعوا نداء غريزة ذكورية آخذة بالنمو تأمرهم أن يتظاهروا بأننا غير جديرين باهتمامهم.

ـ «تعال يارجل».

ـ «نعم، تعال. ليس عندنا وقت لنبدّده معهن».

وانسحبوا مدمدمين بضعة ألقاب نابية بلا مبالاة.

التقطت دفاتر بيكولا المدرسية ومعطف فريدا، ثم تركنا أربعتنا الساحة.

ـ «صبي عنيد، يزعج الفتيات دائماً». اتفقت معي فريدا في ذلك.

ـ «تقول المعلمة فورستر بأنه فاسد لا سبيل إلى تقويمه».

ـ «حقاً؟ لا أعرف ماذا يعني ذلك. لكنه حكم يبدو منطبقاً على باي بوي تماماً».

بينما كنا نتحدث باهتمام عن الشجار، وضعت مورين، وقد دبّت فيها الحيوية فجأة، ذراعها ذات الأكمام المخملية على خصر بيكولا. وبدأت تتصرف وكأنهما صديقتان حميمتان جداً.

ـ «لقد أتيت لتوي إلى هنا. اسمي مورين بيل. مااسمك؟»

ـ «بيكولا».

ـ (بيكولا؟ أليس هذا هو اسم الفتاة في «محاكاة الحياة»)

ـ «لا أعرف. ماهذا؟»

«فيلم تكره فيه الفتاة الخلاسية أمها لأنها سوداء وقبيحة، ولكنها تبكي كثيراً في جنازتها. كان فيلماً حزيناً جداً بكى كل شخص شاهده حتى كلوديت كولبيرت».

«آه!» كان صوت بيكولا أقرب إلى التنهيدة.

«على أية حال، كان اسمها بيكولا أيضاً. كانت جميلة جداً، حين يعرض ثانية سأراه أيضاً. أمي رأته أربع مرات».

كنا، فريدا وأنا، نمشي خلفهن، مندهشتين من كون مورين تمشي مع بيكولا، ولكننا كنا مسرورتين مع ذلك، ربما أنها بعد كل شي، ليست سيئة. وضعت بيكولا سترتها على رأسها ثانية، وأسرعنا نحن بملابسنا الجوخ مستمتعتين بالنسيم الدافىء وبطولات فريدا.

سألت مورين بيكولا:

ـ «أنت معي في صف الجمناستك..أليس كذلك؟»

ـ «نعم»

أنا متأكدة أن هناك تقوساً في ساقي الآنسة، وأنا أراهن أنها تظن أنهما جميلتان. كيف تلبس هي سروالاً قصيراً بينما نرتدي نحن تلك السراويل الطويلة القديمة الموضة؟ أتمنى أن أموت كلما لبستها.

ابتسمت بيكولا دون أن تنظر إلى مورين التي توقفت لفترة قصيرة قائلة: (هذا محل «إيزالي»).

هل تريدين بوظة؟ عندي فلوس. فتحت جيباً خفياً في الفروة الأسطوانية، وسحبت منه ورقة نقدية مدعوكة من فئة الدولار، وسامحتها على تلك الجوارب الطويلة.

ـ «لقد رفع عمي دعوى على محل إسالي. رفع دعوى عليهم في «اكرون». قالوا أنّه أخلّ بالنظام ولذلك لن يشغلوه، ولكنّ صديقاً له، شرطياً، أيّد شهادته فنجحت الدعوى».

ـ «ماهي الدعوى؟».

ـ «الدعوى هي عندما تريدين أن تتغلبي عليهم إذا أردت ذلك، ولا يستطيع أي شخص أن يفعل لك شيئاً».

عند مدخل «إيزالي» استدارت مورين إلينا وسألتنا:

ـ «هل تشترين آيس كريم؟» نظرنا إلى بعضنا ثم قالت فريدا:

ـ «لا».

اختفت مورين مع بيكولا في المخزن.

نظرت فريدا بوداعة باتجاه الشارع، وفتحت فمي، ولكني أغلقته سريعاً. من المهم جداً أن لايعرف العالم بأني أتوقع تماماً من مورين أن تشتري آيس كريم، وإنني، خلال ١٢٠ ثانية مضت، انتقيت حتى النكهة، وأنني بدأت أحب مورين، وأن أي واحدة منا لم تكن تملك بنساً واحداً.

افترضنا أن مورين كانت لطيفة مع بيكولا بسبب الأولاد، وكنا محرجتين أن يضبطنا أحد ـ حتى من قبل بعضنا البعض ـ بأنها ستتعامل معنا مثل تعاملها مع بيكولا، وأننا نستحق ذلك بقدر ماهي تستحقه.

خرجت الفتاتان وكانت بيكولا تحمل علبتين من الأناناس والبرتقال، ومورين علبة توت عليق أسود.

وقالت لنا: «كان ينبغي أن تشتروا شيئاً. عندهم كل الأنواع» ونصحت بيكولا قائلة: «لاتأكليه حتى نهاية العلبة».

ـ «لماذا؟».

ـ «لأن هناك ذبابة».

ـ «كيف عرفت؟»

ـ «أوه، إني امزح. أخبرتني فتاة مرة أنها وجدت ذبابة في أسفل العلبة. ومنذ تلك المرة وهي ترمي العلبة قبل نهايتها»

ـ «أوه».

اجتزنا مسرح «أرض الأحلام». وكانت «بيتي غرابل» تبتسم لنا.

سألت مورين: «ألا تحبونها؟»

فردت بيكولا: «أوه، نعم».

ولكني اختلفت معها: («هيدي لامر» أفضل).

فوافقتني مورين: «أو، أو، نعم. أخبرتني أمي أن فتاة تدعى أودري ذهبت إلى محل للتجميل في المنطقة التي كنا نعيش فيها سابقاً، وسألت المدام أن تصفف شعرها مثل شعر هيدي لامر، فقالت السيدة: «نعم، عندما تربين شعراً مثل هيدي لامر» ضحكت طويلاً بعذوبة.

قالت فريدا: «يبدو أنها مجنونة».

ـ «نعم بالتأكيد. أنها حتى لم تحض بعد وهي في السادسة عشرة وأنتنّ؟».

فقالت بيكولا وهي ترمقنا: «نعم».

ـ «وأنا كذلك». لم تبذل أية محاولة لإخفاء فخرها بذلك.

«منذ شهرين بدأ الطمث معي. قالت صديقتي التي تعيش في توليد وحيث عشنا سابقاً، بأنها عندما بدأ معها ذلك كانت خائفة حتى الموت، وظنت أنها قد قتلت نفسها».

وسألت بيكولا وكأنها تأمل أن تجد الجواب بنفسها: «هل تعرفين لماذا؟».

«من أجل الأطفال». قالت مورين ذلك رافعة حاجبيها، متعجبة من سذاجة السؤال: «يحتاج الأطفال إلى الدم عندما يكونون داخلك،وعندما تحملين بطفل، فإن الطمث يتوقف. ولكن عندما لاتحملين، فانك لاتحتاجين إلى توفير الدم فيخرج.

وسألت بيكولا:

ـ «كيف يحصل الأطفال على الدم؟»

ـ «من خلال الحبل السري، أنت تعرفين، حيث السرّة، حيث ينمو الحبل السري ويضخ الدم إلى الطفل».

ـ «حسناً، إذا كان الحبل السري ينمومن السرة ليعطي الدم إلى الجسم، وأن الفتيات وحدهن يحملن، فكيف نفسر أن الأولاد لهم سرّة أيضاً».

ترددت مورين وأقرّت أنها لاتعرف، ثم أردفت قائلة: «ولكن الأولاد يملكون كل الأشياء التي لايحتاجونها».

كان ضحكها الرنان أقوى نوعاً مامن ضحكنا العصبي. تدلى لسانها قريباً من حافة العلبة، وغرفت كمية من ذلك الآيس كريم مما جعل عينيها تدمعان. كنا ننتظر علامة التوقف الحمراء، بينما استمرت مورين تغرف الآيس كريم من حافة العلبة بلسانها. لم تعض الحافة كما كنت سأفعل، بل كانت تدوّر لسانها فقط.

انتهت بيكولا من أكل الآيس كريم. كان من الواضح أن مورين تحب أشياءها حتى النهاية. وبينما أفكر في بوظتها، فلابد أنها كانت تفكر في ملاحظتها الأخيرة لأنها سألت بيكولا:

ـ «هل رأيت رجلاً عارياً؟».

ـ «لا. أين يمكنني أن أرى رجلاً عارياً؟».

ـ «لا أعرف. مجرد سؤال».

ـ «لن أنظر إليه حتى لو رأيته. شيء قذر. من تريد أن ترى رجلاً عارياً؟ كانت بيكولا مضطربة. «لايتعرى أي أب أمام ابنته حتى لوكان أباً قذراً».

ـ «لم أقل «أباً» قلت فقط «رجلاً عارياً؟».

ـ «حسناً..».

ـ «كيف خطر لك أن تقولي «أباً»؟ أرادت مورين أن تعرف».

«وأي شخص آخر يمكن أن تريه ياذات الناب؟» كنت سعيدة بهذه الفرصة للتعبير عن غضبي. ليس فقط بسبب الآيس كريم، ولكن لأننا رأينا أبانا عارياً، ولم نبال بأن يذكرنا أحدٌ بذلك، ونشعر بالخجل لغياب هذا الخجل.

اجتاز الردهة خارجاً من غرفة الحمام إلى غرفة النوم أمام باب غرفتنا المفتوحة حيث كنا نتمدّد وعيوننا مفتوحة، وكان هو يتوقف وينظر إلى الداخل محاولاً أن يرى إذا كنا نائمات حقاً في تلك الغرفة المظلمة. هل تراءى له أن هناك عيوناً مفتوحة تنظر إليه؟ من الواضح أنه اقنع نفسه أننا نائمات. تحرك مقتنعاً بأنّ بناته الصغيرات لايتمددن وعيونهن مفتوحة، تحدّق، وتحدّق، وعندما ابتعد لم يغيّب الظلام عريه فقط، إنما غيبة هو أيضاً. بقي ذلك المشهد معنا وكأنه صديق.

قالت مورين: «لست أتحدث معك. بالاضافة إلى أنني لا أهتم إذا كانت ترى أباها عارياً. تستطيع أن تنظر إليه طوال اليوم إذا أرادت ذلك. من يهتم؟»

فقالت فريدا: «أنت تهتمين. هذا كلّ ماتتحدّثين عنه».

ـ «ليس صحيحاً».

ـ «إنه صحيح. الأولاد، الأطفال، الأب العاري. لابد أنك مجنونة بالفتيان».

ـ «من الأفضل أن تهدأي».

ـ «من سيرغمني على ذلك؟» وضعت فريدا يدها على وركها.

ـ «سترغمن كلكن على ذلك. أمك ستفعل».

ـ «كفّي عن الحديث عن ماما».

ـ «وأنت كفّي عن الحديث عن بابا».

ـ «من تحدث عن أبيك العجوز؟».

ـ «أنت فعلت».

ـ «حسناً. أنت بدأت ذلك».

ـ «لم أكن أتحدث معك. كنت أتحدث مع بيكولا».

ـ «نعم، حين رأته عارياً».

ـ «وماذا لو رأته».

فصرخت بيكولا: «لم أر بابا عارياً أبداً...أبداً».

فردت مورين بجفاء: «لقد رأيته.. باي بوي قال ذلك».

ـ «لم أره».

ـ «لقد رأيته».

ـ «لم أره».

ـ «لقد فعلت.. لقد رأيت أباك».

رفعت بيكولا رأسها.. حركة مضحكة، حزينة، يائسة، نوع من إحناء الكتفين، وانزال الرقبة وكأنها تريد أن تغطي أُذنيها.

قلت: «توقفي عن الحديث عن أبيها».

فسألت مورين: «وبماذا يهمني أبوك العجوز الأسود؟».

ـ «أسود؟ من تدعينه بالأسود؟».

ـ «أنت!».

ـ «وأنت تظنين نفسك فاتنة!» وجهت لها كلمة ولكنني أخطأتها، فجاءت في وجه بيكولا. رميت دفاتري المدرسية عليها، وقد ازداد هياجي بسبب عدم دقتي، فأصابتها من الخلف لأنها كانت قد استدارت وأسرعت عبر الشارع عكس حركة المرور.

صرخت بنا وقد شعرت بالأمان على الجانب الآخر:

ـ «أنا جميلة، وأنتن قبيحات. سوداوات وقبيحات، وأنا جميلة».

ركضت في الشارع، وبدت سيقانها. بسبب الجوارب الخضراء، مثل سويقتي هندباء برية فقدت، بطريقة ما، قمتها مرت ثانية أو ثانيتان قبل أن نستعيد، فريدا وأنا، نفسينا ونصيح: «يافطيرة الكريما ذات الأصابع الست والناب». ظللنا نترنم بذلك، بقوة أكبر من خزنينا من الأهانات، طوال رؤيتنا لتلك السيقان الخضراء وفرو الأرنب.

كان الكبار يقطبون جباههم لمشهد الفتيات الثلاث على حافة الرصيف، حيث تضع اثنتان منهن معطفيهما على رأسهيما، فتشكل الباقات أطاراً حول الحواجب مثل رداء الراهبات، أما أربطة الجوارب فكانت تكشف عن مواضع الثقوب في أعلى تلك الجوارب البنية التي لاتكاد تغطي الركب. وبدت الوجوه الغاضبة معقودة وكأنها قرنبيط أسود.

وقفت بيكولا بعيدة قليلاً عنها، وعيناها مركزتان على الجهة التي اختفت فيها مورين. بدت منكمشة على نفسها، مثل جناح مطويّ. أثار ألمها في نفسي شعوراً عدائياً. أردت أن أهاجمها، أن أهشمّ أطرافها، أن أهوي بعصاً على عمودها الفقري المتقوس المحدوْدب، وأن أرغمها على الوقوف منتصبة، وبصق ذلك البؤس في الشارع. ولكنها كانت تتمسك به وتحتضنه في عينيها.

انتزعت فريدا سترتها من فوق رأسها: «تعالي ياكلوديا مع السلامة يابيكولا».

انطلقنا مسرعتين أولاً، ثم بشكل أبطأ، ونحن نتوقف، بين الحين والآخر، لنشّد أربطة جواربنا، وأحذيتنا، ونهرش أو نتفحص ندوبنا القديمة. كنا نغوص تحت وطأة كلمات مورين الأخيرة، الحكيمة والدقيقة، النابتة. إذا كانت جميلة ـ وإذا كان كل شخص يعتقد أنها جميلة ـ فهذا يعني أننا لسنا جميلات. ماذا يعني هذا؟ يعني أننا أقل شأناً قد نكون ألطف، أذكى، ولكن أقل شأناً. بإمكاننا أن نحطّم الدمى، ولكننا لانستطيع أن نحطمّ الأصوات العذبة للأمهات والآباء، والإذعان في عيون قريناتنا، والضوء الغامض في عيون المعلمين عندما يواجهون مورين بيلرز، لؤلؤة

العالم. ماهو السرّ؟ ما الذي نفتقر إليه؟ وهل هو شيء مهم؟ دون نفاق، دون غرور، كنا مانزال، حينئذ، مفتونات بأنفسنا. نشعر بالراحة داخل جلودنا، ونستمتع بكل شيء جديد تطلقة حواسنا، ونعجب بقذاراتنا، ونتعهد ندوبنا بالرعاية، لم نستطع قط فهم عدم جدارتنا. فهمنا الغيرة واعتقدنا أنها شيء طبيعي.. رغبة في أن تمتلك ماملكه شخص آخر، ولكن الحسد كان شيئاً غريباً عنا. عرفنا، في تلك الأوقات، أن مورين بيرل ليست «العدو» ولا تستحق منا هذه الكراهية الشديدة. إن «الشيء» الذي يجب أن نخشاه هو «الشيء» الذي جعلـ«ها» جميلة؟ ولم يجعلنا كذلك.

كان البيت هادئاً حين فتحنا الباب. وملأت أنوفنا رائحة اللفت اللاذعة، وغطى خدودنا بخاره النتن.

«ماما».

لاجواب، ولكن صوت أقدام فقط. كان السيد هنري يجرجر أقدامه عند منتصف السلم، ثم ظهرت من ثوب الحمام ساق مكتنزة بلا شعر.

«أهلاً غريتا غاربو، أهلاً جنجر روجرز»

صدرت منا تلك القهقهات التي تعود أن يسمعها «أهلاً سيد هنري. أين ماما؟»

«ذهبت إلى جدتكن. وتركت لكن أمراً بأن تقطعّن اللفت، وتأكلن البسكويت حتى تعود. كل شيء في المطبخ».

جلسنا بصمت في المطبخ، نتفت البسكويت إلى قطع صغيرة. وبعد فترة أتى السيد هنري مرتدياً، هذه المرة، بنطالاً تحت الروب.

ـ «قلْنَ لي. تحبّان القشدة؟»

ـ «أوه، نعم، ياسيد».

ـ «خذن ربع دولار، واذهبن إلى محل «إيزالي» واشترين بعض القشدة. أنتن فتيات عاقلات. أليس كذلك؟»

أعادت كلماته الطيبة الحيوية إلى يومنا: «نعم، ياسيد، شكراً سيد هنري. هل تخبر أمنا حين تعود؟»

«بالتأكيد. ولكنها لن تعود خلال هذه المدة».

تركنا البيت دون معاطف، وقطعنا الطريق باتجاه المحل، ولكن فريدا قالت فجأة: «لاأريد أن أذهب إلى محل إيزالي».

- «ماذا؟».
- «لاأريد بوظة. أريد شبساً»
- «إنهم يبيعون الشبس في محل إيزالي».
- «أعرف، ولكن لماذا نذهب بعيداً. الآنسة بيرثا تبيع الشبس»
- «ولكني أريد بوظة».
- «أنت لاتريدين بوظة ياكلوديا».
- «أريد بوظة».
- «حسناً، اذهبي إلى إيزالي، وأنا أذهب إلى محل الآنسة بيرثا».
- «ولكن أنت عندك الربع دولار، وأنا لاأريد أن أقطع الطريق وحدي».
- «إذن دعينا نذهب إلى محل «بيرثا». أنت تحبين حلواها، أليس كذلك؟»
- «لا، أنها غير طازجة. إنها دائماً تبيع حلوى قديمة».
- «اليوم جمعة، وهي تقدم أشياء طازجة في الجمعة».
- «ولكن ذلك المجنون العجوز سوفيد تشرتش يعيش هناك».
- «وإذا كان يعيش هناك. نحن معاً، وإذا فعل شيئاً فسنهرب».
- «إنه يخيفني».
- «حسناً، لاأريد أن أذهب إلى «إيزالي». افترضي أن فطيرة الكريما(*) تتسكع هناك. هل تريدين أن تصطدمي بها ياكلوديا؟».
- «تعالي يافريدا..سأشتري حلوى».

كانت الآنسة بيرثا تملك حانوتاً صغيراً للحلوى، والسعوط، والتبغ. وكانت هناك حجرة قرميدية في الباحة الأمامية عليك أن تختلس النظر من بابها، وإذا لم تكن هي هناك فعليك أن تطرق الباب.

أما هذا النهار، فقد كانت جالسة على طاولة تقرأ الأنجيل تحت خيط شعاع من الشمس. اشترت فريدا الجبس، ثم اشترينا ثلاث قطع من

(*) تقصدان مورين بيرل.

«الباورهاوس» بثلاثة بنسات، وبقيت عندنا عشرة بنسات. هرعنا إلى البيت لنجلس تحت شجيرات الليلك على جانبه. كنا نرقص دائماً هناك «رقصة الحلوى»، حتى يكون بمقدور «روزمري» أن تسمعنا فتشعر بالغيرة. وكانت هذه الرقصة خليطاً من الدمدمات، والقفزات، والنقر، والأكل، والتمطق. نرقصها وتستبد بنا كلما كانت عندنا حلوى.

وبينما كنا نزحف بين الشجيرات جانب البيت، سمعنا أصواتاً وضحكاً، فنظرنا من نافذة غرفة الاستقبال متوقعات أن نرى ماما. ولكن بدلاً من ذلك، نرى السيد هنري مع امرأتين. كان السيد هنري، بطريقة تُشبه طريقة الجدات في مداعبة الأطفال، يمص أصابع إحدى المرأتين التي كانت ضحكاتها تجلجل في ذلك الحيِّز الصغير. أما المرأة الأخرى فكانت تزرِّر سترتها، عرفنا فوراً من تكونا. إحدى المرأتين كانت تشاينا، والثانية تدعى ماجنيو لاين[*]. شعرتُ بحكة فوق رقبتي. هؤلاء هن بنات الهوى ذوات الأظافر القرمزية اللامعة اللواتي تكرههنّ أمي وجدتي، وفي بيتنا!

لم تكن تشاينا بغيضة، في تصورنا في الأقل. كانت نحيفة، متقدمة في السن، شاردة الذهن، وغير عدوانية. ولكن هذه الـ«ماجينو لاين»؟ إنها من النوع الذي تقول عنه أمي انها «لن تسمح له أن يأكل في صحن من صحونها»، ومن النوع الذي لاتسمح نساء الكنيسة لعيونهن أن تقع عليه. إنها هي التي تقتل الناس، تكويهم بالنار، تغليهم في محلول القلي. وبالرغم من اعتقادي بأن وجه ماجينو لاين، المخفيّ تحت سمنتها، كان جميلاً، فانني قد سمعت عدة كلمات شائنة وغاضبة عنها، ورأيت عدة أشخاص يزمّون شفاههم بمجرد ذكر اسمها، مما جعلني لا أمعن النظر في الميزات المعوِّضة التي قد تملكها. بدت تشاينا، وهي تكشف عن أسنانها البنية، مستمتعة حقاً بصحبة هنري الذي يذكر منظره، وهو يمص أصابعها، بالمجلات النسائية في غرفته. هبت ريح باردة في مكان ما في داخلي رافعة معها أوراقاً صغيرة من الرعب والتوق الغامض. وأظنني رأيت

(*) خط ماجينو: هو الأول الذي أقامه الفرنسيون لصد الهجوم الألماني.

وحشة خفيفة تعبر وجه ماجينو لاين. ولكن قد تكون صورتي هي التي رأيت في ارتجاف المنخرين البطيء، وفي العينين اللتين تذكّرانني بشّلالات رأيتها في فيلم حول «هاواي».

تثاءبت ماجينو لاين ثم قالت: «هيا ياتشاينا. لا يمكننا أن نبقى هنا نتسكع طوال النهار. سيأتي أهل البيت قريباً».

انبطحنا، فريد وأنا، على الأرض، ونحن ننظر إلى بعضنا البعض بعيون مفتوحة على سعتها. وعندما ابتعدت المرأتان لمسافة قصيرة، دخلنا إلى البيت. وكان السيد هنري في الداخل يفتح قنينة شراب غازي.

ـ «عدتم للتو؟»

ـ «نعم، ياسيد».

ـ «أكلتم كل الكريما؟» بدا بأسنانه الصغيرة اللطيفة جداً بلا حول. هل كان ذلك حقاً هنريـ«نا» الذي مصّ أصابع تشاينا؟

ـ «اشترينا حلوى بدل الكريما».

ـ «فعلت ذلك؟ آه ياذات الأسنان الحلوة مثل غريتا غاربو».

مسح ما رشح على فوهة القنينة، ثم رفعها إلى شفتيه ـ حركة سببت لي الضيق ـ.

«من تلك المرأتان ياسيد هنري؟» شَرِقَ بشرابه ونظر إلى فريدا: «ماذا تقولين؟»

فكررت: «تلك المرأتان اللتان غادرتا للتو. من كانتا؟»

فقال ضاحكاً، ضحكة الكبار السريعي الخاطر في الكذب، تلك الضحكة التي نعرفها جيداً: «أوه، تلك المرأتان من الصف الذي ندرس فيه الكتاب المقدس. نحن نقرأ الكتاب المقدس معاً، ولذلك جاءتا اليوم لهذا الغرض».

قالت فريدا: «أوه». ورحت أنظر إلى خُفّه المنزلي لأتجنب النظر إلى تلك الأسنان اللطيفة وهي تلفّق تلك الأكذوبة. مشى باتجاه السلم، ثم استدار إلينا: « ولكن لا تذكرن ذلك لماما. إنها لاتحب دراسة الكتاب المقدس، ولا تحب أن أستقبل زوّاراً حتى لو كانوا مسيحيين صالحين».

ـ «لا، ياسيد. لن نفعل».

وتسلق السلم بسرعة.

وسألت فريدا: «هل ينبغي أن نخبر ماما؟» فتنهدت فقط. أنها حتى لم تفتح حلوى «الباور هاوس» أو كيس الشبس.

بدلاً من ذلك، أخذت تتبع الحروف المرسومة على الغلاف بإصابعها، ورفعت رأسها فجأة في أنحاء المطبخ.

ـ «لا، لا أعتقد. لاتوجد صحون فارغة».

ـ «صحون؟ عن ماذا تتحدثين؟».

ـ «لا توجد صحون فارغة. ماجينو لاين لم تلتهم أيّاً من صحون أمي. إضافة إلى ذلك، ستثير أمي ضجة طوال اليوم إذا أخبرناها».

جلسنا نحدق في أكوام البسكويت التي عملناها. ثم قالت فريدا: «من الأفضل أن نقطعّ اللفت. سيحترق وتجلدنا أمي».

ـ «أعرف».

ـ «ولكن إذا تركناه يحترق، فلن نضطر إلى أكله».

ففكرت: «آه، يالها من فكرة لطيفة».

ـ «أيهما تريدين؟ جَلد بلا لفت، أم لفت بلا جَلد؟»

ـ «لا أعرف، قد نستطيع أن نحرقه قليلاً، فيستطيع بابا وماما أن يأكلانه، أما نحن فبإمكاننا أن نقول أننا لانستطيع».

ـ «حسناً».

عملت جبلاً من أكوامي.

ـ «فريدا؟».

ـ «ماذا؟».

ـ «ما الذي عمله «وودرو» وكنت ستخبرينني عنه؟».

ـ «بلّل فراشه. السيدة كين أخبرت أمي بذلك. إنه لم يتوقف عن ذلك».

ـ «القذر».

أظلمت السماء، ونظرت إلى الخارج من النافذة، فرأيت الثلج يتساقط. دسست إصبعي في فوهة الجبل فتداعى وتناثرت الحبيبات الذهبية مشكّلة دوّامات صغيرة، وكان قِدر اللفت مايزال يطرطق.

انظر إلى القطة أنها تظلّ تموء تعال
والعب مع جانيت الهريرة لن تلعب مع جانيت
لن تلعب لن تلعب لن تلعب

يأتين من «موبيل»، «إيكن»، ومن «نيوبورت نيوز». يأتين من ماريتا. من مريديان نطق أسماء هذه الأماكن بأفواههن يجعلك تفكر بالحب. عندما تسألهن من أين هن، يملن رؤوسهن ويقلن «موبيل»، فتظن إنهن قد قبّلنك. يقلن «إيكن» فترى فراشة بيضاء تطير عبر السور بجناحيها الخفّاقين. يقلن: «ناجادوتشيز» فتريد أن تقول «نعم، سأفعل..» أنت لا تعرف كيف تبدو هذه المدن، ولكنك تحب ما يحدث للهواء عندما يفتحن شفاههن ويدعن تلك الأسماء تنطلق حرّة.

مريديان. إن ترجيعه يفتح نوافذ غرفة مثل النفحات الأربع الأولى في ترتيلة. قليلات يستطعن لفظ أسماء مساقط رؤوسهن بمثل هذا الحنان المرواغ، ربما لأنهن لايملكن رؤوس، ولكن مجرد أماكن ولدن فيها. ولكن هؤلاء الفتيات يمتصصّن عصارة مساقط رؤوسهن، ولن يغادرهن أبداً. انهن فتيات سمراوات نحيلات حدقن طويلاً في نبات الخبيز في الباحات الخلفية للميريديان، و«موبيل» و«إيكن» و«باتون روج». إنهن هزيلات، طويلات، ساكنات مثل نبات الخبيز. جذوره عميقة، وسيقانه صلبة، وفقط زهراته في الأعلى تتمايل في الريح. لهن عيون أولئك الناس الذين بامكانهم أن يخبروك عن الوقت من خلال لون السماء. مثل هؤلاء الفتيات يعشن في منطقة مجاورة هادئة سوداء حيث يشتغل كل شخص بشكل مجز، حيث تتدلى المراجح من السلاسل، ويقطع العشب بالمناجل، حيث الورود التي مثل أعراف الديكة، وعباد الشمس النامي في الباحات، وأصص نبات «القلب الدامي» واللبلاب. والأزهار ذات الأطراف الحادة تغطي الدرجات وعتبات النوافذ. مثل هؤلاء الفتيات كنّ يشترين البطيخ

الأحمر، واللوبياء من العربات الجوّالة. ويضعن في الشباك اللافتات الكرتونية المطبوع عليها المقياس بنظام الباوند على كل زاوية من الزوايا الثلاث ـ ١٠ باوند، ٢٥ باوند، ٥٠ باوند ـ ومكتوب على الطرف الرابع: لايوجد ثلج. هؤلاء الفتيات السمراوات الاستثنائيات من «موبيل» و «إيكن» لايشبهن قسماً من أخواتهن، فهن لسن مشاكسات، أو عصبيّات، أو صاخبات، وهن لايملكن رقاباً سوداء جميلة ممتدة كأنما على ياقات غير مرئية، كما أن عيونهن لاتلسع. هؤلاء الفتيات من «موبيل»، ذوات السمار السكّري، يمشين في الشوارع دون أن يثرن أية ضجة. إنهن حلوات وملساوات مثل كعك مصنوع من الزبدة، كواهل نحيلة، وأقدام طويلة ضيقة. يغتسلن بصابون «لايف بوي» ذي اللون البرتقالي، ويرشش على أجسادهن بودرة «كاشمير بوكيه»، وينظفن أسنانهن بقطعة قماش مغموسة بالملح، ويطرّين جلودهنّ بمستحضر «جيرجينس». رائحتهن مثل رائحة الغابات، والصحف، وعطر ثمر الفانيليا(*) يملّسْن شعورهن بـ«ديكسي بيج»، ويغرقنه على جانب. وفي الليل يلفّنه بأوراق الأكياس البنية، ويربطن رؤوسهن بوشاح مزخرف، وينمن وأياديهن متقاطعة على بطونهنّ. أنهن لايشربن، أو يدّخنّ، أو يشتمن أحداً، ومازلن يسمين الجنس بـ«الجماع». إنهن يغنين السبرانو الثاني في الكورس، وبالرغم من أن أصواتهن واضحة وقوية، فإنهن لا يُخترن للغناء المنفرد أبداً، يقفن في الصف الثاني ببلوزات بيضاء منشّاة، وتنانير زرقاء، أرجوانية غالباً بسبب الكيّ.

يلتحقن بالكليات الزراعية، ودور المعلمين الابتدائية كي يخدمن الرجل الأبيض بكل دماثة: الاقتصاد البيتي: لإعداد طعامه، والتعليم: لتعليم الأطفال السود الطاعة، والموسيقى: للترفيه عن السيد المتعب، وتهدئة روحه المكلومة. هنا يتعلمن بقية الدرس الذي ابتدأ في تلك البيوت الوادعة ذات الأرجوحات وأصص أزهار «القلب الدامي». كيف يحسنّ التصرف؟ التوسع الحذر في مصروفات البيت، الصبر، الأخلاق العالية، السلوك الجيد،

(*) الفانيليا: نبات أمريكي استوائي أو عطره الذي تعطر به بعض المآكل.

وباختصار كيف يتخلصن من الجبن، الجبن الرهيب أمام العواطف، والجبن أمام الطبيعة، الجبن أمام الانفعالات الانسانية الواسعة النطاق.

حيثما ينفجر هذا الجبن فإنّهن يجلدنه، وحالما تتكون له قشرة. فإنّهن يذوّبنها، وحيثما يتقاطر أو يزدهر، ويتماسك فإنهن يجدنه، ويحاربنه حتى الموت. إنهن يخضن هذه المعركة حتى القبر. الضحك المرتفع قليلاً، الكلام المرتفع قليلاً، والإيماءة الواسعة قليلاً. يقبضن على ثيابهن من الخلف خشية أن يرفعها الهواء، وعندما يضعن أحمر الشفاه، فإنهن لا يغطين به الفم كله مخافة أن تبدو الشفاه مكتنزة، وهن قلقات، قلقات، قلقات دائماً على أطراف شعورهن.

لايبدو أن لهن أصدقاء. ولكنهن يتزوجن دائماً. رجال معينون يراقبونهن، دون أن يظهروا ذلك، ويعرف كل منهم أنه لو امتلك واحدة منهن في بيته، فإنه سينام على ملاءات بيضاء غُسلت بالماء المغلي، وعُلقت لتجفّ على شجيرات العرعر، ثم كُويت جيداً بمكواة ثقيلة. ستكون هناك صورة أمه المزخرفة بزهور من ورق، إنجيل كبير في غرفة الاستقبال. سيشعرون بالطمأنينة. ملابس العمل سترُتق، وتُغسل، وتُكوى لتُلبس في الاثنين. وأن قمصان الأحد ستموج على علاّقة الثياب، منشّاةٍ بيضاء. ينظرون إلى يدها، فيعرفون ماذا ستفعل بعجينة البسكويت، يشمون رائحة القهوة، وفخذ الخنزير البري. يرون البرغل الأبيض المدخّن مع نقطة سمنة فوقه، إن وركيها يؤكدان لهم إنها ستنجب أطفالاً بسهولة ودون ألم، وهم محقّون في ذلك.

الشيء الذي لايعرفونه هو أن هذه الفتاة السمراء البسيطة سوف تبني عشها عوداً عوداً، وتجعل منه عالمها الذي لاتنتهك حرمته، وتقوم بحراسة كل غرسة فيه، كل عشبة، وكل قطعة قماش، حتى منه هو. بصمت ستعيد القنديل إلى المكان الأول الذي وضعته فيه، وتزيل الصحون من المائدة حتى يتناولون اللقمة الأخيرة. وتمسح مقبض الباب حالما تلمسه يد تلوّثت بالزيت. ونظرة جانبية منها تكفي ليفهم أن عليه أن يدخّن في الشرفة الخلفية. وسيفهم الأولاد فوراً بأنهم لايستطعون استرداد الكرة حين تسقط في باحة البيت. ولكن الرجال لايعرفون هذه الأشياء. ولا يعرفون

أنها تمنح جسدها لزوجها بشكل شحيح وجزئي. فهو يجب أن يدخلها خلسة، ويرفع طرف ثوبها إلى السرّة فقط. ويجب أن يسند ثقل جسمه على كوعيه حين يمارسان الحب، وسبب ذلك، ظاهرياً، هو أن تتجنّب إيذاء صدرها، ولكن السبب الحقيقي هو منع نفسها من أن تلمس أو تحس مساحة كبيرة من جسده. وتظل تتساءل، بينما هو يتحرك داخلها، عن سبب عدم وضع الأجزاء الضروية من الجسد، أي العورات، في أماكن أكثر ملاءمة ـ كالأبط، مثلاً، أو راحة اليد. يستطيع المرء أن يبلغ أماكن كهذه بسهولة، وسرعة، ودون تعّر. أنها تشعر بانفكاك أي من لفافاتها الورقية بسبب الحركة أثناء الممارسةً، وتحدد في ذهنها أية لفّافة قد انحلت، فتسارع لتثبيتها حالما تنتهي، وهي تأمل ألا تتعرق حتى لا تصل الرطوبة إلى شعرها، وأن تبقى جافة بين ساقيها إنها تكره صوت التصاق ساقيها عندما تكونان رطبتين. وعندما تشعر أن الهياج قد سيطر عليه، تقوم بحركات سريعة بوركيها، وتضغط بأظافرها أصابعها على ظهره، وتحبس أنفاسها متظاهرة بأنها وصلت إلى الذروة. وقد تتساءل، للمرة الألف، كيف ذلك الشعور بينما عضو زوجها مايزال داخلها. الشعور الأقرب لهذا حدث عندما كانت تسير مرة في الشارع فانزلقت المحرمة الصحية من بين ساقيها. تحركت بنعومة بين ساقيها وهي تمشي. بنعومة...بنعومة بالغة، ثم تجمعّ إحساس خفيف ولذيذ في زاوية انفراج ساقيها. وبينما تزايدت المتعة، كان عليها أن تتوقف في الشارع، وأن تضم فخذيها معاً لتقبض عليها. لابد أن الأمر شبيه بذلك. ولكنه لايحدث أبداً عندما يكون عضو زوجها داخلها. وعندما ينسحب تنزل ثوب النوم، وتنزلق من السرير مسرعة الحمام وهي تشعر بالراحة

من وقت لآخر، توقف محبتها على كائن ما، ربما على قط يحب النظام، والدقة، والانتظام مثلها، ويكون نظيفاً وهادئاً مثلها. يستكين القطّ على عتبة النافذة بهدوء، ويلاطفها بعينيه، تستطيع أن تحمله بين ذراعيها، وتدع مخالبه الخلفية تصارع لتستقر على صدرها بينما تكون مخالبة الأمامية متشبثة بكتفها. تستطيع أن تمسّد الفرو الناعم، وأن تلمس

الجلد المستسلم تحته، سينفش جلده، ويتمطى، ويفتح فمه. وستتقبل هـي ذلك الإحساس الجميل الغريب الذي ينتابهـا حـين يتلـوى تحـت يدهـا، وتضيق عيناه بلذة حسية مفرطة. وعندما تقـف لتعـد الطعـام فانـه سـيدور حول رجليها، ستصعد الرعشة التي يحدثها الفـرو لولبيـاً مـن قدميهـا إلى فخذيها جاعلة أصابعها ترتجف قليلاً في عجينة الفطيرة.

أو، سيقفز القط إلى حضنها، بينما هي جالسة تقرأ مقال «الأفكار الصاعدة» في مجلة «ليبرتي»، وستربت على تلك الهضبة النائمة من الشعر. وتـدع دفء جسـد الحيـوان يتسـرب عميقـاً إلى تلـك المنـاطق الخاصـة. وأحيانـاً تسـقط المجلة، وتفتح ساقيها قليلاً. يبقى الاثنـان معـاً قليـلاً، أو قـد ينتقـلان إلى مكان آخر، أو قد ينامان معاً قليلاً، حتى الساعة الرابعة موعد عـودة المتطفـل إلى البيت من العمل، قلقاً، بشكل غير مفهوم على وجبة الطعام. سيعرف القـط دائماً أنه المفضل لديها، حتى بعد أن تنجب طفلاً، والحقيقـة، إنهـا انجبـت طفلاً. بسهولة، ودون ألم. طفل واحد فقط. ولد اسمه جونيور لويس.

فتاة مثل هذه من «موبيل» أو «مريديان» أو «إيكن»، تتعـرق في إبطهـا، أو بين فخذيها، وتفوح منها رائحة الخشب والفانيليا، وتعـد السـوفليه(*) في قسم الاقتصاد المنزلي، انتقلت مع زوجها لويس إلى لورين في اوهيو. كان اسمها جير الدين، هناك بنت عشـها، وكـوت القمصـان، وزرعـت نبـات «القلب الدامي»، ولعبت مع قطها، وولدت جونيور لويس.

لم تدع جيرالدين ابنها يبكي. فما دامت حاجاتـه جسـدية، فقـد كـان باستطاعتها أن تلبيها، الراحـة والشـبع، أسـنانه ناصعـة البيـاض دائمـاً، وجسمه نظيف، وينتعل حذاء دائماً، لم تكن جـير الديـن تتحـدث معـه، أوتناغيه، أوتدلّله، ولكنها كانت ترى أن كل رغباته متحقّقة. لم يمر وقت طويل قبل أن يكتشف الطفلُ الفرقَ بين سـلوك أمـه تجاهـه وتجـاه القـط. وعندما أصبح أكبر، تعلم كيف يحوّل كراهيته لأمه إلى القط. وكـان يقضـي لحظات سعيدة وهو يـراه يتعـذب. ولكـن القـطّ نجـا لأنّ جـيرالدين نـادراً

(*) السوفلية: كل طعام يُخبز على نحو منفوخ ويدخل في صنعه البيض المخفوق.

ماتغيب عن البيت، وكانت تخفف من ألم الحيوان عندما يسيء الابن معاملته.

عاشت جيرالدين، ولويس، وجونيورلويس الابن، قرب ملعب مدرسة «واشنطن ايرفنج». كان جونيور، يعتبر إن الملعب ملعبه، ولطالما اشتهى تلاميذ المدرسة أن يملكوا حريته في النوم متأخراً، والذهاب إلى البيت القريب لتناول الغداء، ثم السيطرة على الملعب بعد انتهاء الدراسة. كان يكره أن يرى الأرجوحات وأماكن الانزلاق، والعوارض الخشبية فارغة، فيحاول أن يبقي الأطفال حولها، الأطفال البيض، فلم تكن أمه ترغب أن يلعب مع الزنوج. لقد شرحت له الاختلاف بين الملّونين والزنوج.انهم، ببساطة، غير متماثلين. الملوّنون نظيفون وهادئون، والزنوج قذرون وصاخبون، وهو ينتمي إلى المجموعة الأولى: يرتدي قمصاناً بيضاء، وبناطيل زرقاء، وشعره حليق حتى فروة الرأس تجنب أي أثر لشعرات كثة مجعّدة. وفي الشتاء، تضع أمه على وجهه مرهم «جيرجنس» حتى لايصبح رمادياً.

وبالرغم من أن جلده فاتح اللون، فهناك احتمال أن يصبح رمادياً، إنّ الحد الفاصل بين الملّون والزنجي ليس واضحاً دائماً، وهناك علامات دقيقة خطرة يمكن أن تطمسه، ولذلك يجب الاحتراس المستمر.

كان جونيور يتوق للعب مع الأولاد السود. وكان يريد، أكثر من أي شيء آخر في العالم، أن يلعب معهم لعبة «ملك الجبال»، أن يراهم يدفعونه من فوق أكوام التراب يتدحرجون فوقه، ويحس بأجسادهم الخشنة تهصره، ويشمّ سوادهم الوحشي، ويقولون له «اللعنة عليك» بتلك اللامبالاة المحبّبة، كان يريد أن يجلس معهم على أحجار الطريق، يشاركهم في المقارنة بين حدة مدياتهم، ويتبارى معهم في البصاق، وأيهم يصل بصاقه إلى مسافة أبعد. وكان يرغب أن يتقاسم معهم أكاليل الغار التي ينالها من يتبول فترة أطول ومسافة أبعد. كان يعبد «باي بوي» و«بي.أل» في الوقت نفسه. وأخذ تدريجياً، يتفق مع أمه إنهما كلاهما غير مناسبين له، فأصبح يلعب مع «رالف نيسينسكي» الذي يصغره بعامين. والذي يضع نظارات، ولايرغب في فعل أي شيء. أخذ جونيور يستمتع،

أكثر فأكثر، بمناكدة الفتيات، إنه من السهل أن تجعلهن يصرخن ويركضن، وكم كان يضحك حين يسقطن، ويرى سراويلهن التحتحية. وكان يشعر بالسرور حين يراهنّ ينهضن ووجوهن حمراء متغضنه. وهو لايضايق الفتيات الزنجيات كثيراً، فهن، عادة، يمشين في مجموعات، ألقى، مرة، حجارة على بعضهن، فطاردنه، وأمسكن به، واشبعنه ضرباً. وقتها كذب على أمه حين أخبرها أن باي بوي قد ضربه، فتضايقت أمه كثيراً. أما أبوه فقد إستمر في قراءة «لوريان».

كان، عندما يتعكر مزاجه، يدعو أي طفل عابر ليلعب معه في المراجيح، وإذا رفض الطفل، أو انصرف سريعاً، فأنه يقذفه بالحصى. وهكذا أصبح رامياً ماهراً جداً.

أصبح الملعب، بمرور الأيام، بهجته الوحيدة، فقد كان يشعر بالوحدة والخوف في البيت. وفي أحد الأيام، وكان يشعر بالملل بشكل خاص، إذ لم يكن هناك أي شيء يفعله، رأى فتاة سوداء تمشي منكسة الرأس عبر طريق مختصرة في الملعب. كان قد رأى هذه الفتاة عدة مرات من قبل، واقفة وحيدة، دائماً وحيدة، أثناء الاستراحة. لم يكن أحد يلعب معها ربما لأنها، كما فكر، قبيحة جداً.

ناداها جونيور: «مرحباً! ماذا تفعلين في ملعبي؟».

توقفت الفتاة.

- «لا أحد يستطيع أن يجتاز هذا الملعب دون أن أسمح له بذلك».

- «إنه ليس ملعبك. إنه ملعب المدرسة».

- «ولكني مسؤول عنه».

همّت الفتاة بالتحرك، ولكنه اتجه نحوها:

- «انتظري. تستطيعين أن تلعبي فيه إذا أردت. ماسمك؟»

- «بيكولا. لاأريد أن ألعب».

- «تعالي، لن أزعجك».

- «يجب أن أذهب إلى البيت».

- «هل تريدين أن أريك شيئاً؟ عندي شيء أريك إيّاه».

ـ «لا. ماهو؟».

ـ «تعالي إلى بيتنا. إني أعيش هناك. هيا. سأريك».

ـ «تريني ماذا؟»

ـ «قططاً صغيرة. تستطيعين أن تأخذي واحدة إذا أردت».

ـ «قطط حقيقية؟»

ـ «نعم. هيا».

سحبها برفق من ثوبها. تحركت بيكولا باتجاه بيته. وعندما عرف أنها وافقت، سبقها راكضاً وهو يشعر بالاثارة، وكان يتوقف فقط ليصيح بها أن تتقدم. فتح الباب لها مشجعاً، تسلقت بيكولا السلم وتوقفت هناك خائفة أن تتبعه بدأ البيت مظلماً، وقال جونيور: «لا أحد هنا. ماما خرجت وبابا في العمل. ألا تريدين أن تري القطط؟»

أشعل الضوء فدخلت بيكولا.

فكرت كم هو جميل. كم هو جميل هذا البيت. كان هناك إنجيل كبير أحمر مذهّب فوق المنضدة في غرفة الطعام، ومناديل ورقية في كلّ مكان — على أذرع الكراسي وخلفها، وفي وسط المائدة الكبيرة في غرفة الطعام، وعلى المناضد الصغيرة، وهناك أصص أزهار على عتبات النوافذ، وصورة ملوّنة للمسيح معلقة على جدار تؤطرها أزهار ورقية لم تر قبل جمالها، أرادت أن ترى كل شيء على مهل، ولكن جونيور لم يتوقف عن الكلام: «هيا يابنت تعالي، تعالي». سحبها إلى غرفة أخرى، أجمل حتى من الأولى، مناديل كثر، ومصباح كبير ذو قاعدة ذات لون ذهبي وأخضر، وأجمة بيضاء، وهناك سجادة على الأرض بازهار كبيرة ذات لون أحمر غامق. كانت مستغرقة في إعجابها بالسجادة حين صرخ جونيور: «خذي»، فاستدارت بيكولا: «هذا قطك الصغير» ورمى في وجهها بقط كبير أسود، حبست أنفاسها من الخوف، وأحست بالشعر في فمها، خرمش القط وجهها وصدرها وهو يحاول أن يتوازن، ثم وثب برشاقة إلى الأرض. انفجر جونيور ضاحكاً، وهو يقبض على بطنه، وأخذ يركض في الغرفة،

تلمست بيكولا الخدوش على وجهها وشعرت بالدموع تطفر إلى عينيها، قفز جونيور أمامها حين اتجهت نحو المدخل.

«لايمكنك أن تخرجي. أنت أسيرتي» كانت عيناه مرحتين ولكن قاسيتين.

«دعني أذهب».

«لا». دفعها على الأرض، ثم ركض إلى الباب الفاصل بين الغرف وأغلقه ووضع يديه عليه. زاد ضرب بيكولا على الباب من ضحكه العالي المختلط باللهاث.

انهمرت دموع بيكولا، وغطت وجهها بيديها، قفزت عندما تحرك شيء ناعم حول رسغي قدميها فرأت القط. لقد لفّ نفسه حول رجليها، فجثمت، وقد نسيت خوفها للحظة، لتمسكه، كانت عيناها رطبتين من الدموع. بدأ القط يحك جلده بركبتيها. كان أسود تماماً، وعيناه المائلتان باتجاه أنفه، ذو لون أخضر مزرق، جعلهما الضوء يتألقان مثل ماستين زرقاوين وأخذت بيكولا تمسّد رأس القط، فماء، وحرك لسانه مستمتعاً بذلك. العيون الزرقاء في الوجه الأسود جعلت بيكولا تتسمرّ في مكانها.

فتح جونيور الباب، وقد أثار فضوله عدم سماع نشيجها، فرأى القط ماداً رأسه، مضيّقاً عينيه. كان قد رأى هذا التعبير عدة مرات عندما كان الحيوان يستجيب للمسات أمه.

«إعطني قطي». انفجر صائحاً، وبحركات بدت خرقاء وواثقة معاً، خطف القط من رجليه الخلفيتين، وبدأ يؤرجحه حول رأسه بشكل دائري.

صرخت بيكولا: «توقف عن ذلك». وتصلبت أطراف القط الأمامية مستعدة لتقبض على أيّ شيء يعيد له توازنه. كان فمه مفتوحاً على مداه، وعيناه مندفعتين إلى الأمام من الرعب. مدت بيكولا يدها، وهي ماتزال تصرخ، نحو ذراع جونيور الأصغر. وسمعت صوت تمزّق ثوبها تحت ذراعيها. حاول أن يدفعها، ولكنها قبضت على الذراع التي تدورّ القط. سقط كلاهما. وأثناء السقوط، أطلق القط الذي اصطدم بقوة بالنافذة ثم انزلق

فسقط على جهاز التدفئة خلف الأريكة. بقي هامداً ماعدا بعض الارتعاشات. وانبعث رائحة خفيفة من فرو يحترق.

فتحت جيرالدين الباب.

«ما هذا؟» كان صوتها لطيفاً، وكأنها تلقي سؤالاً منطقياً تماماً. «من هذه الفتاة؟».

«لقد قتلت قطنا. انظري». اتجه نحو جهاز التدفئة حيث يستلقي القط. عيونه الزرقاء مغلقة في وجه فارغ، أسود، بلا حول.

ذهبت جير الدين إلى جهاز التدفئة والتقطت القط. بدا منهكاً بين يديها، بينما أخذت تفرك وجهها على فروه. نظرت إلى بيكولا. رأت الثوب القذر الممزّق، ولفّافات الشعر المحلولة فوق رأسها.

بأن الشعر المضفور حيث انحلت اللفّافات، وبرزت الأحذية المليئة بالوحل بحشوتها الصمغية التي ظهرت من بين النعلين الرخيصين، والجوارب المتسخة التي انزلقت أحداهما إلى كعب الحذاء. رأت الدبابيس التي ترفع حواشي الثوب. من فوق ظهر القط، نظرت إليها. ورأت من خلال هذه الفتاة الصغيرة كل حياتها. التدليّ من النوافذ على الصالونات في«موبيل»، الزحف على مداخل تلك البيوت الملتصقة غرفها الضيقة مثل عربات القطار(*)، الواقعة على أطراف المدينة، والجلوس في محطات الباص حاملة أكياساً ورقية، وهي تنادي على الأمهات اللواتي يصرخن بها باستمرار: «إخرسي».

شعر غير ممشّط، وثياب مهترئة، وحذاء محلول الرباط، محشو بالتراب، كنّ يحدقن فيها بعيون مليئة باستغراب كبير. عيون لاتستفهم عن أي شيء، وتسأل عن كل شيء. بعيون مبحلقة مرتبكة، كانوا يحدّقون فيها. نهاية العالم تكمن في عيونهم، وبدايته أيضاً، وبينهما كل الخراب.

كانوا في كل مكان. ينامون ستة في سرير واحد، ويختلط بولهم في الليل. كل منهم يبول في فراشه وهو يحلم بالحلوى والشبس. وكانوا، في

(*): في الأصل بيت ذو صف طويل من الحجرات الضيقة.

الأيام الطويلة الحارة، يتسكعون متبطلين. يلتقطون الجص من الحيطان، ويحفرون الأرض بعصيهم. يجلسون في صفوف صغيرة على حافات الأرصفة، ويحتشدون على المقاعد الخشبية الطويلة، آخذين أماكن الأطفال الملوّنين اللطيفين المرتّبين. يتصرفون كمهرجين في الملاعب، يكسرون أشياء في الأكشاك، ويركضون أمامك في الشوارع، ويتزحلقون على الثلج المتراكم على الأرصفة في الشتاء. تكبر الفتيات وهن لايعرفن شيئاً عن المشدّات، ويعلن الصبيان عن رجولتهم بقلب حافات العبقات إلى الخلف. لاينمو العشب حيث يعيشون، تموت الأزهار وتسقط الظلال. تزهر علب الصفيح وإطارات العجلات حيث يسكنون. يعيشون على البازلاء الباردة غير الناضجة بعد، وعلى المشروبات الغازية. يحومون مثل الذباب، ومثل الذباب يستوطنون. وهذه الذبابة قد حطّت في بيتها. من فوق ظهر القط نظرت إليها:

«اخرجي» قالت بصوت هادىء. «أيتها الكلبة السوداء الصغيرة القذرة. اخرجي من بيتي». ارتجف القطّ وحرّك ذيله.

تراجعت بيكولا في الغرفة محدّقة في السيدة ذات اللون البنيّ كالحليب وهي في بيتها الجميل الذهبي والأخضر، والتي كانت تتحدث إليها عبر فرو القط. كلمات السيدة الجميلة جعلت شعر القط يتحرك، ومع النفس المتصاعد مع كل كلمة يتطاير إلى أجزاء استدارت لتستدل على الغرفة الأمامية. ورأت يسوع ينظر إليها بعينين حزينتين غير مندهشتين. شعره البنيّ الطويل مفروق في الوسط. والأزهار الورقية الرمادية تلتف حول وجهه.

في الخارج، كانت ريح آذار تصفر في شقّ في ثوبها. أبقت رأسها منخفضاً لتتجنب البرد، ولكنها لم تستطع أن تبقيه منخفضاً لفترة أطول لتتجنب رؤية ندف الثلج تتساقط ثم تموت على الرصيف.

الربيع

الغُصينات الأولى رفيعة، خضراء، طرية. تنحني لتشكّل دائـرة كاملـة، ولكنهـا لـن تنكسر غـير أن الأمـل المعفـم، اللذيـذ الرائـع، الـذي تبعثـه «الفورسيثيا»(*). وشجيرات الليلك ليس إلا تغييراً في أسلوب الجَلْـدْ. أنهـا تضربنا، بشكل مختلف، في الربيع. فبدلاً مـن الألم الفـاتر لسـوط الشـتاء، هناك هذه السياط الخضراء الجديدة التي تبقي لسعاتها بعد انتهـاء الجلـد بفترة طويلة. هناك دناءة وحقارة في تلك الغصينات الطويلـة تجعلنـا نحـنّ إلى الضربات المطردّة للسوط، أو لتلك اللطمات القوية ولكن البرئيـة لفرشـاة الشعر. وحتى الآن فان مجئ الربيع يذكرنـي بـالألم الـذي كـان يسببه لي الجلد، ولاتحمل لي شجيرات «الفورسيثيا» أي فرح.

في يوم سبت ربيعـيّ، كنـت، وأنـا أغـور في العشـب في أرض خاليـة، أغلق نوى الصقلاب، وأفكر بالنمل، وسويقات الدّراق، والمـوت، وأتسـاءل أين مضى العالم حين أغمضت عينيّ. ولابد أنـني اضطجعـت طويـلاً فـوق العشب لأن الظل الذي كان أمـامي حـين غـادرت البيـت، اختفـى حـين عدت. دخلت البيت الذي كان يلفه هدوء قلق. ثم سمعت أمي تغني شيئاً حول القطارات و«أركنساس». أقبلت من الباب الخلفي مع بعـض السـتائر الصفراء المطوية التي كانت تكوّمها فوق طاولة المطبخ جلسـت علـى الأرض لاستمع إلى قصص الأغاني، فلاحظت كم كانت تصرفاتهـا غريبـة. كـانت

(*) الفورسيثيا: شجيرة جرسية الأزهار من الفصيلة الزيتونية.

ماتزال ترتدي قبعتها، وأحذيتها مغبرة. وكأنها قد غاصت في التراب. وضعت ماء لتغليه. وكنست المدخل. ثم جرّت محفّة الستائر. ولكن بدل أن تضع تلك الستائر اللعينة فوقها. كنست المدخل مرة أخرى. وكانت تغني طوال الوقت حول القطارات و«أركنساس».

عندما أنهت عملها. ذهبت لأبحث عن فريدا. وجدتها في الطابق الأعلى متمددة على السرير وهي تبكي بذلك النشيج المتعب الذي يعقب النحيب الأول ــ لهاث وارتعاشات. تمددت على السرير. ونظرت إلى الباقة الصغيرة من الورود البرية المرقشة على ثوبها. لقد اضمحلت وبهتت ألوانها وخطوطها نتيجة الغسل الكثير.

«ماذا حدث يافريدا؟» رفعت وجهاً منتفخاً من بين ذراعيها المعقودتين. جلست، وهي ماتزال ترتعش، ودلّت ساقيها النحيفتين على جانب السرير. جثوت ورفعت طرف ثوبي لأمسح أنفها الذي يسيل. لم تكن تحب مسح الأنف بالثوب، ولكنها دعتني أفعل هذه المرة. كانت أمي تفعل ذلك دائماً بمريلتها.

ـ «جلدوك؟» هزت رأسها بالنفي.

ـ «إذن لماذا تبكين؟»

ـ «لأنه..»

ـ «لأنه ماذا؟»

ـ «السيد هنري».

ـ «ماذا فعل؟»

ـ «ضربه بابا».

ـ «لماذا؟ بسبب ماجينو لاين؟ هل عرف بالأمر؟»

ـ «لا».

ـ «حسناً، ما الأمر إذاً؟ قولي يافريدا. كيف يمكن أن لاأعرف بالأمر».

ـ «إنه.. ضايقني».

ـ «ضايقك؟ تعنين مثل سوفيد تشيرتش؟»

ـ «شبيه بذلك»

ـ «هل أراك عورته؟».

ـ «لا لا لا، لقد لمسني».

ـ «أين؟».

ـ «هنا وهنا». وأشارت إلى النهدين الصغيرين اللذين يشبهان جوزتي بلوط متدليتين، نثرا أوراق زهرٍ باهتة على ثوبها.

ـ «حقاً؟ وكيف شعرت؟»

ـ «أوه، كلوديا» بدت متضايقة. لم أسأل الأسئلة المناسبة.

ـ «لم أشعر بأي شيء».

ـ «ولكن أليس من المفروض أن تشعري بشيء؟ شعور جميل..ها؟».

حكت فريدا على أسنانها: «وماذا فعل هو؟ قرصهما فقط».

تأوّهت: «قال أولاً كم أنا جميلة. ثم أمسك بذراعي ولمسني».

ـ «وأين كان بابا وماما؟»

ـ «كانا يشذّبان الحديقة».

ـ «وماذا قلت له حين فعل ذلك؟»

ـ «لاشيء. خرجت راكضة من المطبخ، وذهبت إلى الحديقة».

ـ «ولكن ماما قالت أننا لايجب أن نقطع خطوط الغرس بمفردنا».

ـ «وماذا ستفعلين أنت؟ تجلسين هناك وتدعيه يقرصك؟»

نظرت إلى صدري: «لاأملك شيئاً ليقرصه، ولن أملك شيئاً أبداً».

ـ «أوه ياكلوديا. أنت تغارين من كل شيء. تريدينه أن يفعل؟»

ـ «لا، ولكني تعبت من كوني آخر من يملك أي شيء».

ـ «لسنا كذلك. ماذا عن الحمى القرمزية؟ كنت أول من أُصيب بها».

ـ «نعم، ولكن ذلك لم يستمر. على أية حال، ماذا حدث في الحديقة؟»

ـ «أخبرت ماما، وماما أخبرت بابا، وعندما عدنا كلنا إلى البيت، كان قد خرج، فانتظرناه، وعندما رآه أبي في المدخل، رمى دراجتنا القديمة على رأسه، ثم ضربه بقوة».

ـ «هل مات؟»

ـ «لا. نهض وبدأ يغني: «ربي أقرب إليك». ثم ضربته أمي بالمكنسة وهي تقول له أن لايذكر اسم الله على لسانه، ولكنه لم يتوقف، وكان أبي يلعن، وكل شخص يصرخ.

ـ «آه. استمري. دائماً تفوتني هذه المشاهد».

ـ «وأتى السيد بوفورد بمسدسه، وقالت له أمي أن يذهب إلى مكان ما ويجلس فيه، وقال أبي لا، أعطني المسدس، ففعل ذلك السيد بوفورد، وصرخت أمي، فخرس السيد هنري وبدأ يركض، فأطلق أبي الرصاص عليه، وخلع السيد هنري حذاءه واستمر يركض بجواربه، ثم أتت روزمري وقالت أن أبي سيذهب إلى السجن، فضربتها».

ـ «بقوة؟»

ـ «بقوة».

ـ «وعند ذلك جلدتك أمي؟»

ـ «لم تجلدني. لقد أخبرتك».

ـ «إذن لماذا تبكين؟»

ـ «أتت الآنسة دونيون بعد أن هدأ كل شخص، وكانت ماما وبابا يتشاجران حول من سمح للسيد هنري بالمجيء. وقالت لماما أنها يجب أن تأخذني إلى الطبيب لأنني ربما قد فقدت عفافي، «فبدأت ماما تصرخ من جديد».

ـ «عليك؟»

ـ «لا، على الآنسة دونيون».

ـ «ولكن لماذا تبكين؟».

ـ «لأني لاأريد أن أفقد عفافي».

ـ «ماذا تعني هذه الكلمة؟»

ـ «أنت تعرفين. مثل ماجينو لاين. أنها فقدت عفافها. أمي قالت ذلك». وانهمرت الدموع ثانية.

قفزت إلى الذهن صورة فريدا، ضخمة، سمينة، رجلاها النحيلتان منتفختان، وطبقات من الجلد المحمّر تحيط بوجهها. وترقرقت الدموع في عينيّ أنا أيضاً.

ـ «ولكن يافريدا، بإمكانك أن تمارسي الرياضة، وأن لاتأكلي كثيراً».
ـ هزّت فريدا كتفيها مستهزئة.
ـ «وماذا عن تشاينا وبولند؟ إنهما فقدتا عذريتهما أيضاً، أليس كذلك؟ ولكنهما ليستا سمينتين».
ـ «لأنهما يشربان الويسكي. ماما تقول أن الويسكي أكلهما».
ـ «تستطعين أن تشربي الويسكي».
ـ «ومن أين أستطيع أن أحصل على الويسكي؟»
فكرنا بذلك. لاأحد سيبيع الويسكي لنا. كما أننا، على أية حال، لانملك نقوداً. ولايوجد ويسكي في بيتنا. من عنده ويسكي؟»
قلت لفريدا: «بيكولا. أبوها يشرب دائماً. تستطيع أن تعطينا ويسكي».
ـ «تعتقدين ذلك؟»
ـ «بالتأكيد. كولي يشرب دائماً. دعينا نذهب ونسألها. ولسنا مضطرتين أن نسألها عن السبب».
ـ «الآن؟»
ـ «بالتأكيد، الآن»
ـ «وماذا سنقول لماما؟»
ـ «لاشيء. دعينا نخرج من الخلف، الواحدة بعد الأخرى، فلا تلاحظنا».
ـ «حسناً. إخرجي أنت أولاً ياكلوديا».
فتحنا بوابة السياج في آخر الحديقة الخلفية. وركضنا في الزقاق.
كانت بيكولا تعيش على الجانب الآخر من برودواي لم نذهب إلى بيتها من قبل، ولكننا نعرف مكانه. بناية رمادية ذات طابقين، في الأول يوجد مخزن. وفي الثانية شقة.
طرقنا الباب الأمامي ولكن لم يرد أحد، فذهبنا إلى الباب الجانبي، وعندما اقتربنا، سمعنا موسيقى منبعثة من راديو، وتطلعنا لنرى مصدر الصوت.

في شرفة الطابق الثاني، ذات الدرابزون القديم المهترىء، كانت تجلس الماجينو لاين نفسها. نظرنا إليها ملياً: جبل من اللحم. كانت متمدّدة، أكثر من كونها جالسة، على كرسي هزّاز. لم تكن تلبس حذاء، فبرز كلا قدميها من خلال الدرابزون: أصابع صغيرة، كأصابع طفل، في أعلى القدمين الغليظتين، كاحلان منتفخان بدا عليهما الجلد ناعماً ومشدوداً في آن، رجلان ضخمتان تنفرجان، بشكل واسع، عند الركبتين مثل جَدَعة شجرة، يمتد عليهما طريقان يؤديان إلى فخذين ناعمتين رخوتين تقبلان بعضهما البعض في ظل الثوب وتنغلقان، وبرزت في يدها المبقّعة، مثل غصن محترق، قنينة شراب غازي ذي لون بني غامق.

نظرت إلينا من خلال الدرابزون، وأصدرت جشأة طويلة بصوت منخفض. كانت عيناها صافيتين مثل قطرتي مطر. فتذكرت، مرة أخرى، الشلالات. لم تستطع أي منها الكلام، وتخيلنا معاً أننا نرى أمامنا ماستصبحه فريدا. ابتسمت لنا ماجينو لاين ثم قالت:

«تبحثان عن شخص!»

كان علي أن أسحب لساني من سقف فمي لأقول: «بيكولا، تعيش هنا؟»

ـ «إي، إي. ولكنها ليست هنا الآن. ذهبت إلى مكان عمل أمها لتجلب الغسيل».

ـ «نعم مدام. ترجع؟»

ـ «إي، إي...عليها أن تنشر الغسيل قبل غروب الشمس».

ـ «أوه».

ـ «بإمكانكما أن تنتظراها. تريدان أن تأتيا وتنتظرا؟»

تبادلنا النظرات. ونظرت ثانية إلى الطرق الفسيحة من الغرفة، التي تلتقي في ظلّ ثوبها.

وقالت فريدا: «لا، يامدام».

«فردت ماجينو لاين، وقد بدت مهتمة بمشكلتنا».

ـ «حسناً، تستطيعان أن تذهبا إلى مكان عمل أمها، ولكنه هناك فوق، قرب البحيرة».

ـ «أين قرب البحيرة ؟»

ـ «قرب بيت أبيض كبير فيه عربة يد مملوءة بالأزهار».

إنه بيت كنا نعرفه، وكانت تثير أعجابنا تلك العربة الكبيرة البيضاء ذات العجلات المائلة، المليئة دائماً بالأزهار الموسمية.

«أليس المكان أبعد من أن تمضيا إليه مشياً على الأقدام؟»

حكت فريدا ركبتيها.

«لماذا لاتنتظرانها هنا؟ تستطيعان أن تنتظرا هنا تشربان شيئاً؟» توهجت، ثانية، تلك العينان المتشربتان بقطرات المطر، وكانت ابتسامتها تملأ فمها، وليس مثل ابتسامات الكبار الآخرين الشحيحة المتمنعة.

تحركت لأصعد السلم، ولكن فريدا قالت: «لا يامدام، غير مسموح لنا».

اندهشت لشجاعتها، وارتعبت من جوابها الوقح. اختفت ابتسامة الماجينو لاين:

ـ «غير مسموح لكما؟»

ـ «نعم، مدام»

ـ «غير مسموح لكما ماذا؟»

ـ «أن ندخل بيتك».

ـ «صحيح؟» مازالت الشّلالات في عينيها

ـ «لماذا؟»

ـ «أمي قالت ذلك. أمي قالت أنك فقدت. عفافك».

بدأت الشلالات تجري ثانية. رفعت القنينة إلى شفتيها وأفرغتها كلها وبحركة رشيقة، لفتة سريعة جداً. وصغيرة جداً لم نرها حقاً، وإنما تذكرناها بعد ذلك، قذفت القنينة علينا من فوق الدرابزون. تكسرت شظايا عند أقدامنا، وتركت خدوشاً على أرجلنا قبل أن يكون بإمكاننا القفز.

وضعت ماجينو لاين يداً غليظة على بطنها وأخذت تضحك في البداية كان مجرد طنين في أعماق فمها المغلق، بصوت أعرض وأقوى. ضحك جميل ومخيف في الوقت نفسه. ثم أمالت رأسها على الجانبين، وأغلقت

عينيها، وهـزّت جذعهـا الضخـم. وكـانت ضحكاتهـا تتسـاقط مثـل أوراق حمراء حولنا، ضحكات تتكسر تلتفّ حولنا وتتبعنا ونحن نركض انقطعـت أنفاسنا كما أرجلنا وبعد أن استرحنا عند شجرة، ورؤوسنا على سـواعدنا، قلت: «دعينا نذهب إلى البيت».

كانت فريدا ماتزال غاضبة، فقد كانت تقاتل، كما اعتقدت، من أجـل حياتها. «لا، يجب أن نحصل عليه الآن».

ـ «لا نستطيع أن نقطع كل هذا الطريق إلى البحيرة».

ـ «بل نستطيع، تعالي».

ـ «ماما ستقتلنا».

ـ «لن تفعل. كل ماستفعله هو أن تجلدنا».

كان ذلك صحيحاً. لن تقتلنا، أو تضحك علينا ذلك الضحك الرهيـب، أو تقذفنا بقنينة.

مشينا في طرق تصطف على جانبيها الأشجار، وبيوت رماديـة محنيـة مثل سيدات متعبات...تغيرت الشوارع، فبدت البيوت أكثر ثباتاً، طلاؤهـا أكثر جدة، ودعائم الشرفات أكثر استقامة، وفناءاتها أعرض. ثم وصلنا إلى بيـوت قرميديـة بعيـدة عـن الشـارع، تمتـد أمامهـا باحـات في نهاياتهـا شجيرات مقصوصة بأشـكال مخروطيـة ودائريـة جميلـة ذات لـون أخضـر مخملي كانت البيـوت المواجهـة للبحـيرة هـي الأجمـل. أثـاث الحدائـق، والزخرفة، والنوافذ التي مثل نظارات صقيلة، ولكن لايوجد أيّ أثر للحياة كانت هذه الحدائق تقع في منحدر أخضر يهبط إلى شريط رملـي، ثـم إلى بحيرة «إيري» الزرقاء، محيطة بكل الطريق إلى كندا، والسماء ذات البقـع الصفراء في القسم الذي يقع فيـه مصنـع الصلـب، لم تكـن لتصـل إلى هـذا القسم من المدينة. السماء هنا زرقاء دائماً.

وصلنا إلى منتزه «ليك شور»، وهو منتزه واسع تنتشر فيه براعم الزهور، والنافورات، وملاعب البولنغ، والموائد كـان فارغـاً في ذلـك الوقـت. ولكـن سرعان ماسيؤمه الآبـاء والأطفـال البيـض، الأطفـال النظيفـون، المهذّبـون، الذين سيلعبون في المناطق المطلّة على البحـيرة، سـيهرعون راكضـين مـرة،

متعثرين مرة على تلك المنحدرات المؤدية إلى الماء الذي سيستقبلهم بحـرارة. لم يكن مسموحاً للسود بدخول المنتزه، ولذلك ملأ علينا أحلامنا.

قبل مدخل المنتزه مباشرة، كان هناك البيت الأبيض الفخم. ذي العربة الملئية بالأزهـار وكـانت أنصـال الزعفـران القصـيرة مغمـودة في القلـوب الأرجوانية ـ البيضاء التي تكون أول من يتحمل برد ومطر أول الربيع. أمـا المشى فقط كان مرصوفـاً بعـدم نظـام محسـوب مخفيـاً التناسـق الحـاذق. مامنعنا من التسكع هناك هو الخوف ومعرفتنا بأننا لا ننتمي إلى هذا المكان درنا حول البيت الفخـم، واتجهنـا للخلـف. علـى شـرفة صغـيرة محاطـة بدرابزون. جلست بيكولا لابسة كنزة صوفية ذات لون أحمر فـاتح، وثوبـاً قطنياً أزرق، وكانت هناك عربة صغيرة جنبها، بدت سعيدة برؤيتنا.

ـ «مرحباً»

ـ «مرحباً»

ـ «مـاذا تفعـلان هنـا؟» ابتسـمت وهـي نـادراً ماتبتسـم، فأحسسـت، لدهشتي، بالسرور لذلك.

ـ «كنا نبحث عنك»

ـ «من أخبركم أني أعيش هنا؟»

ـ «ماجينو لاين»

ـ «من تكون هذه؟»

ـ «تلك السيدة الضخمة السمينة. أنها تعيش فوق»

ـ «أوه، تقصدان الآنسة ماريا، اسمها ماريا»

ـ «حسناً، كل الناس يدعونها الآنسة ماجينو لاين. هل أنت خائفة؟»

ـ «خائفة من ماذا؟»

ـ «من ماجينو لاين».

بدت بيكولا حائرة حقاً. «لماذا؟»

ـ «هل تسمح لك أمك بالذهاب إلى بيتها، والأكل من صحونها؟»

ـ «أمي لاتعرف أني أذهب إليها. الآنسة ماريا لطيفة. كلهن لطيفات»

فقلت لها: «لقد حاولت أن تقتلنا».

ـ «من؟ الآنسة ماريا؟ إنها لاتزعج أي إنسان».

ـ «إذن لماذا لاتسمح لك أمك بالذهاب إلى بيتها إذا كانت لطيفة؟»

ـ «لا، لاأعرف. تقول أنها سيئة. ولكنهن لسن سيئات. إنهن يعطينني أشياء دائماً».

ـ «أيّة أشياء؟»

(أشياء كثيرة. ملابس جميلة وأحذية. حصلت منهن على أحذية أكثر مما لبست طوال حياتي به. إنهم يعطينني حلّياً، وحلوى ونقوداً، ويأخذنني إلى السينما. ومرة ذهبت معهن إلى الكرنفال. ومرة أخذتني تشاينا إلى «سليغيلاند» لأرى الميدان، وأخذتني بولند إلى شيكاغو لأرى استعراض الطيران).

ـ «كذابة، ليس عندك ملابس جميلة».

ـ «نعم، عندي».

ـ «أوه، بيكولا، لماذا تخبريننا بكل هذه الأشياء التافهة؟»

ـ «ليست تافهة». انتصبت بيكولا مستعدة للدفاع عن أقوالها عندما فتح الباب.

أخرجت السيدة بريدلوف رأسها من الباب قائلة: «ماذا يجري هنا؟ بيكولا، من هما هاتان الطفلتان؟»

ـ «فريدا وكلوديا سيدة بريدلوف».

ـ «بنات من؟» أقبلت من الشرفة، وبدت أكثر جمالاً من المرات السابقة التي رأيتها فيها، ببذلتها البيضاء وتسريحتها الصغيرة المرفوعة فوق جبينها.

ـ «بنات ماك تير ياماما».

ـ «أوه، نعم، الذين يعيشون في شارع ٢١»

ـ «نعم يامدام».

ـ «ماذا تفعلان هنا؟»

ـ «نتمشى فقط. جئنا لنرى بيكولا»

ـ «حسناً، من الأفضل أن تعودا مبكراً، تعالا الآن حتى أجلب الغسيل، وبعدها يمكن أن تتمشيا مع بيكولا»

دخلنا إلى المطبخ، وهو غرفة كبيرة فسيحة، كان جلد السيدة بريدلوف يبدو متورداً ـ مثل التفتة ـ في انعكاس الخزف الصيني الأبيض، والأدوات الخشبية البيضاء، والأواني المصقولة، والخزف النحاسي المتألق. وكانت رائحة اللحم، والخضراوات، وشيء محمصّ للتو تختلط مع رائحة نفط.

ـ «سأذهب لأجلب الغسيل، قفن هناك بلا حراك، ولاتعبثن بأي شيء». اختفت خلف باب أبيض دوّار، وكان بإمكاننا أن نسمع وقع خطواتها المتقطع وهي تهبط إلى الدور السفلي.

فتح باب آخر، ودخلت فتاة صغيرة، أصغر سناً وحجماً منا جميعاً. كانت ترتدي ثوباً مفتوح الظهر، وشبشباً رقيقاً قرنفلي اللون، تبرز في مقدمته أُذُنا أرنب. وكان شعرها الأصفر كالقمح مربوطاً بشريط سميك. حينما رأتنا، تراقص الخوف في وجهها لثانية، ونظرت قلقة في أنحاء المطبخ.

ثم سألت: «أين بولي؟»

أحسست بالغليان نفسه في داخلي، إن تسميتها السيدة بريدلوف بـ(بولي)، في حين أنه حتى بيكولا تدعو أمها بالسيدة بريدلوف، بدت لي سبباً كافياً لأن أنبش أظافري في وجهها.

قلت لها: «تحت».

فنادت: «بولي».

وهمست لي فريدا: «انظري. انظري هناك». على الطاولة الطويلة، قرب الموقد، وفي حوض فضي، كان هناك إناء عميق مملوء بشراب التوت. وكان العصير الأرجواني يطفح هنا وهناك على السطح. اقتربنا منه.

قالت فريدا: «مايزال حاراً».

مدت بيكولا يدها لتمسك الوعاء، وترى فيما إذا كان حاراً.

ونادت الفتاة الصغيرة ثانية: «كولي، تعالي».

قد يكون ذلك بسبب العصبية، أو نتيجة حركة خرقاء، لاأدري، إذ أن الوعاء مال تحت أصابع بيكولا وسقط على الأرض، وانتشر التوت

المسّود على الأرض، وتناثر كثير من العصير على ساقي بيكولا، ولابد أن الحروق كانت مؤلمة لأنها أخذت تصرخ وتقفز، في الوقت الذي دخلت فيه السيدة بريدلوف بصرّة الغسيل. في قفزة واحدة كانت فوق بيكولا، وبطحتها على الأرض وهي تضربها بظهر يدها. انزلقت بيكولا في العصير، وقد ألتفت إحدى رجليها تحتها. جرّتها السيدة بريدلوف من ذراعها، وصفعتها ثانية، وشتمتها بشكل مباشر بصوت ضعيف من الغضب، وشتمتنا ضمناً: «حمقاء مجنونة...الأرض...القذارة... انظري ماذا...العمل...مجنونة... الأرض...الأرض..الأرض».

كانت كلماتها أكثر حرارة وسواداً.من التوت المدخّن. وانسحبنا إلى الخلف مرعوبتين.

أخذت الفتاة الصغيرة تصرخ، فاستدارت نحوها السيدة بريدلوف: «اهدئي ياطفلتي، اهدئي، تعالي هنا. آه ياإلهي، انظري لثوبك. لاتبكي أكثر. ستغيّره لك بولي».

اتجهت إلى المغسلة، وفتحت الحنفية على المنشفة. كانت تبصق علينا الكلمات مثل قطع فاسدة من تفاحة.ومن فوق كتفها

ـ «إحملي الغسيل، واخرجي من هنا، حتى أنظف هذه القذارة».

رفعت بيكولا صرة الغسيل المليئة بالملابس المبللّة، وأسرعنا خارجتين. وفي الوقت الذي وضعت فيه بيكولا الغسيل على العربة، كان بإمكاننا سماع السيدة بريدلوف تهدىء وتسترخي تلك الطفلة الصغيرة البنفسجية الصفراء.

ـ «من كنّ يابولي؟»

ـ «لاتقلقي أبداً».

ـ «ستعدّين فطيرة جديدة؟»

ـ «بالطبع».

ـ «من كنّ يابولي؟»

ـ «اهدئي، لاتقلقي أبداً» همست وجاءت العذوبة في كلماتها لتكمل مشهد الغروب المسفوح على البحيرة.

انظر الأم الأم لطيفة جداً الأم
ستلعب مع جانيت الأم تضحك
اضحكي ياأمّ اضحكي

الشيء الأكثر سهولة هو أن تفسرّ مشكلتها انطلاقاً من قدمها. هذا هو مافعلته هي. ولكن إذا أردنا اكتشاف الحقيقة حول كيفية موت الأحلام، فعلى المرء أن لايصدق أيّ كلمة يقولها الشخص الحالم. ربما كان التجويف في أحد أسنانها الأمامية هو نهاية بدايتها الجميلة. وبالرغم من أنّها الطفلة التاسعة من بين أحد عشر طفلاً، وأنها تعيش على قمة ألباما الطينية الحمراء التي تبعد سبعة أميال عن أقرب طريق، فإن تلك اللامبالاة التامة التي استقبلت فيها المسمار الصدىء وهو يثقب قدمها خلال السنة الثانية من حياتها، هي التي أنقذت بولين وليمز من أن تكون مجهولة تماماً. تركها الجرح بقدم معوجّة ترتفع وتنخفض عندما تمشي، ليس العرج هو الذي لوى، في النهاية، عمودها الفقري، ولكن طريقة رفع تلك القدم المزعجة، وكأنها تنتزعها من دوّامات تهدد بابتلاعها. هذا التشوّه، الذي كان طفيفاً، أوضح لها عدة أمور ماكانت لتكون بدونه مفهومة. لماذا لاتملك وحدها، من بين جميع الأطفال، اسم دلع؟ لماذا لايروي أحد الطرائف أو الحكايات حول الأشياء المسلية التي تقوم بها. لماذا لا يعلق أحد على إعدادها للطعام؟ ولايحتفظ أحد بها بالرقبة أو الجناح؟ لماذا لم يطبخوا مرة البازلاء في قدر منفصل بدون أرز لأنها لاتحب الأرز؟ لماذا حتى لم يضايقها أحد؟ لماذا لم تشعر قط أنها في بيتها، أو أنها تنتمي لأي مكان؟ كانت تعتبر قدمها مسؤولة عن هذا الشعور بالعزلة وعدم الاستحقاق، بدأت تنمّو، وقد حصرت نفسها كطفلة في هذه الشرنقة التي نسجتها عائلتها، متعاً خاصة هادئة كانت تحب، أكثر من أي شيء آخر، ترتيب الأشياء، وتنظيمها في صفوف: مرطبانات حفظ الأغذية على

الرفوف، نوى الدراق على السلم..العصي، والأحجار، والأوراق، وكان أفراد العائلة يتركون هذا الترتيب على حاله. وعندما يبعثر أحدهم، بلا قصد هذه الصفوف المنتظمة، فإنه يتوقف ليصلح الأمر، وهي لاتغضب أبداً، فذلك يعطيها فرصة لإعادة ترتيبها من جديد، ومهما كان عددها كبيراً. فإنها تنظمها في صفوف مرتبة حسب الحجم، والشكل، وتدرج شجرة الحَور القطني في صف واحد، ولا تضع أبداً مرطبانات الطماطم بجوار الفاصولياء الخضراء. خلال سنواتها الأربع في المدرسة كانت تسحرها الأرقام وتسبب لها الكلمات الكآبة، وقد فقدت من دون أن تدري كثيراً من الأصباغ والأقلام قبل بداية الحرب العالمية الأولى بقليل، اكتشفت عائلة وليمز، من الجيران والأقارب العائدين، إمكانية العيش، بشكل أفضل، في مكان آخر. هاجروا في دفعات ومجموعات، ست رحلات في ستة أسابيع، مختلطين مع عوائل أخرى، إلى كنتاكي حيث المناجم والعمل في المطاحن.

«كان الوقت ليلاً عندما غادرنا ذلك القبو، وانتظرنا الشاحنة عند المحطة. هاجمتنا حشرات حزيران(*) من كل مكان، أضاءت ورقة شجرة، ثم رأيت شريطاً أخضر يظهر بين وقت وآخر. كانت هذه آخر مرة أرى فيها حشرات حزيران حقيقية. الحشرات هنا هي ليست حشرات حزيران. إنها شيء آخر، يسميها الناس هنا حباحب. ولكنها كانت تختلف هناك. إني أتذكر ذلك الشريط من الإخضرار، أتذكره جيداً».

عاشوا في كنتاكي في بلدة حقيقية، عشر إلى خمسة عشر بيتاً في شارع واحد بأنابيب مياه تصل إلى المطبخ. وجد «آدا» و«فاولر وليمز» بيتاً خشبياً بخمس غرف بفناء يحيطه سياج، كان مرّة أبيض، زرعت عليه أم بولين زهوراً، واحتفظوا ببضع دجاجات داخل الفناء، التحق إخوانها بالجيش، وماتت إحدى أخواتها، وتزوجت اثنتان، فتوفرت بذلك مساحة أرحب. كان الارتحال إلى هذا المكان مريحاً، بشكل خاص، لـ«بولين» التي بلغت

(*): هي حشرات تتميّز بأجنحة لصفها غشائي ولصفها جلدي.

السن الذي تترك فيه المدرسة، عملت السيدة وليمز منظفة وطباخة عند وزير أبيض يسكن في الجانب الآخر من المدينة. أما بولين، التي أصبحت الأكبر سناً في البيت، فقد تولّت العناية بشؤون البيت. كانت تقوم بإصلاح السياج، وتنصب الأوتاد المسنّنة التي تربط فيها أسلاكاً كهربائية، وتجمع البيض، وتكنس، وتطبخ، وتغسل، وتهتم بالطفلين الصغيرين ـ توأمان هما: «تشيلكن» و«بايّ». لم تكن جيدة في تدبير شؤون البيت فقط، إنما كانت تستمتع بذلك أيضاً. وكان الهدوء يريم على البيت حين يغادر الأبوان إلى مكان العمل، ويكون الأطفال في المدرسة أو في المناجم. إن السكون والعزلة يجعلانها تشعر بالهدوء والنشاط، فهي تستطيع أن تنظم الأشياء وتنظّف بدون مقاطعة حتى الساعة الثانية حين يعود «تشيكن» و«باي».

عندما انتهت الحرب، كان التوأمان في العاشرة من عمرهما، فتركا المدرسة، أيضاً، ليعملا، وبلغت بولين الخامسة عشرة ومازالت تدبر شؤون البيت، ولكن بحماس أقل. بدأت التخيلاتُ حول الرجال والحب، والملامسات تصرف انتباهها ويديها عن العمل. بدأ التغير في الجو يؤثر عليها مثلما تؤثر عليها مشاهد وأصوات معينة. وقد ترجمت هذه المشاعر نفسها على شكل سوداوية شديدة. فكرت بموت الأشياء الحديثة الولادة، والطرق الموحشة، والغرباء الذي يظهرون من لامكان فقط ليمسكوا يد إنسان ما، والغابات التي تغرب فيها الشمس دائماً. كانت هذه الأحلام تكبر عندما تكون في الكنيسة بشكل خاص. كانت الأغاني تعانقها، وعندما تحاول أن تركزّ ذهنها على عاقبة الخطيئة، فإن جسمها يرتجف طالباً الانعتاق.والخلاص، وولادة ثانية غامضة قد تحدث دون بذل أيٍ جهد من طرفها. لم تكن عدوانية قط في أيٍّ من خيالاتها، وكانت تقتل الوقت عادة بالتمشي على ضفة النهر، أو تجمع التوت في حقل عندما يظهر شخص مابعيون وديعة نافذة، شخص يفهمها ـ بدون أن يتبادلا الكلام ـ شخص تستقيم قدماها وتنسبل عيناها أمام نظراته، الشخص بلا وجه بلا شكل، بلا صوت، بلا رائحة. إنه طيف خالص. رقّةٌ تعانقها بقوة ووعد بالراحة.

ولم يكن من المهم أنها ليست لديها أيّة فكرة عما تفعل أو ماذا تقول للطيف، بعد تعرف صامت ولمسات بلا صوت، تحطمت أحلامها، ولكن الطيف كان يعرف ماذا سيفعل. كان عليها فقط أن تضع رأسها على صدره، وهو سيقودها إلى البحر، إلى المدينة، إلى الغابات ...إلى الأبد.

كانت هناك امرأة تدعى إيفي يبدو أنها تحمل في فمها كل الأصوات الضاجة في روح بولين غنت إيفي، الواقفة بعيداً قليلاً عن الكورس، عن الجمال الأسود الذي لاتستطيع أن تسميه بولين، غنت عن الموت الذي تتوق إليه بولين، وغنت عن الغريب الذي عرف بالأمر...

أيها الإله الكريم خذ بيدي
قدني دعني أقف على قدميّ
أنا متعبة، وضعيفة، منهوكة القوى
قدني خلال العواصف والليل
قدني إلى الضياء
خذ بيدي، ياإلهي الكريم، وقدني
حين تصبح طرقي موحشة
يبقى الإله الكريم قربي
عندما توشك حياتي على الرحيل
إسمعْ صرختي، اسمع ندائي
أمسك يدي حتى لاأسقط
خذي بيدي، أيها الإله الكريم، وقدني

هكذا كان الأمر عندما ظهر الغريب، الشخص غير المحدد. وشعرت بولين بالامتنان، وليس بالدهشة، أتى مختالاً طالعاً من من شمس كنتاكي في يوم من أشد أيام السنة حرارة، أتى كبيراً، أتى قوياً، أتى بعيون صفراء، ومنخرين متسعين، وأتى بموسيقاه الخاصة.

كانت بولين منحنية، على السياج، وذراعاها متكئتان على المشاجب المتقاطعة بين الأوتاد، كانت وضعت لتوها عجينة البسكويت، ونظفت

أظافرها من الطحين. خلفها، ومن مسافة معينـة، سمعت صفيراً، لازمـةً سريعة، عالية النغمة من النوع الذي يردّده الأولاد السود وهم يكنسون، أو يجرفون، أو حين يتمشّون فقط. نوع من موسـيقى الشـارع حيث الضحـك يغطي على القلق، والفرح قصير وحاد مثل شفرة مطواة أصغـت بانتبـاه إلى موسيقى، تاركة إيّاها تنتزع ابتسامة من شفتيها. أصبح الصفير أعلى، ومع ذلك لم تستدر بعد، لأنهـا أرادتـه أن يستمر. وبعـد أن ابتسمت لنفسـها متخلصة من أفكارها الكيئبة سـريعاً، ضحكـت بصـوت عـال، واستدارت لترى. كان الشخص، الذي أطلق الصفير، منحنياً يدغدغ قدمها المكسـورة، ويقبل ساقها. لم تسـتطع أن تتوقـف عـن الضحـك، ليـس قبـل أن ينظـر إليها، وترى شمـس كنتـاكي تغمـر عيـنيّ كـولي بريدلـوف الصفراويـن ذي الجفنين الكثيفين.

«أريدك أن تعرف أنني حين رأيت كولي لأول مرة. كـان الأمـر يشـبه كِسَراً من الألوان عرفناها في تلك البيوت الشعبية، إذ كنـا نلتقـط التـوت بعد الجنائز، وأضع بعضاً منه في جيب ثوبي الـذي ألبسـه يـوم الأحـد، فينهرس ويلطخ وركيّ، كان الأرجوان يوسّخ ثوبي، فـلا ينظـف أبـداً لا الثوب ولا أنا. وكان بإمكانـي أن أحس بذلك الأرجوان عميقـاً في داخلـي، وبعصير الليمون الذي تعده ماما حين يعود أبـي مـن الحقـل. إنـه بـارد ومصفر بحباته التي تعوم عند القعر، ولن أنسـى ذلـك الشـريط الأخضر الذي عملته حشرات حزيران على الأشجار في الليلة الـتي غادرنـا فيهـا تلك البيـوت. كـان الأمـر يُشـبه التـوت، يُشـبه عصـير الليمـون، يُشـبه الشريط الأخضر لحشرات حزيران. أتـوا كلهـم معـاً. وكـان كـولي نحيـلاً حينهـا ذا عينين مشرقتين حقاً. اعتـاد أن يصفـر، وعندمـا كنـت اسمعـه أحُسّ بالرعشات في جلدي».

أحب بولين وكولي بعضهما البعض. وبدا أن كولي يسـتلطف صحبتهـا، وحتى يستمتع بطريقة حياتها الريفية. ونقص معرفتها بحياة المدينة. كـان يتحدث معها حول قدمها ويسألها، عندما يمشيان في شوارع المدينـة أو في الحقول، إذا كانت تشعر بالتعب. وبدلاً من أن يتجاهل عاهتها، متظـاهراً

بعدم وجودها بالنسبة إليه، فإنه جعلها تبدو وكانها شيء خاص ومحبّب، فشعرت بولين بأن قدمها المريضة هي ميزة لها.

كان يلمسها بحزم ولكن برقة، كما كانت تحلم تماماً، ولكن بلا كآبة الغروب، وضفاف الأنهار الموحشة. وكانت تشعر بالأمان والعرفان، لانه كان حنوناً ومفعماً بالحياة. لم تعرف قبله أن هناك قدراً كبيراً من الضحك في العالم.

اتفقا أن يتزوجا، ويذهبا إلى الشمال حيث مصانع الصلب هناك بحاجة إلى عمال كما أخبرها كولي، ذهبا إلى «ترين» و«أوهيو»، شابين، محبيْن، مليئين بالنشاط. وجد كولي مباشرة عملاً في مصنع صلب، أما بولين فقد اهتمت بتدبير شؤون المنزل.

حينئذٍ فقدت سناً أمامياً. لابد انه كانت هناك قطعة صلبة، قطعة بنية اللون حسبتها قطعة طعام فاستقرت على المينا لشهور، وانزرعت هناك فلم تتزحزح، ثم انزلقت مع معجنون الأسنان إلى تحت. ومع الأكل انزلقت حتى الجذر دون أن تمرّ بالعصب، ولذلك لم تشعر بوجودها أو بالضيق منها، ونتيجة لضغط حاد على الجذر الذي فقد قوته. وسقط السن تاركاً جدعة مسنّنة خلفه. ولابد أن وضعية أسنانها قد سمحت لهذه القطعة الصغيرة البنية أن تستقر هناك.

في هذه المدينة الفتية النامية، أوهيو، التي بُلّطتْ شوارعها الجانبية بالأسمنت، الواقعة على ضفة بحيرة زرقاء هادئة، والمعتزة بارتباطها الوثيق مع «أوبرلين»، محطة المترو، الواقعة على بعد ثلاثة عشر ميلاً فقط، في هذه المدينة، ـ البوتقة الواقعة في طرف أمريكا، المواجهة لكندا البادرة ولكن المتفتحة ـ أي شيء يمكن أن يعكر الحياة؟

«أنا وكولي دبّرنا أمورنا بشكل جيد في ذلك الوقت. أتينا إلى الشمال. معتقدين أن هناك كثيراً من الأعمال وكل شيء. انتقلنا إلى غرفتين فوق محل للأثاث، وابتدأت أنا بتدبير شؤونِ البيت. وكان كولي يشتغل في مصنع للصلب. وكان كل شيء يبدو رائعاً. لاأعرف ماذا حدث. كل شيء

قد تغير. كان من الصعب أن نتعرف على الناس هنا. لقد افتقدت الناس الذين عرفتهم. لم أعتد على كل هؤلاء الناس البيض، الأشخاص الذين عرفتهم سابقاً كانوا كريهين، ولكنهم لم يكونوا يأتون كثيراً، أعني أني لم أكن أتعامل معهم كثيراً، فقط من وقت لآخر في الحقل، أو في مخازن التموين. ولكنّ الناس هنا في الشمال في كل مكان، جوارنا، تحتنا، في الشوارع، والناس الملوّنون قليلون بعيدون. الملوّنون في الشمال مختلفون أيضاً، مغمورون، ليس أحسن من البيض في أخلاقهم. إنهم يجعلونك تشعر بأنك بلا وزن، ولكنني لم أكن أتقبل ذلك منهم. كان ذلك الوقت الأكثر وحشة في حياتي. أتذكر أني كنت أنظر إليهم من النافذة وأنا انتظر عودة كولي إلى البيت عند الثالثة. لم أكن أملك حتى قطّة لأتحدث إليها»

في وحدتها، كانت تلجأ لزوجها طلباً للطمأنينة، والترفية عن نفسها ولأشياء أخرى تملأ فراغها. لم يكن عمل البيت كافياً لملء الفراغ فهناك غرفتان فقط، ولايوجد فناء لتعنى به أو تتمشى فيه كانت النساء في المدينة يلبْسنَ أحذية ذات كعوب عالية. وعندما حاولت بولين أن تلبسها ازداد الوضع سوءاً، فجرّها لقدمها أصبح عرجاً واضحاً. كان كولي مايزال حنوناً، ولكنه بدأ يقاوم اعتمادها الكامل عليه. وبدأ كلامهما مع بعضهما يقل أكثر فأكثر لم تكن هناك مشكلة بالنسبة إليه في إيجاد أشخاص، وأشياء أخرى ليشغل نفسه بها، فكان الرجال يصعدون السلم دائماً سائلين عنه، وكان سعيداً بمصاحبتهم، تاركاً إياها وحيدة.

لم تشعر بولين بالراحة مع النساء القليلات اللواتي كانت تقابلهن. كن يضحكن منها لأنها لاترتّب شعرها، وعندما حاولت أن تضع مكياجاً على وجهها، مثل مايفعلن، فعلت ذلك بطريقة سيئة، وأدت نظراتهن الغامزة، وضحكاتهن الخافتة بسبب طريقتها في اللبس، وفي الحديث «مثل الأطفال» كما يقلن، إلى زيادة رغبتها في الشراء. وقررت أن تعمل عندما بدأ كولي يتشاجر معها كلما طلبت نقوداً ساعدها عملها بالمياومة على شراء الملابس، وأشياء للشقة، ولكنه لم يكن ذا جدوى لكولي. وبدأ زواجهما يتصدع نتيجة

للشجارات المتكررة لم تكن بولين حينئذٍ أكثر من طفلة صغيرة، وكانت ماتزال تنتظر ذلك الطور من السعادة، يد ذلك الإله الكريم الذي يكون قربها دائماً عندما يصبح طريقها أكثر وحشة، عندها فقط عرفت بوضوح ماذا تعني الوحشة أصبحت النقود محور مناقشاتهما، نقودها لشراء الملابس، ونقوده للشرب، والشيء المحزن هو أن بولين لم تكن تهتم حقاً بالملابس أو المكياج. كانت تريد فقط أن تلقي عليها النساء نظرات الأعجاب في الطريق.

بعد شهور من عملها بالمياومة، وجدت عملاً ثابتاً في بيت عائلة ذات موارد مالية ضئيلة، ولكنها عائلة مدعية وبخيلة.

«أصبح كولي أكثر دناءة، أكثر فأكثر وكان يريد أن يتشاجر معي طوال الوقت. أعطيته كل ما أحصل عليه كنت مضطرة لذلك. ما كنت أفعله هو العمل من أجل تلك المرأة كما يبدو والشجار مع كولي. كنت منهكة، ولكنني استمريت في عملي، ولو أن العمل لتلك المرأة كان أكثر من حماقة. لم تكن تهمني دناءتها كثيراً بقدر سذاجتها. كل العائلة كانت كذلك. لا أحد يتحمل الآخر. ولابد أنك تعتقد أنه في بيت جميل جداً، وبالنقود التي تنهال عليه،فأن أفراد العائلة يستمتعون بصحبة بعضهم البعض. إنها تزجر وتصرخ لأبسط الأشياء. إذا قطع أحد أصدقائها المكالمة معها فانها سوف تبكي. كانت سعيدة بالطبع بامتلاكها تليفون. لم أكن أنا أملك جهاز تليفون. أتذكر مرة أن أخاها الذي أدخلته كلية الطب، أقام حفلة كبيرة ولم يدعها عملت ضجة كبيرة حول ذلك. بقي كل شخص ينتظر التلفون لأيام . واستمرّ الهرج والمرج. سألتني بولين: «ماذا كنت ستفعلين لو أن أخاك أقام حفلة ولم يدعوك؟» فقلت إذا كنت راغبة حقاً بتلك الحفلة فانني. كما أعتقد، سأذهب ولاأهتم برغبته هو. فأصدرت صوتاً بأسنانها وكأن ماقلته هو منتهى الغباء بالنسبة إليها. كل الوقت كنت أفكر كم هي غبية. من أخبرها أن أخاها هو صديقها؟ إن الناس لايحبون بعضهم بعضاً لمجرد أن لهم أماً واحدة. حاولت نفسي أن أحب تلك المرأة، ولكنني لم أستطع أن أحبها.

أحياناً تفعل أشياء جيدة ولكنني لم أستطع أن أحبها. فما أن أشعر تجاهها شعوراً طيباً حتى تقوم بفعل أشياء تجهلها، ومع ذلك تخبرني كيف أقوم بعملي وكيف أنظف. إذا تركتها وشأنها فأنها ستغرق بالقذارة. لم أكن مضطرة أن التقط الأوساخ التي يخلفها «تشيكن» و «باي»، كما أنا مضطرة الآن. لاأحد منهم يعرف جيداً كيف يمسح مؤخرته، أعرف ذلك لأنني أقوم بالغسل. وزوجها لايعرف كيف يتخلص من فضلاته دون أن يلوث الحمام. الناس البيض القذرون يحومون حول الأشياء الأكثر قذارة. كنت أنتظر مجيء كولي. الذي سيبدأ سبابه، أتى سكران يريد بعض المال. عندما رأته تلك المرأة البيضاء أحمر وجهها. حاولت أن تتظاهر بأنها قوية، ولكنها كانت خائفة جداً. وعلى أية حال، طلبت من كولي أن يخرج وإلا طلبت الشرطة. لعنها وبدأ يجرّني. كان بإمكاني أن أهشّم رأسه، ولكني لم أرد أن تتدخل الشرطة ولذلك أخذت أشيائي وغادرت. حاولت أن أعود، ولكنها قالت أنها لاتريدني في حالة بقيت مع كولي، وإنها ستدعني أبقى إذا تركت كولي. فكرت بذلك. من الغباء أن تترك امرأة سوداء رجلا أسود لأجل امرأة بيضاء. لم تعطني حتى الأحد عشر دولاراً المدينة بها لي. آلمني ذلك كثيراً. قطعوا الغاز عني، ولم أستطع طبخ أيّ شيء. لقد توسلت فعلاً لتلك المرأة لتعطيني نقودي، ذهبت لأراها. كانت ترتعش من الغضب مثل دجاجة مبتلة. واستمرت تقول لي أني مدينة لها ببذلات وسرير قديم مكسور كانت قد أعطتني إياه.. لم أعرف إذا كنت مدينة لها أم لا ولكني كنت بحاجة إلى المال لم تعطني أي شيء منه حتى عندما وعدتها بأن كولي لن يأتي إلى بيتها ثانية فقدت الأمل، فطلبت منها أن تقرضني هذا المبلغ ظلت هادئة لفترة، ثم أخبرتني بأنه لاينبغي أن أسمح لرجل باستغلالي بهذا الشكل، وأنني ينبغي أن أحترم نفسي أكثر، وأنه من واجب زوجي أن يدفع المصروفات، وإذا لم يستطع، فعليّ أن أتركه وأحصل على النفقة، وغير ذلك من هذا الهراء. هل سيدفع لي النفقة؟ إنها لم تفهم بأن كلّ ما أحتاجه منها دولاراتي

الأحد عشر لأدفع للرجل الذي يبيع الغاز حتى يكون بامكاني أن أطبخ. لم يستطع رأسها الثخين أن يفهم هذا الشيء البسيط. «هل ستتركين يابولين؟» ظلت تقول لي. وظننت أنها ستعطيني نقودي إذا قلت لها أني سأفعل. فقلت لها: «نعم يامدام». فقالت: «حسناً. اتركيه، وعودي للعمل، وسندع الماضي للماضي». فقلت: «هل أستطيع أن أحصل على نقودي الآن؟» فقالت: «لا، فقط عندما تتركينه. أنا أفكر فيك، وفي مستقبلك فقط. مانفعه، مانفعه لك يابولين؟» كيف يمكنك أن تجيب امرأة مثلها، لاتعرف ماالنفع من رجل، وتقول من زاوية فمها أنها تفكر في مستقبلك ولكنها لاتعطيك فلوسك كي تشتري بها شيئاً إلى جانب النقانق لتأكل؟ ولذلك قلت: «لا، لانفع منه يامدام، لانفع منه. ولكن نفس الشيء، وأعتقد أنه من الأفضل أن أبقى معه». فانتصبت واقفة، وغادرت أنا. عندما أصبحت في الخارج، شعرت بالألم في أعلى الساقين، فضممت رجلاي معاً بقوة محاولة أن أجعل تلك المرأة تفهم ولكنها، كما أتذكر الآن، لم تستطع أن تفهم. كانت متزوجة من رجل ذي شق في وجهه بدلاً من الفم «إذن كيف بإمكانها أن تفهم؟»

في شتاء ما، اكتشفت بولين أنّها حامل. وعندما أخبرت كولي أدهشها سروره بذلك. بدأ يشرب أقل، ويلازم البيت أكثر. وأحسّا بالاسترخاء ثانية في علاقة تشبه علاقتهما أيام زواجهما الأولى. كان يسألها إذا كانت متعبة أو أنها تريده أن يذهب إلى المخزن ليجلب لها شيئاً. توقفت بولين، في فترة الاسترخاء هذه، عن عملها بالمياومة، وعادت للاهتمام بشؤون البيت. ولكن الوحدة في تانك الغرفتين لم تنته. فعندما سقطت أشعة الشمس القوية على الصبغ الأخضر المتقشّر لكراسي المطبخ، وعندما كان الشراب في القدر يغلي، وكان كل ماتسمعه هو صوت الشاحنة التي تنقل الأثاث تحتهم، فكرت بالعودة إلى مسقط رأسها، وفكرت كم كانت وحيدة أيضاً معظم الوقت حينها، ولكنها وحدة مختلفة. ثم توقفت عن التحديق في الكراسي الخضراء، وفي عربة نقل البضائع. وبدلاً من ذلك، ذهبت إلى السينما. هناك، في الظلام، انتعشت ذاكرتها، واستسلمت لأحلامها الأولى.

ومع فكرة الحب الرومانسي، تعرفت إلى فكرة أخرى ـ الجمال الجسدي ـ قد تكون هاتان الفكرتان هما الأكثر تدميراً في تاريخ الفكر الانساني. كلتاهما نشأتا في الحسد، وازدهرتا في انعدام الأمان، وانتهيتا بخيبة الأمل، بوضعها الجمال الجسدي على قدم المساواة مع الفضيلة، تجردت من عقلها، قيدته، وجمعت احتقارها لذاتها كومة بعد كومة. لقد نسيت الشهوة، وأدنى اهتمام بها، واعتبرت الحب امتلاكاً جنسياً للآخر، والرومانسية هدفاً للروح. سيكون بالنسبة لها ينبوعاً تغرف منه الانفعالات الأكثر تدميراً، خداع المحبّ، والسعي إلى سجن المعشوق وتقليص حريته بكل طريقة.

لم تعد قادرة، بعد الدروس التي تعلمتها من السينما، أن تنظر إلى أيمّا وجه إلا وتحدد صنفه في مقياس الجمال المطلق، وهذا المقياس تشربت به بشكل كامل من الشاشة الفضية، هناك، أخيراً، الغابات المعتمة، والطرقات الموحشة، وضفاف النهر، والعيون الوديعة الفطنة، أصبح الناقصون كاملين، أبصر العميان، ورمى الكسيحون والعرجُ عكازاتهم، هناك مات الموت، وشارك كل الناس في جوقة الموسيقى. هناك امتزجت الصور بالأبيض والأسود لتشكّل وحدة كاملة مهيبة ـ كل ذلك ظهر أمامها من خلال شعاع الضوء المسلّط من الأعلى والخلف.

إنها متعة بسيطة حقاً، ولكنها تعلمت هناك كل ماستحبه وكلّ ماستكرهه.

«يبدو أن الوقت الوحيد الذي كنت أحس فيه بالسعادة هو وقت ذهابي إلى السينما. كنت أذهب مبكرة، قبل أن يبدأ العرض. كانوا يطفئون الأنوار، فيصبح كل شيء أسود، ثم تضيء الشاشة، فتثير الصور مشاعري مباشرة، الرجال البيض يعتنون جيداً بنسائهم، وكلهن يظهرن مرتديات ملابس رسمية في بيوت كبيرة نظيفة مزودة بحوض استحمام في نفس الغرفة مع التواليت. كانت صورهن تمنحني سعادة كبيرة، ولكنها تجعل عودتي إلى البيت صعبة، وتجعل رؤيتي لكولي صعبة، لاأعرف، أتذكر ذهبت مرة لمشاهدة كلارك غيبل، وجين هارلو،

رتبت شعري مثلما رأيتها في مجلة، مفرق على جانب الرأس، وغُرّة على الجبين، بدت مثل غرتها تماماً، حسناً، مثل غرتها تقريباً على أية حال، جلست لمشاهدة العرض وشعري مرتب بتلك الطريقة، واستمتعت بوقتي. وظننت أني سأشاهده إلى النهاية، وقمت لأشتري بعض الحلوى، عدت ثانية إلى مقعدي، قضمت قطعة كبيرة من الحلوى، فانخلع معها سناً أمامياً من أسناني، أحسست أنني سوف أصرخ كنت أملك أسناناً سليمة، ولايوجد أي سن منخور في أسناني. لم أعتقد قط أن ذلك قد يحصل لي. هذي أنا، حاملة في شهري الخامس، أحاول أن أبدو شبيهة بجين هارلو، فيسقط سني الأمامي، انتهى كل شيء. لم أعد أهتم أن أبدو شبيهة بأيّ كان. أعدت شعري لطبيعته، وضفرته، وتركته لقبحه. كنت ما أزال أذهب إلى السينما، رغم ذلك، ولكنّ كولي ازداد دناءة، أردت استعادة سني لكزني كولي ساخراً مني، وعدنا نتشاجر من جديد، حاولت أن أقتله. لم يضربني بقوة لأني كنت حاملاً كما أعتقد، ولكنّ الشجارات، ما أن بدأت ثانية، حتى استمرت. جعلني أزداد جنوناً أكثر من السابق، ولكني لاأستطيع أن أتخلى عنه. حسناً، هناك الطفل - ولد - وإضافة إلى ذلك أنا حامل بطفل آخر. ولكن الأمر لم يجر كما أردت.. إني أحبهم، كلهم كما أعتقد. ولكنهم ملأوا حياتي هموماً، ربما بسبب المال، وربما بسبب كولي، فأجد نفسي أحياناً أصرخ فيهم وأضربهم، ثم أشعر بالأسف من أجلهم، ولكني لم أستطع كما يبدو أن أتوقف عندما ولدت الطفل الثاني، فتاة، أتذكر أني قلت أني سأحبها مهما يكن شكلها. كانت تشبه كرة سوداء من الشعر، لاأتذكر أني أردت أن أحبل في المرة الأولى. ولكني في المرة الثانية حاولت فعلاً أن أحبل، ربما لأني كنت قد أنجبت طفلا، ولم أعد خائفة أن أفعل ذلك مرّة أخرى. وعلى أية حال، كنت بحالة جيدة، ولم أفكر بالحمل، وإنما بالطفل فقط. اعتدت أن أتحدث معه وهو ما يزال في رحمي. كنا مثل صديقين حميمين أنتم تعرفون. كنت أنشر الغيسل، وأنا أعرف أن حمل أي ثقل مضر له، كنت أقول له إنتظر الآن حتى أنشر هذه البسط

الجديدة، لاتكن كالضفدع، سأنتهي سريعاً، فيكفّ عن قفزاته. وأحياناً أخلط عدة أشياء في القدر للطفل الآخر، ولكني استمر في الحديث إليه حتى في هذه الحالة. أنتم تعرفون. حديث أصدقاء. من البداية حتى النهاية كنت أشعر شعوراً طيباً بخصوص ذلك الطفل. ذهبت إلى المستشفى حين حان الوقت حتى تكون الولادة مريحة. لم أرد أن ألد في البيت مثلما فعلت مع الولد. وضعوني في غرفة كبيرة مع عدد كبير من النساء، أتى المخاض ولكنه لم يكن مؤلماً كثيراً، أتى طبيب عجوز ليفحصني. كان يملك كل أنواع الأشياء. لبس قفازاً في يده، ووضع نوعاً من الجلي عليها، ثم حشرها بين ساقيّ. عندما غادر أتى أطباء آخرون، واحد عجوز والآخرون شباب. كان الطبيب العجوز يعلّم الشباب، ويريهم كيف يعملون مع الأطفال. عندما اقترب مني قال لهم هذي نساء لاتصادفون معهن أية متاعب. أنهن يلدن مباشرة دون ألم مثل الخيول تماماً. ابتسم الأطباء الشباب ابتسامات خفيفة. نظروا إلى بطنيّ وبين ساقيّ. لم يقولوا أيّ شيء لي. واحد فقط نظر إليّ. أعني نظر إلى وجهي. نظرت بدوري إلى وجهه مباشرة فاخفض عينيه وأحمرّ وجهه. ربما عرف اني لن ألد مهراً كالحصان. ولكن الآخرين لم يعرفوا. مضوا وسمعتهم يتحدثون مع نسائهم البيض: «كيف حالكنّ؟ ستلدن توائم؟» كانوا يمزحون فقط. حديث ودود لطيف. أصبحت عصبية جداً. وفرحت عندما ازدادت آلامهن، فرحت لأنه كان هناك شيء آخر أفكر فيه. صدر مني أنين مرعب. لم يكن الألم بهذه الدرجة، ولكني أردت أن يعرف هؤلاء الناس أن انجاب طفل هو أكثر من مجرد حركة في الأحشاء. تألمت مثل نسائهم البيض تماماً، فإذا كنت لم أتلوّ وأصرخ من قبل، فهذا لايعني إنني لم أشعر بالألم. ماذا يعتقدون؟ لأنني أعرف أن أنجب طفلاً بلا ضجة، فإن أردافي لا تقتلع وتوجعني مثل أردافهم؟ إضافة إلى ذلك، فإن ذلك الطبيب لايعرف عما يتحدث. لابد أنه لم ير مهر فرس قط. من يقول أنها تلد دون ألم؟ ألأنها لا تصرخ فقط؟ لأنها لا تستطيع أن تعبّر عن ألمها يعتقدون أنه غير موجود؟ لو ينظرون إلى عينيها ويرون مقلتيها

كيف ترتخيان، ويرون نظراتها الحزينـة، فسوف يعرفـون. علـى أيـة حال، ولدت. طفلة كبيرة بصحة جيدة. بدت مختلفـة عما فكـرت بـه، أتذكر أني تحدثت إليها كثيرا قبل أن استحضر في خيالي صورتها ولذلك عندما رأيتها بدا الأمر مثلما تنظر إلى صورة أمك عندما كانت طفلة صغيرة. أنت تعرف من هي، ولكنها لاتبدو نفسها. ناولوني إياها لأرضعها، فبدت وكأنها تريد أن تنتزع حلمة الثدي فورا. أمسكت به بسرعة. ليس مثل سامي الذي كان أصعب أطفالي في الرضاعة. بدت بيكولا وكأنها تعرف ماذا تفعل. كانت طفلة ذكية. أعتدت أن أراقبها، أنتم تعرفون، أنهم يصدرون أصواتاً تدل على الشره. العينان لطيفتان نديتان. تهجين بين جرو وانسان يموت. عرفت أنها قبيحة. الرأس مليء بشعر جميل، ولكنها، ياإلهي، قبيحة».

عندما كان سامي وبيكولا ما يزالان صغيرين، عادت بولين للعمل إنها أكبر الآن، ولاتملك وقتاً للسينما والأحلام. حان الوقت لأن تجمّع كل الأجزاء معاً، وتجد الترابط الذي كان مفقوداً. فرض الأطفال هذه الضرورة، وهي، نفسها، لم تعد طفلة. لقد كبرت. وعمليه صيرورتها تشبه صيرورة معظمنا: نمت كراهية للأشياء التي تربكها أو تعوّقها، واكتسبت الفضائل التي من السهل المحافظة عليها، وحددت لنفسها دوراً في نظام الأشياء، وعادت إلى تلك الأوقات البسيطة لتشعر بالرضا.

لقد اضطلعت وأقرت بمسؤوليتها الكاملة عن إعالة العائلة، وعاودت للذهاب إلى الكنيسة. انتقلت، أولاً، من تلك الغرفتين إلى طابق أول فسيح في بناية بُنيت أساساً كمخزن. وعاشت هناك مع نساء يحتقرنها، لأنها كانت أكثر أخلاقية منهن. وانتقمت لنفسها من كولي من خلال دفعه للانغماس أكثر في حالة الضعف التي تكرهها. التحقت بكنيسة حيث كانت تُطلق صرخات الاستنكار، وخدمت في مكتب المالية وأصبحت عضواً في حلقة نسائية. وفي اجتماعات الصلاة كانت تئن وتندب سلوك كولي، وتأمل من الله أن يساعدها في حماية الأطفال من خطايا الأب. توقفت عن قول «جُهّال» وأصبحت تقول «أطفال» بدلاً من ذلك. سقط لها سنّ ثان،

وكانت تشعر بالغضب من النساء اللواتي يملأن وجوههن بالأصباغ، ويفكرن بالملابس والرجال فقط. حملت كولي، الذي تعتبره نموذجاً للخطيئة والفشل، مثل تاج من الشوك، وحملت أطفالها مثل صليب.

وجدت، لحسن حظها، عملاً ثابتاً في منزل عائلة ثرية أفرادها عطوفون، متفهمون وكرماء. كانت تنظر إلى بيوتهم. تشمّ رائحة الكتان، تلمس ملابسهم الحريرية، وكانت تحبّ كل ذلك: ثوب نوم الطفل القرنفلي، أكداس من أكياس المخدّات البيضاء المطرّزة الحواف، الملاءات ذات الحواشي المرسوم عليها القَنْطَرْيون العنبري(*) الأزرق. أصبحت مايسمّونه «خادمة مثالية»، لأن هذا الدور قد سدّ، عملياً، كل حاجاتها. عندما كانت تحمّم الطفلة الصغيرة «فيشر»، فإن ذلك كان يتم في حوض استحمام من الخزف الصيني ذي حنفيات فضية تجري فيها كميات لامتناهية من الماء الحار الصافي، وكانت تجفّفها بمناشف بيضاء، وتلبسها ثياب نوم سميكة، ثم تمشّط الشعر الأصفر مستمتعة بتموجه وانسيابه بين أصابعها. لا حوض استحمام من زنك، ولا دلواً من الماء المغلي على موقد، ولامناشف خشنة مرّمدّة تترك زغباً على الجسم، تُغسل في مغسلة المطبخ، وتجفف في باحة الدار الخلفية المغبّرة. توقفت عن محاولاتها في الاهتمام بشؤون بيتها، فكل الأشياء التي تمكنت من شرائها، وكانت رديئة الشكل والنوع، لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما استهلكت في ذلك البيت الحقير. أهملت بيتها أكثر فأكثر، وأولادها وزوجها، أصبحوا مثل الأفكار المتأخرة التي يفكر فيها المرء قبل النوم فقط، وفي الصباح الباكر، ونهايات المساء، النهايات المعتمة التي تجعل حياتها في النهار مع عائلة «فيشر» تبدو أخفّ، وأرقّ، وأجمل. هنا تستطيع أن تنظم الأشياء، تنظف الأشياء، تصف الأشياء في صفوف مرتبة. هنا تستطيع أقدامها أن تتنقلّ من مكان لآخر على سجاجيد ذات وبر طويل. هنا وجدت الجمال، والنظام، والنظافة، والثناء.

قال السيد فيشر مرة: «أن قناعتها لكنز».

(*) القنطريون العنبري: نبات من الفصيلة المركّبة.

أصبحت حاكمة على خِزانات مكدّس فيها إلى أعلاها طعام لن يؤكل لأسابيع وحتى لأشهر. وكانت ملكة على خضراوات معلّبة تشترى بالصناديق، وأقراص سكّرية وحلوى بأشرطة ملونة في أطباق فضية صغيرة.

وبدأ الدائنون وأصحاب المصالح الذين كانوا يذلّونها عندما تذهب إليهم باسمها يحترمونها، وحتى يرهبونها حين تتحدث باسم عائلة فيشر. كانت ترفض لحم البقر إذا كان مسوداً قليلاً، أو غير مقطّع بشكل مناسب، وأصبحت ترمي السمك الذي تفوح منه، قليلاً رائحة عفنة، والذي كانت تقبل به لنفسها، في وجه صاحبه إذا أرسله إلى بيت فيشر، أصبحت القوة، والثناء، والرفاهية ملكها في هذه الأسرة.

لقد منحوها مالم تحصل عليه من قبل قط: اسم تحبب ـ بولي ـ وكانت سعادتها أن تجلس في المطبخ في نهاية اليوم لتقييم العمل الذي أنجزته، عارفة أن هناك دزينة من قطع الصابون، وشريحة من لحم الخنزير، وتجد متعة بالغة في رؤية القدور والمطاوي اللامعة، والأرضية المجلية، سامعة حديثهم وهم يقولون: «لن نسمح لها بتركنا أبداً. لن نستطيع أن نجد واحدة مثلها أبداً. إنها لاتترك المطبخ حتى يكون كل شيء في مكانه حقاً، إنها الخادمة المثالية».

احتفظت بولين بهذا النظام، بهذا الجمال لنفسها، عالم خاص لم تقدّمه قط إلى بيتها أو أطفالها الذين فرضت عليهم وجوب الاحترام، وبفعل ذلك علمتهم الخوف: الخوف من أن يتصرفوا بشكل أخرق، الخوف من أن يكونوا مثل أبيهم، الخوف من أن لايحبهم الله، الخوف من أن يجُنّوا مثل أم كولي قهرت. في داخل ابنها الرغبة العميقة بالهرب، قهرت في داخل ابنتها الخوف من النضوج، والخوف من الآخرين، والخوف من الحياة.

كل معنى حياتها كان في عملها. وحافظت جيداً على فضائها، فقد استمرت تقوم بواجباتها الدينية بنشاط لم تدخن، أو تشرب، أو تتهتك. دافعت عن نفسها بقوة ضد كولي، حاولت أن تسمو عليه في كل شيء، كانت تشعر أنها تقوم بدورها كأمّ وفق مايمليه عليها ضميرها، حين تشير

إلى عيوبه حتى يتجنبوها، وكانت تعاقبهم عندما يبدر عنهم أي إهمال مهما كان طفيفاً، فهي تعمل ست عشرة ساعة من أجلهم. العالم كله يتفق معها في ذلك.

لكنها كانت تفكر أحياناً، أحياناً فقط، وبشكل نادر، بالأيام الخوالي، وكيف تحوّلت حياتها. كانت تأملات فقط، أفكاراً عقيمة، مليئة أحياناً بتلك الأحلام القديمة، ولكنها ليست من نوع تلك الأشياء التي تهتم بإمعان النظر فيها.

«كنت على وشك أن أتركه مرة. ولكن شيئاً قد حدث. مرة بعد أن حاول أن يحرق البيت، قررت أن أتركه. الآن لا أتذكر حتى مامنعني من ذلك. نغّص عليّ معظم حياتي. ولكن الأمور لم تكن سيئة تماماً. أحياناً يدخل إلى السرير غير سكران كثيراً. أتظاهر بالنوم لأن الوقت متأخر، ويأخذ من محفظة يدي ثلاثة دولارات في ذلك الصباح أو أيّ مبلغ. أسمعه يتنفس. ولكني لا أنظر إليه، أستطيع أن أتخيل ذراعيه السوداوين خلف رأسه، العضلات مثل صخور شاطىء ضخمة مغطاة بالرمل، بعروق تجري مثل أنهار صغيرة ترتفع مياهها وتنخفض. دون أن ألمسه أحس بذلك الارتفاع المتطاول على أطراف أصابعي. أرى راحتي كفيه تتصلبان مثل الغرانيت، والأصابع الطويلة تنعقف ثم تهمد. أفكر بشعر صدره الكثيف المليء بالعقد، وبالانتفاخين الكبيرين الناشئين عن عضلات صدره. أريد أن أفرك وجهي بقوة على صدره حتى يمزّق شعره جلدي. أعرف تماماً أين تقل كثافة الشعر ـ فوق سرته تماماً ـ ثم يستعيد نشاطه وينتشر. ربما يغيّر موضعه قليلاً، فتلامسني ساقه، أو أشعر بخاصرته تمسّ ردفيّ مساً خفيفاً. لا أتحرك مع ذلك. ثم يرفع رأسه، وينقلب، ويضع يده فوق خصري إذا لم أتحرك، فسوف يحرك يده ليسحب ويدلك بطني. بنعومة وبطء. لا أتحرك لأني لاأريده أن يتوقف. أرغب أن أتظاهر بالنوم. وأجعله يستمر بتدليك بطني. ثم سيحني رأسه ويعض حلمتي، ثم لا أريد منه أن يستمر بتدليك بطني أكثر. أريده أن يضع يده بين ساقيّ. أتظاهر بانني استيقظ، واستدير إليه

ولكني لا أفتح عينيّ. أريده أن يفتحهما لي. يفعل ذلك، فأشعر بالنعومة والرطوبة في الأماكن التي تلمسها أصابعه القوية الصلبة. أصبح أكثر نعومة من أيّ وقت مضى. كل قوتي بين يديه. يلتفّ ذهني مثل أوراق ذابلة. إحساس مضحك. فارغ أحسه بين يديّ. أريد أن أقبض على أي شيء، فأمسك برأسه تحت ذقني. ثم لاأريد يده بين ساقيّ أكثر، لأنني أصبحت ليّنة تماماً. أمدّ ساقيّ مفتوحتين، يصبح فوقي. ثقيل جداً لأحمله، وخفيف جداً لأن أمسك به. يضع شيئه داخلي. داخلي. داخلي. لففت قدميّ حول ظهره حتى لايفلت مني. وجهه قرب وجهي. أصوات زنبركات السرير كأصوات الصراصير العائدة إلى مأواها، يضع أصابعه بين أصابعي، ونمدّ أذرعنا مثل يسوع على الصليب».

انتظر مشدودة. أصابعي وأقدامي تنتظر مشدودة، لأن كل شيء آخر قد انهار، انهار. أعرف أنه يريدني أن أنتهي قبله. ولكني لاأستطيع. ليس قبل أن ينتهي هو. ليس قبل أن أشعر أنه يحبني. أنا فقط. يغوص في داخلي. ليس قبل أن أعرف أن جسدي هو وحده كل ماهو موجود في ذهنه، وأنه لايستطيع أن يتوقف حتى لوكان مضطراً لذلك. وأنه يفضّل أن يموت على أن يخرج شيئه من داخلي. من داخلي. ليس قبل. ليس قبل أن يدع كل مايملكه يدخل في داخلي، ويمنحه لي. لي. عندما يفعل ذلك أشعر بالقوة. أصير قوية، أصير جميلة، أصير شابة، ثم أنتظر. يرتعش، ويتمايل رأسه. أنا الآن قوية كفاية، جميلة كفاية، وشابة كفاية لأدعه يجعلني أنتهي، أسحب أصابعي من بين أصابعه، وأضع يديه خلفه. تسقط ساقاي ثانية على السرير. لاأعمل أيّ ضجيج لأن الأطفال قد يسمعون. أبدأ أشعر بتلك الكسَر من الألوان تطفو داخلي ـ عميقاً في داخلي ـ الشريط الأخضر لحشرات حزيران المضيئة، سائل التوت القرمزيّ يسيل قطرة قطرة على فخذيّ. شراب ليمون أمي الأصفر يجري لذيذا في داخلي. أشعر وكأنني أضحك بين ساقيّ. وأن ضحكاتي كلّها تمتزج مع الألوان. وأخاف أن أنتهي وأخاف أن لا أنتهي. ولكني أعرف أني سأنتهي. وسيكون هناك قوس قزح في داخلي. سيبقى

طويلاً، طويلاً، طويلاً. أريد أن أشكره، ولكن لاأعرف كيف. فاضربه بلطف كما أضرب طفلاً. يسألني هل أنا علي مايرام، فأقول له نعم. يترجل عني ويتمدد لينام. أريد أن أقول شيئاً، ولكني لا أفعل. لاأريد أن انتزع من ذهني قوس القزح. ينبغي أن أنهض، وأذهب إلى التواليت، ولكني لاأفعل. كولي نائم وساقه فوقي. لاأستطيع أن أتحرك ولاأريد.

«ولكن الأمر لم يعد هكذا. أغلب الأوقات يشق طريقه إلى داخلي قبل أن أستيقظ، أو بين بين. وفي الأوقات الأخرى لاأستطيع حتى أن أتمدد قرب جسده المخمور النتن. ولكني لم أعد اهتم بذلك. سيرعاني خالقي. أعرف أنه سيفعل. أعرف أنه سيفعل. إضافة إلى أن الأمر لم يعد يهمني في هذه الأرض الفانية. لابد أن هناك سعادة في السماء. الشيء الوحيد الذي افتقده أحياناً هو قوس القزح، ولكني لم أعد أتذكر ذلك كثيراً».

انظر إلى الأب إنه كبير وقوي أيها الأب
هل تلعب مع جانيت الأب
يبتسم ابتسم أيها الأب ابتسم

عندما كان عمر كولي أربعة أيام، لفّته أمه ببطانيتين وجريدة، ووضعته على مزبلة قرب السكة الحديدية، ولكن عمة أمه جيمي، التي رأت ابنة أخيها تخرج من الباب الخلفي حاملة رزمة، أنقذته. ضربتها بالنطاق ولم تسمح لها بالاقتراب من الطفل بعد هذه الحادثة. ربّت العمة جيمي الطفل بنفسها، وكانت تشعر بالسرور أحياناً حين تخبره كيف أنقذته. فهم منها أن أمّه ليست سليمة العقل، ولكنه لم يملك الفرصة قط ليكتشف ذلك بنفسه، لأنها هربت بعد حادثة النطاق بوقت قصير، ولم يسمع عنها أحد شيئاً منذ ذلك الوقت.

كان كولي يشعر بالجميل تجاهها لأنها أنقذته، ماعدا بعض الأوقات. في هذه الأوقات عندما كان يراقبها وهي تأكل اللفوف بأصابعها، كاشفة عن أسنانها الذهبية الأربع، وعندما كان يشمّ رائحة «أسافيتيدا» التي تضعها في كيس في رقبتها(*) أو عندما تجعله ينام معها في الشتاء طلباً للدفء فيكون بإمكانه أن يرى نهديها المترهلين متدليين تحت ثوب النوم، عندها كان يتساءل إذا كان من الأفضل له لو أنه مات هناك. مسحوقاً بعجلة تحت سماء جيورجيا السوداء.

مضت عليه أربع سنوات في المدرسة قبل أن يملك الشجاعة ليسأل العمة جيمي من هو أبوه وأين هو. «ابن فولر ذاك» نعم أعتقد أنّه كان ابنه. كان يتسكع هنا وهناك، ولكنه سرعان مارحل سريعاً قبل أن تولد. أعتقد أنه رحل إلى ماكون. هو أو أخوه. ربما الاثنان. سمعت مرّةً الرجل العجوز فولر يقول شيئاً حول ذلك.

(*) : مادة صمغية تستل من الأشجار عند قطعها أو جرحها وتستخدم في الطب الشعبي.

«ماذا كان اسمه؟»

«فولر، فوليش..»

«أعني اسمه الأول؟»

«أوه». أغلقت عينيها لتفكر، ثم تنهدت: «لم أعد أستطيع أن أتذكر هل كان سام؟ نعم، صموئيل. لا. لم يكن اسمه صموئيل. كان اسمه سامسون. سامسون فولر».

وسأل كولي بصوت منخفض: «كيف اتفق أنكم لم تسموني سامسون؟»

«لماذا؟ عندما ولدت لم يكن أبوك موجوداً. ولم تسّمك أمك بأي اسم وقبل أن تكمل أيامك التسعة رمتك أمك فوق كومة النفايات تلك. وعندما التقطتك سميتك أنا باسم أخي الميت تشارلز بريدلوف. كان رجلاً طيباً اسم سامسون ليس فيه بركة»

لم يسأل كولي أي سؤال آخر.

بعد سنتين ترك المدرسة، واشتغل في مخزن للحبوب يملكه شخص يدعى «تايسون». كان يكنس، ويقوم بحمل السلع إلى الزبائن، ويزن الأكياس، وينقلها إلى عربات النقل، وأحياناً يدعونه يركب مع سائق العربة. وهو رجل عجوز لطيف يدعى بلوجاك. اعتاد بلوجاك أن يروي له قصصاً من الزمن الغابر، كيف استقبل إعلان إلغاء الرق، وكيف أخذ السود يصيحون ويصرخون ويغنون، وكذلك قصصاً عن الأشباح، وكيف قطع رجل أبيض رأس زوجته ودفنها في مستنقع، وكيف خرج الجسم المقطوع الرأس في الليل، وأخذ يتعثر هنا وهناك، ويتخبط لأنه لايستطيع أن يرى، صارخاً طوال الوقت من أجل قبر. تحدثا عن النساء اللواتي عاشرهن بلو، والمعارك التي خاضها عندما كان شاباً، وكيف تخلص مرة من الإعدام بشطارته بينما أعدم الآخرون.

أحب كولي بلو، وظلّ، بعد أن أصبح رجلاً، يتذكر لوقت طويل تلك الأوقات الطيبة التي قضياها معاً، وما حدث في الرابع من تموز حيث رأيا عائلة كانت في نزهة نظمتها الكنيسة، تهم بكسر بطيخة حمراء. تجمعّ

بضعة أطفال ليراقبوا العائلة. وكان بلو يحوم حول الدائرة ـ ابتسامة توقع خفيفة كانتْ تضفي نعومة على وجهه. رفع الأب البطيخة عالياً فوق رأسه فبدت ذراعاه الكبيرتان الطويلتان أطول من الأشجار بالنسبة لكولي، وحجبت البطيخةُ الشمس، بطولِهِ، ورأسه الممتدّ إلى أمام، وعينيه المركزتين على صخرة، وذراعيه الأطول من أشجار الصنوبر، وكفيه اللتين تحملان صخرة ـ توقف للحظة ليهيء حمله ويحكم التسديد. شعر كولي، الذي كان يراقب صورته المطبوعة على صفحة السماء الزرقاء المشرقة، بالبثرات المنكمشة تندفع فجأة على ذراعيه وعنقه. وتساءل فيما إذا كان الاله يبدو كذلك. كلا الإله رجل عجوز أبيض لطيف، بشعر أبيض طويل، ولحية بيضاء متدلية، وعينين زرقاوين تحزنان حين يموت الناس ويشعر بالخجل حين يكونون سيئين. لابد أن الشيطان يبدو كذلك، حاملاً العالم بين يديه، مستعداً أن يقذف به إلى الأرض، ويُسقط من عَل أحشاءه الحمراء حتى يستطيع أن يأكل الزنوج الأحشاء اللذيذة الدافئةً إذا كان الشيطان كذلك، فإن كولي يفضله. لم يفكر، من قبل، بالرب قط. فكرة الشيطان فقط أثارته. والآن فان الشيطان القوي، الأسود هو الذي يحجب الشمس مستعداً أن يمزّق العالم.

بعيداً عنهم كان شخص ما يعزف الهارمونيكا. أنسابت الموسيقى فوق حقول القصب وبساتين الصنوبر، وإلتفت حول جذوع الأشجار، مازجة نفسها مع شذى الصنوبر، فلم يعد بإمكان كولي أن يعرف الفرق بين الصوت والعطر المهوّمين حول رؤوس الناس.

ضرب الرجل البطيخة على حافة صخرة. صرخة خفيفة من خيبة الأمل ترافقت مع القشرة المكسورة. كان الكسر سيئاً. انثلمت البطيخة وانتشرت قطع القشرة واللب الأحمر على العشب.

قفز بلو نادباً: «أو، أو، أو، سقط اللب هناك».

كان صوته حزيناً وفرحاً في الوقت نفسه. ونظر كل شخص ليرى قطعة كبيرة حمراء من قلب البطيخة بالذات انطلقت من القشرة، وكمية من البزور تتدحرج على مسافة قريبة من أقدام بلو. انحنى ليلتقطها. دم

أحمر، سطحه المستوي معتم، مليء بالعذوبة، ذو حواف صلبة يحيطها العصير. واضح جداً، وداعر تقريباً، في الشهوة التي يعد بها.

ضحك الأب: «هيا يابلو. بإمكانك أن تأخذها».

ابتسم بلو وابتعد. واندفع الأطفال بسرعة باتجاه القطع المرمية على الأرض. التقطت النساء البزور للأطفال الأصغر سناً، واقتطعنّ كسراً صغيرة من اللب لأنفسهن. فاجأت عينا بلو عيني كولي، وأومأ له:

«هيا يافتى، لنأكل أنت وأنا اللب».

جلسا معاً، الرجل العجوز والفتى، على العشب واشتركا في أكل لب البطيخة، أحشاء الأرض الحلوة المذاق ـ الفاحشة ـ.

حدث في الربيع، في ربيع بارد جداً، أن ماتت العمة جيمي بسبب شراب الدراق المسكر. ذهبت إلى أحد اجتماعات المخيم بعد عاصفة مطرية، فأضر بها خشب الكراسي الرطب. وبعد أربعة أو خمسة أيام ازدادت حالتها سوءاً. أتى الأصدقاء لزيارتها. عمل لها بعضهم شاي البابونج، وآخرون دلكوها. وقرأت الآنسة أليس، صديقتها الحميمة، الإنجيل لها، ولكنها ازدادت ذبولاً. كانت النصائح كثيرة، أن لم تكن متناقضة.

ـ «لاتأكلي بياض البيض».

ـ «اشربي حليباً طازجاً».

ـ «امضغي هذا الجذر».

تجاهلت العمة الكبيرة جيمي كل شيء ماعدا قراءة الإنجيل من قبل الآنسة أليس. كانت تومىء برأسها بإعجاب وهي نعسانة، وكلمات من الرسالة الأولى(*) تطنُّ فوق رأسها. «آمين» تسقط من شفتيها كما لو أنها قد عوقبت على كل خطاياها. ولكن جسدها لم يستجب.

قرروا، أخيراً، أن يجلبوا «مادير» و «مادير» هذه امرأة هادئة تعيش في كوخ قرب الغابة. وكانت قابلة قديرة وخبيرة بتشخيص الأمراض. وكثير من الناس يتذكر بأن«مادير» كانت حاضرة دائماً عند كل حالة مرضية

(*) : إحدى رسالتين كتبهما القديس بولص إلى مسيحيين كورنث باليونان، موجودين في العهد الجديد.

لايمكن التعامل معها بالطرق العادية ــ العلاجات المعروفة، والحدس، والجلد ـ كانت الكلمة دائماً: «احضروا مادير».

عندما وصلنا إلى بيت العمة الكبيرة جيمي، اندهش كولي لمرآها، فهو كان يتصورها دائماً امرأة واهنة القوى، محدودبة الظهر، لأنه كان يعرف أنها امرأة كبيرة السن جداً جداً.

ولكن «مادير» بدت أطول من الواعظ الذي يرافقها. قد يكون طولها أكثر من ستة أقدام، وأضفت أربع عقد بيضاء في شعرها قوة ومهابة على وجهها الأسود الناعم. بدت، وقد وقفت كقضيب معدني، أنها تحتاج عصاها الجوزية ليس للإستناد إليها فقط، وإنما للاتصال أيضاً كانت تنقر بها على الأرض بخفة وهي تنظر إلى وجه العمة جيمي المتغضن. لامست مقبض العصى برفق بإبهام يدها اليمنى، بينما مررت يدها اليسرى على جسد العمة جميمي، وضعت ظهر كفها الطويلة على خدود المريضة، ثم وضعت راحتها على الجبين. مررت أصابعها خلال شعر المرأة المريضة، وحكت، برفق، قشرة الرأس، ونظرت إلى ماكشفته أظافر أصابعها، وبعد ذلك، رفعت يد العمة جيمي، وأمعنت النظر فيها ــ أظافر الأصابع ــ الجلد الأسود، لحم راحة اليد التي ضغطت عليها بأطراف ثلاث من أصابع، ثم وضعت أذنها على صدر وبطن العمة جيني لتتسمع سحبت المرأة، بناء على طلب «مادير» إناء الفضلات من تحت السرير لكي تتفحص البراز، نقرت بعصاها وهي تنظر إليه، ثم قالت: «اطمروا إناء الفضلات وكلّ شيء فيه». وقالت للعمة جيمي: «لقد أصبت بالبرد في رحمك اشربي المرق ولاشيء غيره».

«هل سيزول المرض؟ هل تتحسن حالتي؟»

«أعتقد ذلك».

استدارت «مادير» وغادرت الغرفة، ونقلها الواعظ بعربته إلى بيتها.

ذلك المساء اشترت المرأة عدة سلطانيات من المرق، من البازلاء السوداء، والخردل، والكرنب، والملفوف، واللفت، والشوندر، والفاصولياء الخضراء، وحتى مرقة من لحم خدّ الخنزير.

بعد يومين، دبت القوة في بدنها. وقد لاحظ هذا التحسن الآنسة أليس والسيدة جينز عندما زارتاها. جلست النساء الثلاث يتحدثن عن مختلف أنواع التعاسة التي مررن بها. وكنّ يعدن دائماً إلى الحديث عن حالة العمة جيمي، وماذا بإمكانهن أن يفعلن ليحلن دون استمرار شقائها، وحول نجاعة علاج مادير وعدم احتمال وقوعها في الخطأ. اختلطت الأصوات في لحن حزين من الحنين للماضي. ينهضن ويسقطن، تركيب هارموني، تتفاوت نفحات الصوت، ولكنهن يستمرين في سجعهن عن الألم. تشبّثن بذكرياتهن عن المرض في صدورهن، لحسنّ شفاههن، وقأقأن كالدجاجة في تذكر ملتاع للألم الذي تحملن ـ الولادة، الرماتيزم، الخُناق، ألم المفاصل، آلام الظهر، البواسير، والكدمات التي أُصبن بها وهن يتنقلن في أصقاع الأرض ـ الحصاد، التنظيف، والرفع والطرح، والانحناء والركوع والوقوف على القدمين ـ ودائماً الصغار بين أقدامهن.

ولكنهن كنَّ شابات مرّة. وكانت رائحة آباطهن وأوراكهن تختلط مع رائحة مسك ذكية. كنّ يختلس النظرات، وترتخي شفاههن، ويوزعن الالتفافات الرقيقة برؤوسهن المرفوعة على تلك الأعناق السوداء النحيلة التي لاتشبه إلا أعناق أناث الغزلان. وكانت ضحكاتهن تؤثر في النفوس أكثر من أصواتهن.

ثم كبرن، اندفعن إلى الحياة من الباب الخلفي، صرنَ. تلقين الأوامر من كل شخص في هذه الدنيا، قالت لهن النساء البيض: «افعلن هذا». وقال لهن الأطفال البيض: «ناولنّني هذا». وقال الرجال البيض: «تعالين إلى هنا». وقال الرجال السود: «اضطجعن». والوحيدون الذين لم يحتجن أن يستلمن منهم الأوامر كانوا الأطفال السود، ومن بعضهن البعض. ولكنهن كن يستلمن كل ذلك، ويعدن خلقه في تصورهن الخاص، يدرن شؤون بيوت الناس البيض، وعندما يضرب الرجال البيض رجالهن، يغسلن الدم ويذهبن إلى بيوتهن ليتلقين المعاملة السيئة من قبل الضحايا. يضربن أطفالهن بيد، ويسرقن من أجلهم باليد الأخرى. والأيدي التي تقطع الأشجار، تقطع الحبل السريّ أيضاً. والأيدي التي تنتزع رقاب

الدجاج، وتذبح الخنازير، تمس أيضاً برفق البنفسج الأفريقي في عنفوانـه، والأذرع التي تحمل حزم الحنطة، والرزم الضخمة، والأكياس، هي نفسها التي تهزّ سرير الطفل حتى ينام. يعجنّ ببراءة البسكويت في أشكال بيضاوية رقاقية، ويكفّنّ الموتى، يحرثن طوال النهار، ويعدن إلى البيت ليستكنّ كأشجار البرقوق تحت أطراف رجالهن، والأرجل التي تفرْشخ على ظهر بغل هي نفسها التي تفرْشخ على أوراك رجالهن.

ثمّ كبرن، ترهلت أجسادهن، ونتنت روائحهن، ولكن يحملن عالماً على رؤوسهن وهن يربضن في حقل قصب، أو يتوقفن في حقل قطن، أو يجثين على ضفة نهر. كرسن أنفسهن لحياة أطفالهن، ورعيْن أحفادهن، لففنَ رؤوسهن بأسمال بالية، وأقدامهن باللبّاد. انتهين من الشهوة، وأفراز الحليب، وتجاوزن الدمع والرعب. أصبح بإمكانهن أن يمشين وحيدات في طرق المسيسبي، وأزقة جيورجيا، وحقول الأباما دون أن يزعجهن أحد. كبرن على النزاقة في الوقت والمكان اللذين يخترن، تعبن من التطلع للموت، ولم يعد يهمهنّ تقبّل فكرة الألم بينما يتجاهلن وجود الألم. كن في الحقيقة، وأخيراً، حرّات. تجمّعت حيوات هذه النساء السوداوات العجائز في عيونهن، خليط مركز من التراجيديا والكوميديا، الخبث والصفاء، والحقيقة والخيال.

ثرثرن لساعة متأخرة في الليل. أصغى إليهن كولي ثم نام. لفّته التهويدة الحزينة، أرجحته، وخدرته أخيراً. في نومه تحوّلت الرائحة الكريهة لغائط امرأة عجوز إلى رائحة قوية لبراز حصان، وصمتت أصوات النسوة الثلاث لتحل محلها أنغام عذبة لآلة أكورديون. انتبه، في نومه، إلى أنه مربوط بكرسي، وإن يديه مندستان بين فخذيه. تحوّل عضوه، في حلمه، إلى عصا من خشب الجوز، وكانت اليدان اللتان تداعبانه هما يديّ «مادير».

في إحدى ليالي الشتاء الرطبة، قبل أن تشعر الخالة جيمي بقوة كافية للنهوض من سريرها، جلبت لها «إيسي فوستر» شراب الخوخ. شربت السيدة العجوز قليلاً منه، وفي الصباح التالي، عندما ذهب كولي لافراغ إناء

الفضلات وجدها ميتة. كان فمها مفتوحاً كحرف(O)، ويداها ذات الأظافر الطويلة الحادة كأظافر رجل، التي قلّمتها أخيراً، تستقران رقيقتين على الملاءة نظرت إليه إحدى العينين المفتوحتين وكأنها تقول له: «حاذر ياولد كيف تحمل الإناء». حدق كولي فيها ثانية، غير قادر على الحراك، إلى أن استقرّت ذبابة على زاوية فمها، فضربها بغضب، نظر ثانية إلى العين، ثم امتثل لرغبتها.

كانت جنازة الخالة جيمي هي الجنازة الأولى البيت التي يشارك فيها كولي. وكان محط اهتمام كبير باعتباره فرداً من العائلة وأحد المفجوعين. نظّفت السيدات البيت، وعرّضن كل شيء للهواء الطلق، وأعلمن كل شخص، وقمن معاً بخياطة مايشبه ثوب زفاف أبيض للعمة كولي، كسيدة عذراء، لتلبسه عندما تقابل يسوع. وقمن حتى بخياطة بذلة سوداء، وقميص أبيض، وربطة عنق لكولي. وقام زوج إحداهن بحلاقة شعره. كان محاطاً بحنان مفرط. لم يتحدث أحد معه، بمعنى أنهم تعاملوا مع الطفل الذي كانه، فلم يشركوه في أية أحاديث جادة، ولكن حققوا له، بدون أن يطلب كل الرغبات التي لم تتحقق له يوماً: وجبات تظهر، وماء حار في حوض الاستحمام الخشبي، وملابس نظيفة مكويّة. وعند السهر على الجثة، كان يُسمح له أن ينام، فتحمله أذرع إلى السرير. وفي اليوم الثالث فقط من موتها ـ يوم الجنازة ـ كان عليه أن يشارك في المشهد. أتى أقرباء كولي من البلدات والحقول المجاورة: أخوها «أو. في» وأطفاله وزوجته، وكثير من الأقرباء الآخرين. ولكن بقي كولي هو الشخصية الرئيسة، لأنه كان: «ولد جيمي، آخر شخص أحبته جيمي». ولأنه «الشخص الذي وجدها». كانت عناية النساء المفرطة، وتربيتات الرجال على رأسه، قد أسرّته كثيراً، كما سحرته الأحاديث الحلوة.

ـ «ماسبب موتها؟»

ـ «فطيرة إيسي».

ـ «ماذا تقولين؟»

ـ «نعم، نعم. كانت بصحة جيدة. لقد رأيتها قبل يوم من وفاتها. وطلبت مني أن اجلب لها بعض الخيوط السوداء لترقع ملابس الولد. كان ينبغي أن أعرف أن طلبها خيوطاً سوداء كان علامة».

ـ «بالتأكيد».

ـ «مثل. «أما» بالضبط. ألحتّ في طلب الخيوط. وسقطت ميتة ذلك المساء».

ـ «نعم، لقد كانت مصممة على أخذها».

وظلّت تذكرني بذلك. أخبرتها أني أملك بعض الخيوط في البيت. فأرادتها أن تكون خيوطاً جديدة. ولذلك أرسلت «ليل جون» لتجلب بعضاً منها في ذلك الصباح الذي تمددت فيه ميتة كنت على وشك أن أهيئها لها مع قطعة من كبد العجل. أنت تعرفين كم تحب أكل كبد العجل الذي كنت أبعثه لها.

ـ «نعم، بالتأكيد. كانت دائماً تفاخر به. كانت صديقة حميمة لك».

ـ «بصدق، لم أكد أضع ملابسي عليّ، حتى اندفعت سالي وهي تولول، وأخبرتني كيف أن كولي أتى إلى الآنسة أليس وأخبرها أن الخالة جيمي ماتت. شعرت كأن أحداً ضربني ضربة عنيفة على رأسي».

ـ «لابد أن «إيسي» بحالة سيئة جداً».

ـ «أوه، يا إلهي، نعم. ولكني أخبرتها أن الرب أعطى، والربّ أخذ. ليست غلطتها أبداً. إنها تعمل فطائر خوخ جيدة. ولكنها تعتقد أن الفطيرة هي السبب وأشكّ أنها مُصيبة».

ـ «حسناً، يجب أن لا تُقلق نفسها بصدد ذلك. لقد فعلت فقط مايمكن أن نفعله نحن جميعاً».

ـ «نعم، فإن قطعة فخذ العجل التي لففتها لها يمكن أن تفعل ذلك».

ـ «لا، قطعة فخذ العجل لاشائبة فيها، ولكن الفطيرة هي اسوأ مايمكن أعطاؤه لشخص يحتضر. إني أستغرب أن جيمي لم تعرف ذلك».

ـ «لوكانت تعرف، لما تناولتها».

ـ «لقد حاولت أن تبتهج قليلاً. تعرفين كم كانت بصحة جيدة».

ـ «هل خلفت شيئاً؟»

ـ «ولا حتى منديل جيب. ملكية البيت تعود إلى بعض الناس البيض في «كلاركسغيل» ».

ـ «حقاً؟ كنت أعتقد أنه ملكها».

ـ «ربما كان ملكها وقتاً من الأوقات. سمعت رجال التأمين يتحدثون إلى أخيها تحت».

ـ «كم تبلغ التكاليف؟»

ـ «تبلغ خمساً وثمانين دولاراً، كما سمعت».

ـ «فقط؟»

ـ «أهذا مبلغ كاف لدفنها؟»

ـ «لاأعرف كيف. عندما مات أبي السنة الماضية، في مثل هذا الشهر، نيسان، كلف الدفن مائة وخمسين دولاراً. وبالطبع دبرنا ذلك. والآن على أهل جيمي أن يساهموا بالدفن، فمتعهد دفن السود غير رخيص أبداً».

ـ «ياللعار . كانت تدفع لذلك التأمين طوال حياتها».

ـ «أتعتقدين أني لا أعرف ذلك؟»

ـ «حسناً، وماذا عن الولد؟ ماذا سيفعل؟»

ـ «لا أحد يعرف أين أمه، ولذلك سيأخذه أخ جيمي معه إلى بيته. يقولون أنّه يملك بيتاً جميلاً. في داخله تواليت وكل شيء».

ـ «جيد. إنه يبدو رجلاً مسيحياً طيباً. والولد يحتاج إلى إشراف رجل عليه».

ـ «متى وقت الدفن؟»

ـ «الساعة الثانية. ينبغي أن تكون تحت الأرض عند الرابعة».

ـ «وأين ستكون الوليمة؟ سمعت أن إيسي تريد أن تكون في بيتها».

ـ «ستقيم الآن في بيت جيمي. أخوها يريد ذلك».

ـ «حسناً، ستكون وليمة كبيرة. كل الناس كانوا يحبون العجوز جيمي. وسيفتقدونها بالتأكيد».

في الكنيسة كانت الوليمة عربدة من الفرح بعد الجمال العاصف لمراسيم الدفن. كانت مثل دراما في الهواء الطلق. تنساب بعفوية رقيقة إلى زوايا بناء فخم. كانت الميتة هي البطل التراجيدي، والناجون هم الضحايا الأبرياء. كانت هناك الإلهة ذات العلم الكلي، والستروفة(*)، والستروفة المضادة لجوقة المعزّين بقيادة الواعظ. كان هناك الأسى على ضياع الحياة، و الانشداه المصعوق بطرق الله، واستعادة نظام الطبيعة عند المقبرة. وهكذا كانت الوليمة هي الجذل، والانسجام والتسليم بهشاشة الجسد، والسعادة بانتهاء البؤس. الضحك، والراحة، والنهم للطعام.

لم يدرك كولي إدراكاً كاملاً، بعد، إن خالته قد ماتت. كان كل شيء ممتعاً. ولم يشعر، حتى في المقبرة، بأيّ شيء سوى الفضول، وعندما أتى دوره في الكنيسة ليلقي نظرة على الميتة، مدّ يديه ليلمس الجثة، ليتحقق من أنها باردة كالثلج كما قال الناس، ولكنه سحب يديه بسرعة. بدت الخالة جيمي منعزلة، جداً، وبدا له من الخطأ أن يزعجها في عزلتها. عاد مجهداً إلى كرسيه وعيناه جافتان وسط الزعيق والصراخ المختلط بالدموع، متسائلاً إذا كان ينبغي عليه أن يبكي.

حين عاد إلى بيته، كان حراً في المشاركة في الابتهاج، والاستمتاع بما يشعر به حقاً، نوع من الروح الكرنفالي. أكل بشراهة، وكان بحال جيدة بما يكفي لأن يحاول التعرف على أبناء الخال وكانت هناك بعض الاسئلة التي يطرحها الكبار، فيما إذا كان هؤلاء هم أبناء خال حقاً، مادام أخ جيمي «أو. في» هو أخ غير شقيق. إن أم كولي هي ابنة أخت جيمي، ولكن هذه الأخت كانت ثمرة الزواج الثاني لأب جيمي، و«أو. في» هو ثمرة الزواج الأول.

(*) الاستروفة: ذلك الجزء من القصيدة الأغريقية القديمة الذي تنشده المجموعة وهي تنتقل من اليمين إلى اليسار.

أثار واحد من أبناء الخال هؤلاء اهتمام كولي بشكل خاص. كان في حوالي الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره. خرج كولي فوجد هذا الصبي واقفاً مع صبيان آخرين قرب الحوض الذي اعتادت العمة جيمي غلي ملابسها فيه.

تجرأ وقال متردداً: «أهلاً». فأجابوه على تحيته الواحد بعد الآخر. قدم «جيك»، البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، سيكارة لف لكولي الذي تناو لها، ولكنه وضع عقب السيكارة في فمه بدلاً من طرفها الأمامي الذي تشعل منه، مما آثار ضحكهم فرمى السيكارة وقد أحمرّ وجهه من الخجل. وشعر أنه من المهم أن يفعل شيئاً يعيد اعتباره أمام «جيك». ولذلك عندما سأله الأخير إذا كان يعرف أية فتيات أجابه فوراً: «بالتأكيد».

كل الفتيات اللواتي عرفهن كولي كنّ في القداس، فأشار إلى مجموعة منهن، يقفن منتصبات، أو متكئات أو يتثنين على الشرفة الخلفية. كانت هناك دارلين أيضاً، وأمل كولي أن لايلتقطها «جيك».

ـ «دعونا نحصل على بعضهن ونتنزه معهن».

مشى الاثنان الهوينى إلى الشرفة. لم يعرف كولي كيف يبدأ، بينما لفّ جيك ساقيه حول درابزون الشرفة المتداعي، وجلس هناك محدقاً فقط في الفراغ، وكأنه لايهتم بهن على الاطلاق. تركهن يتفحّصنه، وبحذر كان يقيمّهن بدوره.

تظاهرت الفتيات بأنهن لم يرين الفتيان، واستمرين في ثرثرتهن. وسرعان ماأصبحت أحاديثهن حادة، تحول الكيد الخفيف إلى خبث، نوع من السخرية الجارحة. كان هذا مفتاح «جيك» إليهنّ. كانت الفتيات تتصرفنّ كرد فعل على وجوده. لقد شممن رائحة رجولته، وكن يرتعشن من أجل أن يثرن اهتمامه.

ترك «جيك» درابزون الشرفة، واتجه مباشرة إلى فتاة تدعى «سوكي» وكانت أكثرهن حدة في سخريتها.

«تريدين أن تريني خارجاً؟» قال ذلك حتى دون أن يبتسم.

حبس كولي أنفاسه، منتظراً من سوكي أن تخرسه. كانت بارعة في ذلك، ومعروفة بلسانها السليط. ولكن لدهشته الكبيرة، واقفت سوكي بسرعة وحتى أنها أسبلت أجفانها.

تشجع كولي وتقدم من دارلين قائلاً: «هيا بنا، سنذهب لرؤية الأخدود فقط». انتظر أن تلوي وجهها وتقول لا، أو شيئاً من هذا القبيل.

كانت مشاعره تجاهها مشوبةً غالباً بالخوف، الخوف من أنها قد لاتوّده، والخوف من أنها قد توّده. تحقق النوع الثاني من خوفه. ابتسمت وقفزت ثلاث درجات لتلتحق به. كانت عيناها مليئتين بالشفقة، وتذكر كولي بأنه المفجوع.

«إذا أردت ذلك، ولكن ليس بعيداً. قالت ماما بأننا يجب أن نغادر مبكراً، وقد حلّ الظلام».

تحرك الأربعة. واتجه بعض الفتيان الآخرين إلى المدخل، وكانوا على وشك أن يبدأوا ذلك الرقص الذكوري الشهواني العدائي جزئياً، واللامبالي جزيئاً، واليائس جزئياً. مشى الأربعة، سوكي، وجيك، ودارلين، وكولي عبر عدة حدائق خلفية حتى وصلوا إلى حقل مفتوح. ركضوا فيه حتى وصلوا إلى ضفة نهر جاف يحيطه الأخضرار.

كان هدف النزهة بستان كرمة واسع حيث ينمو العنب(*) المُسكي الذي مازال حصرماً، ولكنهم أكلوه على أية حال. لم يرد أي منهم ـ ليس في ذلك الوقت ـ عناقيد العنب وقد تدلّت بعصيرها الأسود. كان يثيرهم المنع، والكبح، والوعد بتلك الحلاوة التي لم تتفتح بعد أكثر مما يثيرهم النضج الكامل، أخذوا يصكون أسنانهم، ويسلون أنفسهم برمي الفتيات بالعنب. رسمت معاصمهم النحيلة السوداء علامة (G) في الهواء بينما كانوا يقومون بقذف الفتيات. قادت المطاردة كولي ودارلين بعيداً عن ضفة النهر، وعندما توقفا لالتقاط أنفاسهما، لم يريا أي أثر لجيك وسوكي، تلطخ ثوب دارلين القطني الأبيض بالعصير، وانحلت عقدة الشريط الكبيرة الزرقاء، فأخذ

(*) : في الأصل عنب جنوب الولايات المتحدة ...المعروف بطعمه الشبيه بالمسك.

نسيم الغروب يرفـع شعرها ويداعبـه. تقطعت أنفاسـهما وغاصا في ذلـك العشب الأخضر الأرجواني على طرف غابات الصنوبر.

إستلقى كولي على ظهره لاهثـاً، وأصغـى، وفمـه مملوء بمـذاق العنب المسكي، للحفيف العالي لأشجار الصنوبر التي تتشوق للمطر القريب الهطول رائحة المطر الموعود، والصنوبر، والعنب المسكي جعلت كولي يشعر بالدوار. غربت الشمس، وسحبت آخر خيوطها من الضياء، وأدار كولي رأسه ليرى مكان القمر، فرأى دارلين واقفة خلفه في الضوء كانت تربض على شكل حرف(D)وذراعاها تطوّقان ركبتيها المرفوعتين اللتين أسندت عليهما رأسها. وكان بامكان كولي أن يرى سروالها التحتاني وعضلات فخذيها الفتيتين.

قال لها: «من الأفضل أن نعود».

ـ «نعم». بسطت رجليها على الأرض، وبدأت بإعادة ربط الشريط.

ـ «ستجلدني ماما»

ـ «لا، لن تفعل ذلك».

ـ «نعم، نعم، قالت لي أنها ستفعل إذا وسخت نفسي».

ـ «لست وسخة».

ـ «لقد توسخت. انظر هنا».

أنزلت يديها عن الشريط، ومسحت برفق موضعاً على ثوبها حيث كانت لطخات العنب أكثر.

شعر كولي بالأسف من أجلها. لقد كانت غلطته. وفجأة أدرك أن خالته قد ماتت، وانه لم يعد يخاف أن يُجلد. لم يعد هناك شخص يقوم بجلده ماعدا الخال «أو.في»، وهو مفجوع أيضاً بفقد أخته.

قال لها: «اسمحي لي».

نهض حتى ركبتيه، وحاول أن يربط شريطها. وضعـت دارلـين يديهـا تحت قميصه المفتوح، وفركت جلده الداكـن المشدود. وعندمـا نظر إليهـا مدهوشاً، ضحكت ثم توقفت. ابتسم واستمر في عقد الشريط. وضعت يديهـا ثانية تحت القميص.

ـ «لاتتحركي. كيف أفعل ذلك؟»

داعبت أضلاعه بأطراف أصابعها، قهقه ثم أمسك بصدره، وفي لحظه كانا فوق بعضهما البعض، حركت يديها بين ثيابه بشكل لولبي، وبادلها الحركة، أصابعه أعلى الثوب ثم تحته، وعندما وصلت يداه إلى سروالها التحتي، توقفت فجأة عن الضحك وبدت جدية ارتعب كولي. وهمّ أن يسحب يده، ولكنها كانت تمسك بخصره. فلم يستطع أن يتحرك، تفحصها بأصابعه، وقبلت هي وجهه ثم فمه. كان طعم شفتيها مذهلاً كطعم عنب الجنوب.

رفعت يديها عن رأسه وزحزحت جسمها، ثم خلعت سروالها. وأسقط كولي سرواله حتى ركبتيه بعد أن وجد بعض الصعوبة في فتح الأزرار. بدأ جسداهما يعنيان شيئاً بالنسبة له، ولم تكن العملية صعبه كما أعتقد أنها ستكون. أنّت قليلاً، ولكن الاثارة المتجمعة داخله جعلته يغمض عينيه، معتبراً أنينها ليس أكثر من أنين الصنوبر فوق رأسه. تجمّدت دارلين وصرخت. وكأنه سمع انفجاراً، فظنّ أنه آلمها، ولكنه عندما نظر إلى وجهها، رآها تحدّق في شيء مافوق كتفيه، فانتحى جانباً.

وقف فوقهما رجلان أبيضان، أحدهما يحمل مصباح سبيرتو وآخر مصباح بطارية لم يشك أنهما أبيضان كان باستطاعته أن يشّم ذلك. قفز كولي محاولاً أن يقف ويرتدي سرواله بحركة واحدة كان الرجلان يحملان بنادق طويلة. «ها ها ها هي هي ها» تحول الضحك إلى سعلة ربو طويلة. ومرّر الآخر الضوء على كولي ودارلين.

«استمر أيها الزنجي». قال: الرجل الذي يحمل مصباح بطارية

«سيدي؟» قال كولي وهو يحاول أن يزرر بنطاله.

«استمر، واعملها جيداً أيها الزنجي. اعملها جيداً».

لم يعد هناك مهرب أمام كولي. انحدرا بحثاً عن مكان يلتجأن إليه، بينما بقي جسد كولي مشلولاً. رفع أحدهما بندقيته، وسمع كولي قرقعة المعدن. جثا ثانية على ركبتيه، بينما أشاحت دارلين بوجهها وأدارت عينيها عن ضوء المصباح، لتحدق في الظلمة المحيطة، وبدت غير مهتمة

تقريباً، وكأنما لادور لهما في هذه الدراما التي تجـري حولهمـا. نـزع كـولي بعنف ولدّه عجز كامل، ثوبها، وأخفض بنطاله وسرواله الداخلي.

«هي هي هي هي هي».

غطت دارلين وجهها بيديها، بينما كان كولي يتظاهر بالقيام بما قام به سابقاً. لم يكن بإمكانه أن يفعل شيئاً أكثر من التظـاهر. شـكل ضـوء قمـراً على مؤخرته.

«هي هي هي هي هي».

«هيا أيها الزنجي. أسرع. لم تفعل شيئاً لها بعد».

نظر كولي، الذي أسرع، إلى دارلين. كرهها. وتمنى لـو انـه بإمكانـه أن يفعلها ـ بقوة، لفترة أطول، وبـألم. كرههـا كثـيراً. شـقّ الضـوء طريقـه إلى أحشائه، وتحول مذاق العنب العذب إلى عصـارة فاسـدة كريهـة الرائحـة. حدق في يدي دارلين اللتين تغطيان وجهها في ضوء القمـر والمصبـاح. بديـا وكأن براثن جديدة نمت لهما تواً.

سمعوا نباح كلاب «إنه هو..هو.. العجوز هوني».

«نعم» قال صاحب مصباح السبيرتو «هيـا» اسـتدار مصبـاح البطاريـة، وصفرّ أحدهما لهوني.

«انتظر» قال المصباح الآخر «الزنجي لم ينته بعد».

«حسناً، دعه ينتهي في وقته. حظاً سعيداً أيها الولد الزنجي».

داسوا على إبـر الصنوبـر تحـت أقدامهـم، وكـان بإمكـان كـولي سمـاع صفيرهم بعد فترة طويلة. توقفت الكلاب عن النباح، وأخذت تطلق أصواتاً دالة على الاطمئنان والتعرف. نهض كولي وزرّر بنطاله بصمت. لم تتحـرك دارلين.

أراد كولي أن يخنقها، ولكن بدلاً من ذلك لمس ساقيها بقدميه: «علينـا أن نذهب ياصبية. هيا».

حـاولت العثـور علـى ملابسـها الداخليـة وعيناهـا مغمضتـان. وبحـث الاثنان عنها تحت ضوء القمر، وعندما وجدتها، ارتدتها بحركة امرأة عجوز.

غادرا غابات الصنوبر باتجاه الطريق العام. هو في المقدمة وهي مسرعة خلفه. بدأت تمطر، ففكر كولي: «شيء جيد. هذا يفسرّ اتساخ ملابسنا».

عندما عادا، كان عشر أو اثنا عشر ضيفاً مايزالون هناك. أما جيك وسوكي فقد ذهبا. عاد البعض للأكل ثانية ــ بطاطا، وفطائر، وأضلاع، والكل انهمكوا في استعادة ذكرياتهم، أحلامهم، وتصوراتهم، وهواجسيهم. كانت تلك الراحة المتخمة مخدراً أطلق التذكرات وتهويمات الهلوسة.

لم يحدث دخول كولي ودارلين سوى جلبة خفيفة.

«لقد تبللتم.. ها؟»

كانت أم دارلين مهتاجة فقط. لقد أكلت وشربت كثيراً، وكانت تضع حذاءها تحت الكرسي، وثوبها مفتوح من الجانبين.

ـ «تعالي ياصبية. أعتقد أني أخبرتك..»

قدّر بعض الضيوف أنهم سينتظرون حتى يخفّ هطول المطر. أما الآخرن، الذين أتوا بعرباتهم، فقط رأو أنه من الأفضل لهم أن يغادروا. ذهب كولي إلى عنبر صغير تحول إلى غرفة نوم له. ولكن كان ثلاثة أطفال ينامون على سريره المتحرك. خلع ملابسه التي نفذت إليها أبر الصنوبر وتشربت بالماء، وارتدى مئزراً. لم يعرف أين ينام. لم تكن فكرة النوم في غرفة الخالة جيمي واردة، فالخال «أو.في» وزوجته سيستخدمانها فيما بعد، على أية حال، أخذ لحافاً من خزانة الملابس، ومده على الأرض واضطجع عليه، شخص ما كان يعد القهوة، فاجتاحته رغبة قوية فيها قبل أن يسقط نائماً.

كان اليوم التالي هو يوم إخلاء محتويات البيت، وتسوية الحسابات، وتوزيع ممتلكات العمة جيمي. أصبحت الأفواه مثل أهلّة منحدرة، تبرقعت الأعين، تردّدت الأقدام.

كان كولي يطوّف هنا وهناك بدون هدف، ويقوم بأعمال روتينية كما يطلب منه. حلّت محل الدفء والسحر، اللذين غمره الكبار بهما، الصرامة التي تتناسب مع مزاجه. لم يستطع أن ينزع عن تفكيره المصباح،

والعنب، ويديّ دارلين. وعندما لايفكر في ذلك، يحتــل رأسـه فـراغ يشـبه الفراغ الذي يتركه سـن اقتلـع حديثـاً، ولكـن عفونتـه مـاتزال في الفـم، لم يذهب بعيداً عن البيت خوفاً مـن لقـاء دارلـين صدفـة، ولكـن، في الوقـت نفسه، لم يعد يطيق الجو في بيت الخالة الميتة. لم يعد يطيـق التقليـب في أغراضها، وإختيار حاجيات منهـا، والتعليقـات علـى«حالـة» ممتلكاتهـا. تطورت كراهيته لدارلين بعناد مختلط بالغضب. انفعال كهذا سيدمره. كانا رجلين ضخمين، أبيضين مسلحين، وهو صغير، أسود، عاجز. كان عقلـه الباطن يدرك مايعجز عنه عقله الواعي...أن كرهه لهمـا سـيدمرّه، يحرقـه مثل قطعه فحم صغيرة، لايخلّف سوى الرماد، وعلامــة استفهام يرسمهـا الدخان. سيكتشف في الوقت المناسب، هذه الكراهية للرجال البيض ـ ولكن ليس الآن، ليس في حالة العجز هذه، ولكن فيما بعد. عندما تجد الكراهية تعبيرها الجميل. أما الآن، فإنــه يكـره الرجـل الـذي خلـق هـذا الوضـع، الشخص الذي شهد فشله، وعجزه، والفتاة التي لم يسـتطع أن يحميهـا، وان يحجب عنها وهج المصباح الدائري كالقمر. يتذكر قهقهاتهم هــي هــي هي هي. ويتذكر شريط شعر دارلين المتصبب مـاء، المرفـرف علـى وجههـا وهما يمشيان عـائدين بصمـت تحـت المطـر. جعلـه هـذا الاشمـئزاز الـذي يجتاحه يشعر بالرعشة في داخله. لم يكن يوجد أحد ليتحدث إليه، فبلــو العجوز كان مخموراً دائماً تلك الأيام لدرجة فقدان الوعي، إضافــة إلى أنـه كـان يشك بقدرتـه علـى كشـف خزيـه لبلـو، سيكذب قليـلاً لـو أخـبر بلو، العازف عن النساء، وبدا له أن يكون متوحداً أفضل من أن يكون وحيداً.

في اليوم الذي استعد فيه خال كولي للرحيل، عندما حُـزم كـل شـيء، وعندما تحولت المعارك الساخنة إلى مرقة لحم دبقة على كل لسـان، جلـس كولي على الشرفة الخلفية منتظراً. خطر في باله أن دارلين قد تكون حاملاً. كانت فكرة غير منطقية تماماً، ولكن الخوف الذي سبّبته كان شاملاً.

كان عليــه أن يهـرب. ولم يبـال بكونـه يغـادر في ذلـك اليـوم بـالذات المسافة إلى المدينة أخرى أو مدينتين ليست بمسافة بعيـدة، خاصـة أنـه لم يحب خاله أو يثق به، وبإمكان أم دارلـين أن تجـده بالتـأكيد، وسـيعيده

خاله «أو.في» إليها. كان يعرف أنه من الخطأ أن يترك فتاة حاملاً، ولكنه تذكر، بشفقة، أن أباه قد فعل ذلك بالضبط. الآن فهم. والده سيفهم أيضاً. كانت العمة جيمي قد قالت أنه ذهب إلى «ماكون».

رحل بالسرعة التي يخرج فيها الصوص من قشرة البيضة. سار مسافة قصيرة ثم تذكر الكنز، تركت العمة جيمي شيئاً ماكان قد نسيه تماماً. في مدخنة الموقد، التي ما عادت تُستخدم، أخفت كيساً صغيراً كان تسميه كنزها. انسلّ إلى البيت ووجد الغرفة فارغة. مدّ أصابعه في المدخنة، فصادفه أولاً السخام وشبكة العنكبوت، ثم الكيس الرقيق فرز المال: أوراق ماليه، وقطع نقدية. المجموع: ثلاثة وعشرون دولاراً. مبلغ كافٍ للوصول إلى «ماكون».

أن يهرب ولد أسود من البيت إلى جيورجيا ليس بمشكلة كبيرة. ماعليه سوى أن ينسل، ويبدأ بالسير، وبإمكانه أن ينام في مخزن للغلال عندما يحل الليل، وإذا لم تكن هناك كلاب، ففي حقل للقصب أو منشرة فارغة. ويستطيع أن يلتقط طعامه من الأرض، ويشتري مشروبات غازية وعرق السوس من مخازن الريف الصغيرة. وتوجد دائماً قصص سهلة يستطيع أن يخبر بها الرجال السود المتسائلين، بينما لايهتم بذلك الرجال البيض إلا من باب التسلية.

وعندما تمضي عليه أيام، يستطيع أن يذهب إلى الأبواب الخلفية للبيوت الجميلة، ويخبر الطباخ الأسود أو السيدة البيضاء أنه بحاجة إلى عمل: تشذيب الحديقة، الحرث، الجني، التنظيف، وأنه يقيم في مكان مجاور. بعد أسبوع أو أكثر يستطيع أن يتركهم. عاش بهذه الطريقة الأيام الأخيرة من الصيف، وفي تشرين الأول/ أكتوبر/ وصل إلى مدينة أكبر توجد فيها محطة باص. ذهب إلى الطرف الآخر المخصص للملّونين، وهو جاف الحلق من الإثارة والخوف ليشتري تذكرة.

ـ «كم إلى ماكون ياسيدي؟»

ـ «أحد عشرة دولاراً. وخمسة ونصف للأطفال دون الثانية عشرة».

كان كولي يملك (١٢) دولاراً وأربعة سنتات.

ـ «كم عمرك؟»

ـ «في الثانية عشرة بالضبط. لم تعطني أمي سوى عشرة دولارات».

ـ «إنك أكبر طفل أراه في الثانية عشرة».

ـ «رجاء ياسيدي. يجب أن اذهب إلى ماكون. أمي مريضة».

ـ «أعتقد أنك قلت أمك أعطتك عشرة دولارات».

ـ «هذه ليست أمي الحقيقية. أمي الحقيقية في ماكون ياسيدي».

«أفترض أنني أعرف الزنوج الذين يكذبون عندما أرى أحدهم، ولكن في حالة أنك لاتكذب، وفي حالة أن أماً من أمهاتهم مريضة حقاً وأنها تريد أن ترى فلوها الصغير قبل أن تلاقي باريها، فانني أفعل».

لم يسمع كولي شيئاً. الإهانات جزء من منغصات الحياة، مثل البعوض. كان سعيداً كما لم يكن قط ماعدا تلك المرة عندما كان مع بلو، وحدثت «حادثة البطيخة». لن يغادر الباص قبل أربع ساعات.

كان ينازع في تلك الدقائق مثل البعوض على الورق المصمّغ ـ يموت ببطء، ويستنفد قواه في الصراع من أجل أن يبقى حياً. كان خائفاً أن يتحرك، وأن يروّح عن نفسه، فقد يتحرك الباص أثناء غيابه. أخيراً، وقد تصلّبت أمعاؤه من الإمساك، استقلّ الباص إلى ماكون.

وجد مقعداً يطلّ على الشارع في الخلف حيث جلس وحده، أمام عينيه انزلقت جيورجيا حتى غياب الشمس. وحتى في الظلام، حتى يتحرق رغبة للمشاهدة، وبعد صراع عنيف لأن يبقي عينيه مفتوحتين، استغرق في النوم. وبعدما استيقظ، كان النهار في عزّه، وأحس بسيدةٍ تلكزه برفق مقدمةً له قطعة من لحم الخنزير، دخل ماكون، وطعم الخنزير كان مايزال في فمه. تلولبَ صوت هادر لأحدهم على رؤوس تلك الأشكال الملتوية. كانت كل الأشكال الجاثية، الأشكال المنحنية مركزة على بقعة واحدة على الأرض. عندما اقترب أكثر، استنشق رائحة رجل في قاعة مثيرة نفاذة. كان الرجال مجتمعين، كما قال الرجل في قاعة المراهنة، حول النرد والمال ومن أجلهما، وكل لاعب أمامه فيشات دولارات القمار.

أفرز بعضهم نقوده، ولف الأوراق المالية حول أصابعه التي أطبقها فتجمعت النهايات الملساء للأوراق النقدية في مزيج من الرقة والعنف. وكوّم آخرون أوراقهم المالية، وجعدوها في الوسط، ثم حملوا لفائف منها، وكأنهم على وشك توزيع الأوراق، وترك آخرون نقودهم منثورة على الكرات المنثنية. وسحب أحدهم نقوده من تحت قبعته، وآخر علّم نقوده بإبهامه وسبّابته. هناك كمية كبيرة من النقود في تلك الأيدي السوداء لم يرها كولي في حياته قط. شاركهم إثارتهم، حتى سال اللعاب من فمه الذي كان جافاً من خشيته أن يلتقي أباه. نظر إلى الوجوه، باحثاً عن الرجل الذي قد يكون أبوه كيف سيعرفه؟ هل سيبدو نسخة مكبّرة عنه؟

في تلك اللحظة لم يستطع كولي أن يعرف كيف يبدو هو نفسه. كل مايعرفه أنه في الرابعة عشرة من عمره، أسود، وطوله ستة أقدام. بحث عن الوجوه، ولم يرَ إلا الأعين، أعين ملتمسة، أعين باردة، أعين أطفأ الخبث لمعانها، وعيون شدّها الخوف، كلها مركزة على قطعتي نرد رماهما أحدهم، ثم اختطفهما ورماهما ثانية همس لهما وهو يترنم بنوع من الابتهال، إنفعل معه الآخرون بينما كان يفرك قطعتي النرد وكأنهما قطعتا فحم حارتان. أطلق زعيقاً وطار النرد من يديه باتجاه المجموعة التي خيمت عليها الدهشة وخيبة الأمل. ثم غرف النقود، وصرخ أحدهم: «خذها، وازحف على الأرض. يا أسرع كلب ماء رأيته في حياتي». ضحك البعض، مما خفف التوتر بشكل ملحوظ استغله البعض في تبادل النقود.

ربّت كولي على ظهر رجل أبيض الشعر: «هل يمكن أن تخبرني إذا كان سامسون فوللر موجوداً هنا؟»

«فوللر؟» بدا الاسم مألوفاً للرجل: «لاأعرف إنه هنا في مكان ما. إنه هناك. الرجل ذو السترة الرمادية».

وقف رجل يرتدي سترة ذات لون بني فاتح في الزاوية الأبعد من المجموعة. كان واقفاً مع رجل آخر. وكلاهما مقطب الوجه وهو يحرك يديه بطريقة عصبية مشاكسة. شق كولي طريقه إليهما حيث يقفان، وهو غير مصدق أنّ رحلته شارفت على النهاية. هاهو أبوه، رجل مثل أي

رجل آخر، وهـاهي عينـاه وفمـه، ورأسـه. كتفاه المتوارتيـان تحـت تلـك السترة، صوته، يداه ـ كلها حقيقية. كـانت موجـودة، موجـودة حقـاً، في مكان ما هنا.

كان كولي يفكر دائماً بأبيه كعملاق، ولذلك عندما أصبح قريباً جداً منـه أصيب بصدمة، بل اكتشف أنه أطول من أبيه. كان في الحقيقة، يحدق في بقعة جرداء من الشعر في رأس أبيه، وأراد، فجـأة، أن يمـرر يـده عليهـا. وبينما كان هكـذا مـأخوذاً بتلـك المسـاحة النظيفـة، الباعثـة علـى الرثـاء، المطوّقة بخصلات من الشعر الكث القصير الجعّـدْ، أدار لـه الرجـل وجهـاً قاسياً عدائياً.

ـ «ماذا تريد ياولد؟»

ـ «أوه. أعني...هل أنت سمسون فوللر؟»

ـ «من أرسلك؟»

ـ «من؟»

ـ «هل أنت ابن ميلبا؟»

ـ «لا، ياسيدي، أنا....» طرف كولي بعينيه. لم يستطيع أن يتذكر اسم أمه. هل عرفه يوماً ما؟ ماذا بإمكانه أن يقول؟ ابن من هو؟ لم يستطع أن يقول: «أنا ابنك». فذلك سيبدو قلة احترام منه.

فقد الرجل صبره: «هل أنت مخبول؟ من أخبرك أن تتبعني؟»

ـ «لا أحـد». تعرّقـت يـدا كـولي، وأرعبتـه عينـا الرجـل «اعتقـدت فقط..أعني، كنت اتجول هنا، أوه، اسمي كولي».

ولكن فوللر استدار ومضى باتجاه طاولة اللعب الذي سيبدأ من جديـد. انحنى ليقذف بظفره القطعة النقدية على الأرض ثم انتظر الرميـة. وعندمـا انتهت، انتصب واقفاً وصرخ مخاطباً كولي بصوت مهتاج كالصهيل: «أخبر تلك الكلبة أنها أخذت مالها. والآن أغرب عن وجهي».

احتاج كولي لوقـت طويـل لينـتزع قدميـه مـن الأرض الـتي كـان يقـف عليها. حاول أن يعود من حيـث أتـى. وبعـد جهـد شـديد استجابت لـه

العضلة الأولى، قفل راجعاً عبر الزقاق، بعيداً عن ظلاله، باتجاه أضواء الشارع المتوهجة. ما أن أصبح تحت ضوء الشمس، حتى شعر بشيء يتحطم تحت قدميه. كان صندوقاً للشحن البري، برتقالي اللون. ملصوقة على جانب منه يدان مشبكتان، جلس كولي عليه، وكان ضوء الشمس يتساقط فوق رأسه كالشهد مرت به عربة فواكه يجرها حصان، وكان السائق يغني: «انعش نفسك بالعنب حلو كالسكر، أحمر كالنبيذ»

بدأت الضوضاء تزداد، أصوات كعوب النساء، تك... تاك، قهقهات رجال متسكعين في المدخل. صوت ترام في مكان ما. جلس كولي. كان يعرف أنه إذا ظلّ ساكناً فكل شيء سيكون على مايرام. ولكن الألم زحف إلى عينيه، وكان يتوجب عليه أن يحاول كل شيء ليتخلص منه. إذا بقي ساكناً، كما أعتقد، وظلت عيناه مركزتين على شيء واحد، فإن الدموع لن تنهمر. ولذلك جلس تحت ضوء الشمس الغامر، وشدّ كل عصب وعضلة فيه حتى يمنع تساقط المياه من عينيه. وبينما كان مشدوداً هكذا، شنّت أمعاؤه هجومها المفاجىء، وقبل أن يدرك ماكان يعرفه، جرى الغائط السائل بين رجليه. في بداية المدخل حيث كان يقف أبوه، على الصندوق البرتقالي تحت الشمس، على الشارع المليء بالنساء والرجال الكبار، وسّخ نفسه مثل طفل.

تساءل مذعوراً فيما إذا كان عليه أن ينتظر هناك حتى حلول الليل لا. سيظهر أبوه فجأة ويراه ويضحك عليه. آه. أيها الإله. سيضحك عليه كان هناك شيء واحد فقط يمكن فعله.

ركض كولي في الشارع، سامعاً الصمت فقط تحركت أفواه الناس، تحركت أقدامهم. توقفت سيارة جنبه ـ ولكن بدون صوت. بدا أن الهواء سيخنقه، يعيده إلى الوراء. انغلق باب بصمت كامل. لم تصدر قدماه أي صوت. كانت مندفعاً خلال عالم من الأعشاب الطفيلية غير المرئية التي تهدد بطمره تماماً ظلّ يركض وهو لايرى سوى أشياء متحركة بصمت، حتى وصل إلى نهاية البناية، حيث بداية الأفق المفتوح، ورأى نهر «أوكمو» المتلوي قدماً، وانطلق على امتداد منحدر مليء بالحصى نحو دعامة ناتئة فوق الماء الضحل. وجد ظلاً كثيفاً تحت الدعامة، فجثم خلف

أحـد القوائـم، بقـي مشـدوداً هنـاك في وضـع جنينـيّ، مشـلولاً، وقبضتـاه تغطيان عينيه، لفترة طويلة.

لانأمة، لالمحة، وإنما ظلمة فقط وضغط أعصاب العينين على أجفانـه. نسيَ حتى بنطاله القذر.

أتى المساء. وطوق الظـلام، والـدفء، والهـدوء كـولي مثـل قشـرة ثمـر البيلسان التي تحمـي بذرتهـا تحـرك كـولي، ولم يشـعر بـأيّ شـيء سـوى الصداع، سريعاً، مثل كُسَر الزجاج اللامعة، تقاطعت أحـداث بعـد الظهـر داخله، رأى أولاً النقود فقط بين الأصابع السوداء، ثم تصور نفسـه جالسـاً على كرسي غير مريح، ولكن عندما نظر إليه، تبينّ لـه أنـه رأس رجـل، رجل ببقعة خالية من الشعر بحجم برتقالة. بـدأ كـولي، في الوقـت الـذي اندمجت فيه تلك النتف لتشكل ذكرى كاملة، يشـم رائحتـه وقـف فشـعر بالدوار، والضعف، والارتجاف استند للحظة إلى عمود الدعامة، ثـم خلـع سرواله، وملابسة الداخليـة، وجواربـه، وحـذاءه. أزال جـزءاً مـن القـذارة بحذائه، ثم زحف إلى ضفة النهـر. كـان عليـه أن يهتـدي إلى بدايـة المـاء بيديه، لأنه لم يكن يراه بوضوح. حرّك ملابسه في الماء ببطء، ثم فركها إلى أن أصبحت نظيفة كما أعتقد. عاد ثانية إلى الدعامة، وخلع قميصـة ولفّـه حول خصره، ثم نشر بنطاله وملابسه الداخلية على الأرض. ربـض هنـاك وبدأ ينتزع الخشب المتهرىء من الدعامة. فكّـر، فجـأة، بخالتـه جيمـي، كيس الراتينج، أسنانها الذهبية الأربعة، والخرقة الأرجوانية التي تضعهـا حول رأسها، تذكّر بشوق عارم يكاد يمزقه، كيف ناولته قطعة صغيرة مـن لحم الخنزير من صحنهـا، وتذكـر كيـف حملتهـا، بحركـة غـير رشـيقة، بثلاث أصابع بمحبة كبيرة. عندها انسـابت الدمـوع علـى خديـه، تشـكل باقة تحت ذقنه.

ثلاث نساء يحنينَّ رؤوسهن من نافذتين. يرين الرقبة الطويلـة النظيفـة لشاب غريب، وينادين عليـه. يذهـب إليهـن. في الداخـل، عتمـة ودفء. يقدمن له عصير الليمون بجرّة مايسون يرى نظراتهـن مصوبـة عليـه، عـبر قاع الإناء، والشراب العذب الصقيل. يعـدن لـه رجولتـه ثانيـة، ويأخذهـا

دونما أي هدف. إن أجزاء حياة كولي لايمكن أن تصبح مترابطة إلا في ذهن عازف موسيقي، فقط أولئك العازفون الذين يذوّبون أنفسهم في تلك الألحان المنطلقة من الأبواق الذهبية المنحنية، أو من البيانو، والطبل، والغيتار، المنطلقة من الأزقة الخشبية. إنهم، فقط، سيعرفون كيف يربطون لب تلك البطيخة الحمراء مع كيس الراتينج، مع ضوء المصباح اليدوي على مؤخرته، مع قبضة النقود، مع شراب الليمون في جرّة مايسون، مع رجل يدعى بلو، ويدركون ماذا يعني كل ذلك في حالة الفرح، والألم، والغضب، والحب، ويعطونه ذلك الألم النهائي المتغلل فيه للحرية. عازف بارع فقط سيدرك، ويعرف، حتى بدون أن يعرف أنه يعرف، بأن كولي كان حراً، حراً إلى درجة خطرة. حراً أن يشعر بكلّ ماشعر به ـ الخوف، الذنب، الخزي، الحب، الحزن، الشفقة، حراً أن ينام في الداخل، أو بين الملاءات البيضاء لامرأة مغنية، حراً أن يجد عملاً، وحراً أن يتركه، بإمكانه أن يذهب إلى السجن ولايشعر أنه مسجون، لأنه كان قد رأى لتّوه المكر في عيني سجانه، حراً أن يقول «لا، اللعنة». ويبتسم لأنّه قد قتل، لتوه، ثلاثة رجال بيض، حراً أن يتحمل إهانات امرأة، لأن جسده قهر، لتوه، جسدها. حراً حتى بضربها على رأسها، لأنه كان قد حضن، لتوه، ذلك الرأس بين ذراعيه. حراً في أن يكون لطيفاً معها حين تمرض، أو أن يمسح لها الأرضية، لأنها تعرف ماهي رجولته وأين تكمن، حراً أن يغرق نفسه في عجز سخيف لأنه رقص لتوه رقصة السجناء وأقدامهم مقيدة بالسلاسل، وقضى ثلاثين يوماً موثقاً بسلسلة واحدة مع مجموعة منهم، وأخرج رصاصة من ربلة ساق امرأة. إنه حر في أن يعيش أوهامه، وحرّ حتى أن يموت، ولايهمه كيف ومتى يكون ذلك. في تلك الأيام، كان كولي حراً حقاً. تركته أمه على كومة نفايات، ورفضه أبوه من أجل لعبة قمار. لم يعد يوجد شيء يخسره. إنه وحيد مع قوة إدراكه ورغائبه وهما، وحدهما، اللذان يهمانه.

في حالته الإلهية هذه، قابل بولين وليمز. وبولين، أو بالأحرى الزواج منها، هو الذي عمل به مالم يعمله ضوء المصباح اليدوي. والسكون، وعدم

التنوع، ووطأة الرتابة كل ذلك قاده إلى اليأس، وجمدّ خياله. أن يكون مفروضاً عليه النوم مع المرأة نفسها للأبد لهي فكرة غريبة وغير طبيعية بالنسبة له، أو أن يُتوقع منه أن يطمر حماساته لأفعاله القديمة، ومكائده المبتذلة، إنه يستغرب غطرسة الإناث. عندما قابل بولين في كنتكي، كانت متدلية من سياج، وهي تحك جلدها بقدمها العرجاء. أناقتها، وسحرها، والفرح الذي أيقظته في نفسه، جعله راغباً في أن يجمعهما عش واحد.

كان عليه، مع ذلك، أن يكتشف ماالذي حطم تلك الرغبة. ولكنه لم يفكر بالأمر كثيراً. فكر بدلاً عن ذلك بما حصل للفضول الذي اعتاد أن يشعر به. لاشيء لاشيء يثير فضوله الآن. في الشرب فقط، هناك بعض الراحة، بعض من ضوء غامر، وحين ينتهي ذلك، يحل النسيان.

لكن الجانب الذي صعقه من الحياة الزوجية، وأفقده فعاليته تماماً كان مجيء الأطفال. لم يستطع أن يفهم قط ما الذي ينبغي أن تكون عليه علاقته بهم، فلم يكن يملك أية فكرة حول كيفية تربية الأطفال، ولم يربّهِ أحد من والديه. لو كان مهتماً بتكديس المال، لفكّر ربما بالأولاد كورثة له، ولو كان يحتاج أن يثبت جدارته لـ«آخرين» مجهولين، لأرادهم ربما أن يتفوقوا حسب تصوره هو، ومن أجله هو. ولو لم يكن وحيداً في العالم منذ الثالثة عشرة، لايعرف سوى امرأة عجوز محتضرة كانت مسؤولة عنه، ولكنها، بعمرها وجنسها واهتماماتها، بعيدة عنه، لربما شعر بارتباط عميق بينه وبين الأطفال. لقد تفاعل معهم، ولكن تفاعله كان مبنياً على مايشعر به لحظتها.

في ظهيرة سبت، في ضوء الربيع الخفيف، عاد إلى البيت مترنحاً من السكر، ورأى ابنته في المطبخ.

كانت تغسل الصحون، وظهرها الصغير منحن على المغسلة، رآها كولي بعدم وضوح، ولم يستطع أن يدرك ماذا يرى، وبماذا يشعر، ثم أدرك بعد قليل أنه لا يشعر بالراحة، وبعد ذلك شعر أن قلقه يتلاشى ليتحول إلى غبطة تسلسل انفعالاته: اشمئزاز، شعور بالذنب، شفقه ثم حب. كان

اشمئزازه رد فعل على وجودها الفتي العاجز اليائس: ظهرها المنحني بذلك الشكل، ورأسها المائل إلى جانب وكأنه منحن من تأثير ضربة مستديمة. لماذا كان عليها أن تبدو بهذا الأنكسار؟ إنها ماتزال طفلة ــ لاتحمل عبء أي شيء ـ لماذا هي ليست سعيدة؟ إن الإعلان الصريح عن بؤسها لهو اتهام. أراد أن يكسر رقبتها ــ ولكن برقة. الشعور بالذنب والعجز ينهضان في لحن ثنائي تعس... ماذا بإمكانه أن يفعل لها ـ دائماً؟ ماذا يعطيها؟ ماذا يقول لها؟ ماذا بإمكان رجل أسود منهك القوى أن يقول للظهر المحدودب لابنته ذات الأحد عشر عاماً؟ إذا نظر إلى وجهها، فسيرى تلك العنيين المحبتين. المسكونتين بالهواجس، الهواجس تثيره، والحب يجعله عنيفاً. كيف تجرؤ أن تحبه؟ ألا تملك ذرة من عقل؟ ماالمفروض أن يفعل حيال ذلك؟ يبادلها الحب؟ كيف؟ ماذا تستطيع أن تفعل يداه الخشنتان ليجعلها تبتسم؟ أية معرفة من المعارف التي اكتسبها عن العالم والحياة يمكن أن تكون مفيدة لها؟ ماذا بإمكان ذراعيه الثقيلتين وعقله المضطرب أن يحققا حتى يكسب احترامه لنفسه، وهذا ما يسمح له، بالمقابل، أن يقبل حبها؟ كراهيته لها التصقت في معدته كمادة لزجة منذرة بالتحول إلى قيء. ولكن قبل أن يتحول الغثيان إلى شعور قوي، رفعت جسمها ووقفت على رجل واحدة لتحك ربلة ساقها بإصبع قدمها. كانت إيماءة هادئة مثيرة للشفقة. وأخذت يداها تنتقلان حول مقلاة القلي، وتكشطان البقع المسّودة. المنظر الخجول لاصبع قدمها المثبت في المكان بعينه ـ هو مافعلته بولين حين رآها للمرة الأولى في كنتكي، منحنية على جدار، محدّقة في اللاشيء. أصبع القدم العارية تحك ساقاً ناعمة. إيماءة صغيرة ساذجة، ولكنها ملأته حينها برقة مذهلة، ليست مثل الشهوة العادية لرؤية ساقين مفتوحتين ملتصقتين بساقيه، ولكنه شعور بالرقة والحماية رغبة في أن يغطي قدميها بيديه، ويقضم تلك الحكة في ربلة ساقها بأسنانه. فعلها حينئذٍ وانفجرت بولين ضاحكة. وهو يفعلها الآن.

تفجر الحنان داخله، فانحنى على ركبيته وعيناه مثبتتان على قدم ابنته. زحف على أربع باتجاهها، ورفع يديه، وأمسك بقدمها من الأعلى

بخطفة واحدة. فقدت بيكولا توازنها وكانت على وشك السقوط، على الأرض برفع كولي يده الأخرى إلى خصرها ليمنعها من السقوط أنزل رأسه ثم بدأ يقضم برفق ساقها من الخلف. كان فمه يرتعش من حلاوة اللحم. أغلق عينيه، وترك أصابعه تحفر في خصرها صلابة جسدها المصعوق، والصمت المختنق في حنجرتها أفضل من الضحكات العفوية التي أطلقتها بولين. الخليط المشّوش لذكرياته عن بولين وفعله فعلاً وحشياً أثاره أكثر. وصل اندفاع شهوته إلى ذكره فانتصب ولانت إليتاه. أراد أن يجامعها برقة، ولكن الرقة لم تستمر. كان ضيق مهبلها أكثر مما يحتمل. وبدت روحهُ وكأنها انزلقت إلى أحشائه، ثم طارت لتستقر داخلها. وأحدث الاندفاع المفاجىء الهائل داخلها الصوت الوحيد الذي أطلقته، امتصاص مكتوم للهواء في ظهر الحنجرة، مثل تفريغ مفاجىء للهواء من منطاد في سيرك.

بعد تلاشي - خمود - الرغبة الجنسية، انتبه لوجود يديها الملساوين الرطبتين على خصره، أصابع مطبقة، ولكنه لم يدرك فيما إذا كان تشبثها نابعاً من نزاعها اليائس والعنيد للتحرر منه، أو نابعاً من انفعال آخر.

كان مؤلماً جداً بالنسبة إليه أن يزيح جسمه عنها، فقطع العملية وسحب عضوه من مهبلها الجاف. بدت فاقدة الوعي. وقف كولي، ولم يكن بإمكانه أن يرى سوى سروالها الداخلي الضارب إلى الرمادي، بدت حزينة جداً بعرجها الذي يحيط برسغ قدمها. مرة أخرى امتزجت الكراهية بالحنان، كانت الكراهية تمنعه من انعاشها، والحنان يجبره على تغطيتها.

وهكذا عندما استعادت الطفلة الوعي، كانت متمددة على أرضية الحمام يغطيها لحاف ثقيل، وهي تحاول أن تربط بين الألم مابين ساقيها ووجه أمها الذي يلوح فوقها كطيف بعيد.

انظر إلى الكلب عوعو الكلب يذهب

هل تريد ياكلب أن تلعب

مع جين انظر إلى الكلب

مرة كان هناك رجل عجوز مولعاً بالأشياء، لأن أبسط اتصال بالناس يسبب له غثياناً دائماً وإن يكن خفيفاً، وهو لايستطيع أن يتذكر متى بدأ هذا النفور، أو المرات التي لم يصبه فيها. حين كان فتىً صغيراً كان يسبب له هذا النفور، الذي لايشاركه فيه الآخرون، إزعاجاً كبيراً، ولكن بعد أن تلقى تعليماً جيداً، بدأ يفهم، مع أشياء أخرى، معنى كلمة «كاره البشر» أكسبه هذا التصنيف الراحة والشجاعة معاً، فقد كان يؤمن بأن تسمية شرّ ما باسمه تحيدّه إن لم تلعنه. وقتها قرأ، أيضاً، عدة كتب، وتعرف على أعظم الشخصيات الكارهة للبشر في كل العصور، وعلاقته الروحية معهم خففت من معاناته، وزودته بمقياس لضبط نزواته، وأشواقه، وشعور بالنفور، وأكثر من ذلك، وجد أن كره البشر هو وسيلة ممتازة لتطوير الشخصية: فعندما يقهر اشمئزازه، وتتحرك مشاعره، أو يقدم المساعدة أو المشورة، أو يشعر بالصداقة تجاه شخص ما، فإنه يفكر بتصرفه على أنه تصرف كريم، وبمقاصده على أنها مقاصد نبيلة، وعندما كان يشعر بالسخط نتيجة مسعى أو خلل إنسانيين، فإنه كان بإمكانه أن يعتبر نفسه شخصاً مميّزاً، صعب الأرضاء، مليئاً بوساوس رائعة.

وكما في حالة عدد من كارهي البشر، فان ازدراءه للناس قاده لمهنة أُعدت لخدمتهم. فقد انخرط في عمل يعتمد كليةً على كسب ثقة الآخرين، محل تكون فيه العلاقات الحميمة ضرورية. وكان قد ضيع وقته في الكهانة، فتركها ليصبح باحثاً اجتماعاً. ولكن الزمن وسوء الحظ كانا يتآمران ضده، فاستقر أخيراً في مهنة حققت له الحرية والقناعة معاً.

أصبح «قارئاً، وناصحاً، ومفسراً للأحلام». كانت مهنة ملائمة له تماماً. فقد كان وقته ملكه والمنافسة ضعيفة، والزبائن طيعّين ومقتنعين به، إضافة إلى الفرص العديدة التي سنحت له ليشهد على الغباء الانساني دون أن يشارك فيه أو يعرّض نفسه للشبهة، وليغذّي حساسيته الشديدة من خلال مشاهدة الاعتلال الجسدي. وبغض النظر عن دخله المتواضع، فإنه لم يكن يميل إلى التبذير ـ فقد رسخت تجربته في الدير تقشفه الطبيعي، وطورت عنده تفضيله للعزلة. كان التبتل ملاذه، والصمت درعه.

كان، طوال حياته، مولعاً بالأشياء ـ ليس لاكتساب الثروة أو الأشياء الجميلة، ولكن عن حب أصيل للأشياء البالية: دلّة قهوة تركتها أمه، ممسحة أقدام أخذها من باب نزل سكن فيه مرّة، لحاف من مخزن جيش الخلاص. كان يبدو وكأن نفوره من الاتصال الانساني قد تحول إلى توق شديد إلى أشياء كان قد لمسها آدميون. ماتبقى من الروح الانساني في أشياء غير حيّة هو كل مايستطيع تحمله...أن يتأمل في آثار تركتها خطوات انسانية على المسحة، وأن تغمره رائحة لحاف يعرف معرفة أكيدة أن عدة أجساد تعرّقت عليه ونامت، وحلمت، ومارست الحب، ومرضت، وحتى ماتت تحته. حيثما يذهب، يأخذ معه أشياءه، ويبحث دائماً عن أشياء أخرى. قاده هذا الظمأ للأشياء البالية إلى التفتيش العرضي ولكن المستمر لبراميل القمامة في المداخل، وسلال المهملات في الأماكن العامة.

كانت شخصيته، بشكل عام، شخصية أرابسكية مقعدة، متساوقة، متوازنة، ومبنية بشكل محكم ماعدا عيباً واحداً فهذا التخطيط الدقيق كانت تفسده، بين فترة وأخرى، الرغبات الجنسية العنيفة.

كان من المكن أن يكون شاذاً جنسياً، ولكن كانت تعوزه الشجاعة، ولم تخطر على باله البوهيميه، أما اللواط فكان غير وارد على الاطلاق. فهو لايستطيع تحمل فكرة الانتصاب عند رجل آخر. بالإضافة إلى أن الشيء الذي يثير اشمئزازه أكثر من الايلاج ومعانقة امرأة هو أن يعانق رجلاً وأن يعانقه رجل. وعلى أية حال، فإن رغباته الملحة رغم حدتها، لاتستسيغ الاتصال الجسدي. إنّه يبغض أن يكون اللحم على اللحم.

رائحة الجسد، رائحة النفس، تسبب له الإربـاك. ورؤيتـه لقيحْ في زوايـة عينه، أو لسن متعفن أو ساقط، أو لمادة شمعية، أو شامات أو بثور جلديـة ـ كل الافرازات الطبيعية وكل مايقدر الجسد على إفرازه حماية له ـ يفقده هدوءه. ولذلك تركز اهتمامه، تدريجياً، على تلك الكائنات البشـرية الـتي كانت أجسادها أقل ازعاجاً ــ الأطفـال. ولكـن مـادام حييّـاً جـداً بحيـث لايسـتطيع مواجهـة الشـذوذ ومـادام الأطفـال الصغـار مؤذيـن وعنيديـن ومروّعين، فإنه حصر اهتمامه على الفتيات الصغيرات. إنهن طيعّات عـادة ومغريـات في أغلـب الأحيـان. لم يكـن نشـاطه الجنسـي داعـراً، فرعاتيـه للفتيـات الصغـيرات كـانت فيهـا مسـحة مـن الـبراءة، وترتبـط في ذهنــه بالنظافة. كان مايمكن أن يسميه المرء رجلاً عجوزاً نظيفاً جداً.

إنه رجل من جزر الهند الغربية بعيون بلون القرفـة وجلـد ذي سمـرة خفيفة.

كان سكان المدينة يدعونه بـ«سوفيد تشيرش» رغم أنّ اسمه الأول كـان مطبوعاً على لوحة على نافذة المطبخ، وعلى بطاقات العمل الـتي يوزعهـا. لاأحد يعرف من أين جاءت كلمة «تشيرش» وأضيفت لاسمه ـ ربمـا تذكـر أحدهم عملـه ككـاهن ضيـف ــ والكهـان الضيـوف هـم كهـان يُدْعـون إلى الكنيسة ولكن يبقون بدون رعية، ويقومـون باسـتمرار بزيـارات إلى كنـائس أخرى، ويجلسون على المذبح مع الكاهن المضيّف. ولكن كل شـخص كـان يعرف ماذا يعني اسم «سوفيد» ــ الشـعر المجعّـد، المشـدود، الـذي يلمـع ويتموّج عندما يدهن برغوة الصابون. وهو نوع من العمليات البدائية.

لقد تربى في عائلة فخورة بانجازاتها الأكاديميـة ودمهـا المختلـط ــ وفي الحقيقة إنهم يؤمنون بأن الحالة الأولى كانت أساسـاً للحالـة الثانيـة. لقـد أدخل السير ويتكوب ـ وهو نبيل بريطاني أفلُ نجمه، واختار أن يتفسـخ تحت الشمس أسرع من تفسخ انكلترا ـ العنصر الأبيض إلى العائلة في بداية ١٨٠٠. لقد عمل، بعد أن أصبح نبيلاً بأمر من الملك، شيئاً حضارياً لولـده الخلاسي غير الشرعي ـ فقد منحه ثلاثمائة باوند استرليني ترضيـة لأمـه، التي شعرت أن هذه الثروة نعمة هبطت عليها.

كان ابن الزنى يشعر بالعرفان أيضاً، واعتبر أن هدف حياته هو ترميم هذا العنصر الأبيض. فوهب رعايته لفتاة ذات خمسة عشر عاماً من النسب نفسه، لقد تعلمت، مثل باروديا(*) فيكتورية بارعة، كل ماهو جدير بالتعلم من زوجها ــ أن تفصل نفسها جسداً، وعقلاً، وروحاً عن كل مايذكّر بافريقيا، وأن تنمي العادات، والذوق، والخيارات التي يستحسنها حماها وحماتها الغائبين.

لقد نقلا هذه «الانجلزة» إلى أطفالهم السته وأحفادهم الستة عشر. وماعدا شخص واحد متمرد غير مسؤول اختار زوجة سوداء حرون، فإن الباقين تزوجوا نساء من «الأعلى» فتّحن بشرة العائلة، ورقرقن ملامحها.

وبسبب الثقة المتولدة عن قناعة بالتفوق، كانت انجازاتهم المدرسية جيدة. كانوا مجدّين، منظمين، فعالين، وأملوا أن يبرهنوا على الصحة المطلقة لفرضية دي جوبينو القائلة:

«بأن كل الحضارات تنشأ من الجنس الأبيض، وأن لاحضارة توجد دون مساعدتهم، وأن المجتمع يبقى عظيماً وباهراً فقط حين يحافظ على دم المجموعة النبيلة التي أبدعته».

ولذلك فإنهم نادراً ما يُهملون من قبل المدرسين الذين يقدمون توصيات عن الطلاب الواعدين للدراسة في الخارج. درس الرجال الطب، والقانون واللاهوت، وبرزوا في إدارة المكاتب الحكومية الضعيفة المتاحة للسكان الأصليين. وإذا كانوا فاسدين في ممارساتهم الخاصة والعامة. فاسقين وداعرين، فقد اعتبر ذلك حقاً لهم كنبلاء، واستلطفتهم أغلبية السكان الأقل كفاءة.

أصبح من الصعب، بمرور السنوات وبسبب طيش بعض أخوة ويتكومب. المحافظة على نقاء بياضهم، وتزوج بعض الأقارب البعدين وغير البعيدين من بعضهم البعض. لم تلاحظ آثار سيئة واضحة من هذه الاتحادات الطائشة، ولكن ظهرت علائم ضعف عقلية عند واحدة أو

(*) باروديا: أثر أدبي أو موسيقى يحاكى فيه أسلوب مؤلف مابشكل يثير الضحك والهزء.

اثنتين من الخادمات المسنّات. أو البستانيون الرجال. ونزعات غريبة الأطوار عند بعض الأطفال، وخلل أكثر من كونه مجرد فسق أو إدمان الكحول. واعتبروا الزيجات المختلطة مسؤولة عن هذا الخلل، وليس الجينات الأصلية للورد الذاوي وعلى أية حال، كانت هناك ضربات حظ، لكن ضربات الحظ هذه لم تكن متوفرة أكثر مما هي متوفرة في العائلات الأخرى، غير أنها بالتأكيد محفوفة بالمخاطر أكثر لأنها أكثر قوة. كان أحدهم متطرفاً دينياً اكتشف طائفته الدينية السرية، وأنجب أربعة أولاد أصبح واحد منهم مدير مدرسة عرف بدقة أحكامه وسيطرته على مشاعره العنيفة، تزوج مدير المدرسة هذا امرأة جميلة، نصف صينية، خاملة إلى درجة أن الحمل كان يبدو أمراً فوق طاقتها. ماتت سريعاً بعد الولادة، ووفر طفلها، المسمى أليهو ميخا ويتكومب، فرصاً إضافية للمدير ليحقق نظرياته في التعليم، والانضباط، والحياة الطيبة. تعلم الصغير أليهو كل شيء احتاج أن يعرفه جيداً، وخاصة فن خداع الذات. كان يقرأ بشراهة ويفهم بانتقاء، ويختار مقتطفات من أفكار الآخرين تدعم نزوعه الآني. وهكذا اختار أن يتذكر معاملة هاملت السيئة لأوفيليا، وليس حب المسيح لمريم المجدلية، آراء هاملت السياسية الطائشة، وليس عدم امتثالية المسيح الخطيرة، حدة جيبون وليس تسامحه، حب عطيل لديدمونة الجميلة، وليس حب إياجو الشرير لعطيل. وكانت الأعمال الأدبية المعجب بها أكثر هي أعمال دانتي، والأعمال التي يحتقرها أكثر هي أعمال دوستويفسكي. ومن خلال كشفه لأعمال أفضل العقول في العالم الغربي، لم يسمح سوى للتأويلات المحدودة أن تؤثر فيه. وانعكس رد فعله على عنف أبيه المكبوح، في تطويره عادات قاسية وخيالاً عاطفياً. كراهية لأي قدر من الفوضى والتفسخ وافتتان بهما في الوقت نفسه.

في السابعة عشرة من عمره، التقى بـ«بياتريسه»(*) التي كانت تكبره بثلاث سنوات. فتاة لطيفة، مرحة، ذات سيقان ضخمة، كانت تعمل

(*) بياتريس: هي حبيبة دانتي (م)

موظفة في القسم الصيني في مخزن. اسم الفتاة: فيلما. كان حبها وشـهوتها للحياة كبيرين، وأثرت فيهـا حساسية الهيـو الشـديدة، وافتقاره الكـامل لحس الدعابة، فأرادت أن تعرّفه على فكـرة السعادة. قـاوم هـذا التقديـم ولكنها، على أية حال، تزوجته لتكتشف بعد ذلـك أنـه كـان يعـاني مـن سوداوية عصية على العلاج، وإنه كان يستمتع بسوداويته. وعندما عرفت، بعد شهرين من الزواج، كم كانت هذه السوداوية ضروريـة لـه، وكـم كـان راغباً بتحويل سعادتها إلى غـم أكـاديمي، وكيـف كـان يتعـامل مـع فعـل الحب وكأنه عشاء رباني، تركته ببساطة. إنها لم تعش بجوار البحر طوال تلك السنوات، مستمعة لأغاني رجال الميناء كل الوقت لتنهـي حياتهـا في كهف لايسبر غوره في عقل ألهيو.

لم يتعافَ من هجرانها له قط. كان عليها أن تكونّ جواباً علـى سؤاله غير المعلن وغير المسلّم به، أين هي الحياة لمواجهـة العـدم الزاحـف؟ كـان على «فيلما» أن تنقذه من العـدم الـذي عرّفـه علـى الجـانب الكئيـب مـن المنطقة التي عاش أبوه فيها. ولكنه قاومها بمهارة إلى الدرجة التي دفعتهـا أخيراً للهرب من السأم المحتوم الذي تحدثه حياة كهذه صعبة المتطلبات.

أُنقذ الشاب ألهيو من هلاك لاريب فيه على يد أبيه الذي ذكّره بسمعة العائلة، وحذره من الفتيات على شاكلة فيلما المشكوك فيها.

ثم تابع دراساته بنشاط أكثر من السابق، وقرر أخيراً أن يدخل الوزارة. وعندما أُخطر أنه لايملك الكفاءة، ترك الجزيـرة وأتـى إلى أمريكـا ليـدرس علم النفس الذي كان مايزال وليداً حينئذٍ، ولكن الموضوع كان يتطلب قـدراً كبيراً من الحقيقة، وكثيراً من التحديات، ولايقدم سوى عون بسيط لـ«أنـا» مخذولة، فانتقل إلى علم الاجتماع ثم إلى مجال العلاج الطبيعي. استمر هذا التعليم المتعدد الأشكال لمدة ست سنوات لحين رفض والده مساعدته حتـى «يجـد» نفسـه. وعـاد ألهيو، وهـو لايعـرف إلى أيـن يتجـه، إلى وسـائلة القديمة ا، و«وجد» نفسه غير قادر على كسب المال. وبدأ يغـرق سريعاً في مظاهر حياة ارستقراطية تتهرأ سريعاً. تخلّل ذلك عمله في وظـائف مكتبيـة متوفرة للسود بغض النظـر عـن نقـاوة الـدم: موظـف استعلامات في فنـدق

للملونين في شيكاغو، وكيل تأمين، بائع متجول لشركة مستحضرات تجميل تقدم خدماتها للسود، واستقر، أخيراً، في لورين، أهيو، في العام ١٩٣١ فارضاً نفسه بالحيلة والخداع، وكأنه وزير، موحياً بالهيبة من خلال طريقة تحدثه بالانجليزية. واكتشفت نساء المدينة سريعاً كيف يغزون بيته، ولم يستطعن أن يفهمن سبب رفضه لهن، فقررن أنه إنسان فوق طبيعي أكثر من كونه غير طبيعي.

حالما عرف بحكمهن هذا، استغل ذلك حتى النهاية، وقبل بالاسم «سوفيد تشيرش» والدور الذي أعطينه إياه. استأجر شقة ذات غرفة خلفية من سيدة عجوز شديدة التدين تدعى بيرثاريس. كانت نظيفة، هادئة، وعلى وشك الإصابة بصمم كامل. كان المسكن مثالياً من كافة النواحي، ماعدا ناحية واحدة، فقد كان لبرثاريس كلب عجوز اسمه بوب، وبالرغم من أنه كان أصمّ وهادئاً مثلها، فإنه لم يكن بمثل نظافتها. كان ينام أغلب أيامه على المدخل الخلفي الذي يدخل منه ألهيو. كان الكلب عجوزاً جداً بحيث لافائدة ترجى منه، ولم تملك بيرثاريس القوة أو حضور الخاطر لتعتني به العناية اللائقة. كانت تطعمه، وتغسله، وتتركه وحيداً. وكان كلباً أجرب أيضاً، عيناه بلون الطحالب البحرية حيث يتحلق الذباب والبعوض وكان ذلك يثير التقزز في نفس سوفيد بحيث تمنى لو أنه يموت سريعاً. واعتبر أن هذه الأمنية هي أمنية إنسانية، لأنه لايستطيع، كما قال في نفسه، أن يحتمل معاناة أيّ كائن، لم يخطر على باله أنه كان مهتماً في الحقيقة بمعاناته هو وليس بمعاناة الكلب الذي كيّف نفسه مع الضعف والكبر.

قرر سوفيد أخيراً أن يضع نهاية لتعاسة الحيوان، فاشترى سماً ليحقق ذلك. رعب الاقتراب منه فقط هو الذي منعه من إكمال مهمته. وانتظر لحظة اشمئزاز أو غضب أعمى لينخسه.

هناك حيث عاش بين أشيائه الباليه، كان ينهض باكراً في الصباح من نوم بلا أحلام، ويقدم مشورته لأولئك الذين جاؤوا سعياً وراء نصيحته.

كان عمله مروّعاً. يأتي الناس في فزع، يهمسون في فزع، وينتحبون في فزع، ويلتمسونه في فزع، وكان الفزع هو ما يُنصح به.

فرادى يجدون طريقهم إلى بابه، وكل ملتفّ بحجاب مرتّق بالغضب، والأشواق، والكبرياء، والانتقام، والوحشة، والبؤس، والهزيمة، والجوع، كانوا يسألون عن أبسط الأشياء: الحب، والصحة، والمال. أخبرني ماذا يعني هذا الحلم ساعدني في التخلص من هذه المرأة. اجعل أمي تعيد لي ملابسي. أوقف يدي اليسرى من الرجفان. أبعد روح طفلي عن الموقد. خلصني من عادة ادمان المخدرات. كان ينكب على كل هذه الطلبات وعلمته الممارسة أن يفعل مايطلب منه - أن لايوحي لأي شخص بان طلبه غير عادل، أو وضيع، أو ميئوس منه.

بين فترة وأخرى فقط، وبشكل نادر جداً، وخلال مقابلاته مع الفيتات الصغيرات، كان يقتنع ببعض التسلية لنفسه. عاش بسلام غير شاعر بأيّ ندم، غير أنه كان يدرك، بالطبع، بأنّ هناك شيئاً معّوجّاً في حياته، وكل الحيوانات، ولكنه كان يضع المشكلة في مكانها...إنها مسؤولية من ينشيء الحياة. آمن أنّ انتشار التفسخ. والرذيلة، والفسق، والفوضى لابد أن يكون من «طبيعة الأشياء». وُجد الشيطان لأن الله قد خلقه. إنه، الله، قد ارتكب خطأً فاحشاً لايغتفر: صمم كوناً غير كامل. وبرّر علماء اللاهوت وجود الفساد كوسيلة تختبر فيها مجاهدة الانسان وانتصاره.

انتصار للترتيب الكوني. ولكن هذا الترتيب، ترتيب دانتي، كان ذا تقسيم وعزل منظم لكل مستويات الشر الشرّ والانحطاط عن المستويات الأخرى. ولكنه ليس الأمر كذلك في هذه الحياة الدنيا. النساء الأكثر تأنقاً يجلسن في التواليت، وأكثر النساء بغضاً يمتلكن أشواقاً نقية مقدسة، لقد قام الله بعمل بائس، وراودت سوفيد الظنون بانه هو نفسه قد يكون بإمكانه أن يقوم بعمل أفضل. ومن المثير للشفقة أن الخالق لم يسأله مشورته.

كانت هذه الأفكار تتوارد على ذهن سوفيد في نهاية ظهيرة حادة عندما سمع دقة على بابه. حين فتح الباب، رأى فتاة صغيرة، غير معروفة تماماً بالنسبة إليه. كانت في حوالي الثانية عشرة من عمرها، بدت له قبيحة بشكل مثير للشفقة. لم تجبه حين سألها عمّا تريد، ولكنها ناولته بطاقة

من بطاقاته التي يعلن فيها عن مواهبه وخدماته: «إذا هزمتك المصاعب والظروف غير الطبيعية. فأنا أستطيع أن أزيلها. أستطيع أن أُبطل السحر، والحظ السيء، وقوى الشر الخفية، تذكر، أنا روحاني حقيقي، وقارئ وسيط، ولدت بقوة خارقة، وسأساعدك. وستحصل على مريضك بزيارة واحدة. خلال سنوات عديدة من الممارسة زوّجت الكثيرين، وجمعت أزواجاً كثيرين بعد انفصالهم، إذا كنت تعيساً، مثبط الهمة، أو تعاني من محنة، فأنا أستطيع أن أساعدك.

هل يلاحقك الحظ السيء دائماً؟ هل تغيّر الشخص الذي تحبه؟ أستطيع أن أخبرك لماذا. سأخبرك من هم أعداؤك ومن أصدقاؤك، وإذا كنت مريضاً فسأدلك على طريق الصحة. إني اكشف مكان السرقات والأشياء الضائعة. التعويض مكفول».

طلب منها سوفيد أن تدخل.

- «ما الذي أستطيع فعله لك ياطفلتي؟»

وقفت هناك، ويداها منثنيتان على بطنها التي برز منها انتفاخ صغير.

- «ربما تستطيع أن تفعلها لي».

- «أفعل ماذا؟»

- «لم أعد أستطيع الذهاب إلى المدرسة. وفكرت أنك ربما تستطيع مساعدتي».

- «كيف أساعدك؟ أخبريني، لاتخافي».

- «عيناي».

- «مابهما عيناك؟»

- «أريدهما زرقاوين».

زمّ سوفيد شفتيه، ومرّر لسانه على حشوة ضرسه الذهبية، إنّه المطلب الأكثر غرابة والأكثر منطقية في آن واحد. طلب لم يتلقَ مثله قط. هنا فتاة صغيرة قبيحة تطلب الجمال. غمره جيشان من الحب والفهم، ولكن سرعان ماحل محلهما الغضب. الغضب من كونه عاجزاً عن مساعدتها.

بدت له هذه الرغبة من بين كل الرغبات التي يريد منه الناس تحقيقها ـــ المال، الحب، الانتقام ـ الرغبة الأكثر استحقاقاً. فتاة صغيرة سوداء تريد أن تنهض من وجرة السواد، وترى العالم بعينين زرقاوين. رغب، بصدق للمرة الأولى لو أنه بإمكانه أن يصنع المعجزات. لم يطلب من قبل القوة الحقيقية المقدّسة حقاً. كان يطلب فقط القوة لجعل الآخرين يعتقدون أنه يملكها. ومن المحزن جداً ومن السخافة أن يكون الحائل دونها الجنس البشري وليس الحكم الإلهي.

رسم علامة الصليب فوق رأسها بيد مرتعشة. تخدر جسده، وشعر بالقشعريرة في تلك الغرفة الصغيرة الحارة المعتمة، غرفة الأشياء البالية: «لاأستطيع فعل شيء لك ياطفلتي الصغيرة. لست ساحراً. أنا وسيط الله فقط. إنه يستخدمني لخدمة الناس أحياناً.

ـ «كل ما أستطيع فعله هو تقديم نفسي كأداة يعمل من خلالها. إذا أراد الرب أن يعطيك، فسيحقق رغبتك».

اتجه سوفيد نحو النافذة مديراً ظهره للفتاة. تسارعت أفكاره ثم تباطأت ثم تسارعت ثانية. كيف يصوغ الجملة التالية؟ كيف يتمسك بالشعور بالقوة؟ سقطت عيناه على«بوب» العجوز النائم في المدخل.

ـ «يجب أن نقدم قرباناً، يعني اتصال ما مع الطبيعة. قد يكون مخلوق بسيط هو الأداة التي سيتكلم من خلالها الله.«لنرَ».

انحنى فوق النافذة، وحرك شفتيه. ونهض، بعد فترة زمنية مناسبة، واتجه إلى الثلاجة الموجودة قرب النافذة ليتناول حزمة صغيرة ملفوفة بورقة قرنفلية. تناول من الرف قنينة رمادية صغيرة ورش بعضاً من محتوياتها على مادة داخل الورقة، ثم وضع الرزمة، المفتوحة جزئياً، على الطاولة.

ـ «خذي هذا الطعام وأعطيه لذلك المخلوق النائم في المدخل. تأكدي من أكله له. وانتبهي جيداً إلى سلوكه. إذا لم يحدث شيء فستعرفين أن الله يرفضك وإذا تصرف الحيوان بشكل غريب، فان رغبتك ستمنح لك في اليوم التالي لهذا اليوم».

حملت الفتاة الحزمة. رائحة الظلام، واللحم اللزج جعلاهما تشعر بالرغبة في التقيؤ، فوضعت يدها على بطنها.

«تشجعي، تشجعي يافتاة. هذه الأشياء لاتمنح لأصحاب القلوب الضعيفة».

أومأت برأسها، وفهمت بوضوح، حابسة داخلها القيء. فتح سوبهيد الباب، ومشت مسرعة على العتبة.

«مع السلامة، وليباركك الله». قال لها وأغلق بسرعة الباب. وقف عند النافذة يراقبها، وقد عقد حاجبيه في فيضان من الحنو، فيما كان لسانه يتحرك على حشوة الذهب البالية في فكه الأعلى. رأى الفتاة تنحني على الكلب النائم الذي فتح أحدى عينيه الصافيتين حين لمسته، كان ممدداً هناك في الزاوية مع مايبدو وكأنه غراء أخضر. لمست رأسه، وربتت عليه بلطف. وضعت بعد ذلك اللحم على أرضية المدخل قرب أنفه. أثارته الرائحة فرفع رأسه ثم انتصب ليشمها بشكل أفضل ازدرد اللحم بثلاث أو أربع لقيمات ربتت الطفلة على رأسه ثانية، ونظر الكلب إليها بعينيه الرائقتين المستطيلتين. سعل فجأة، سعال رجل عجوز مليء بالبلغم. انتصب على قدميه. قفزت الفتاة، تقيأ الكلب، لاك فمه الهواء، وسقط فوراً. حاول أن يُنهض نفسه، لم يستطع حاول ثانية، وسقط نصف سقطة على الدرجات. تحرك غاصّاً بالطعام متعثراً، مثل دمية مكسورة على الفناء. كان فم الفتاة مفتوحاً تبين منه تويجية صغيرة. عملت إثارة عنيفة بلامعنى بإحدى يديها، ثم غطت فمها بكلتا يديها. سقط الكلب ثانية والتشنج يهزّ جسمه هزاً عنيفاً. ثم هدأ. تراجعت الفتاة، ويداها على فمها، بضعة أقدام، ثم استدارت، وركضت بعيداً عن الفناء باتجاه الطريق.

اتجه سوفيد نحو الطاولة. جلس إليها ويداه منثنيتان، سانداً جبهته على سلاّمتي إبهاميه. نهض واتجه نحو منضدة صغيرة ذات جرار سحب منه ورقة وقلم حبر. كانت المحبرة على الرف نفسه الذي وضع عليه علبة

السم. جلس ثانية إلى المنضدة مع هذه الأشياء. ببطء، وعناية، وأعجاب باسلوب خطه، كتب هذه الرسالة:

«للذي شرف الطبيعة البشرية شرفاً عظيماً بخلقه لها»

إلهي العزيز:

الغرض من هذه الرسالة هو أن أحيطك علماً بوقائع إما فاتتك ملاحظتها، أو أنك اخترت تجاهلها.

في سالف الأيام عشت حدثاً غضاً في جزيرة من جزرك. في جزيرة من مجموعة جزر في جنوب الأطلنطي، بين شمال وجنوب إفريقيا، تحيط بالبحر الكاريبي، والخليج المكسيكي، مقسمة إلى الأنتيل الكبرى، والأنتيل الصغرى، وجزر باهاما، ليس في مستعمرات «وندورد» أو «ليورد» ولكن ضمن حدود الجزيرة الأكبر في الأنتيل (قد تكون هذه الدقة في كتابتي مضنية لك ولكن من الضروري أن أقدم إليك تعريفاً وافياً عني)

والآن....

نحن، في هذه المستعمرة، نأخذ السمات الأكثر دراماتيكية والأكثر وضوحاً من بين سمات أسيادنا البيض، التي هي، بالطبع، أسوأ سماتهم. وفي عملية الحفاظ على هوية عرقنا، فنحن نتشبث سريعاً بتلك السمات ونثبتّها ونصونها، وبناء على ذلك، فنحن لسنا ملكيين بل نفّاجين، ولسنا ارستقراطيين، ولكن واعين طبقياً، آمنا أن السلطة هي القسوة على الناس الأقل شأناً، وأن التعليم هو في المدارس فقط. حسبنا العنف عاطفة، والتراخي فراغاً، وظننّا الطيش حرية. ربينّا أطفالنا، ونمينا محاصيلنا. تركنا الأطفال يكبرون، والملكية تنمو. حُددت ذهنيتنا بالرضوخ، وأنوثتنا بالرضوخ. كرهنا رائحة ثمارك، وعمل أيامك.

هذا الصباح، وقبل أن تأتي الفتاة الصغيرة السوداء، بكيت ـ من أجل فيلما. أوه، ليس بصوت عال. ليست هناك ريح تحمل، أو تتحمل، أو حتى ترفض أن تتحمل، صوتاً مثقلاً بالندم. لقد بكيت بطريقتي الصامتة الموحشة ـ بسبب فيلما ـ تحتاج أن تعرف فيلما حتى تفهم مافعلته اليوم.

إنها (فيلما) تركتني بالطريقة نفسها التي يترك فيها الناس غرفة في فندق. غرفة في فندق هي المكان الذي تكون فيه عندما تعمل شيئاً آخر. إنها بذاتها ليست ذات أهمية بالنسبة لعمل الشخص الرئيسي. غرفة في فندق مكان ملائم. ولكن ملاءمتها محدودة بالوقت الذي تحتاجه في مدينة معينة لتنجز عملاً معيناً. تأمل أن تكون غرفة مريحة. ولكن تفضل، من غير ريب، أن تبقى مجهولة، لأنها، قبل كل شيء، ليست المكان الذي تعيش فيه.

عندما لاتعود تحتاجها، تدفع شيئاً قليلاً مقابل استخدامها. قائلاً: «شكراً ياسيد». وعندما تنتهي مهمتك في تلك المدينة، تغادر تلك الغرفة. هل يشعر أي امرئ بالأسف لمغادرته غرفة؟ هل يريد أي امرئ يملك بيتاً، بيتاً حقيقياً، في مكان ما، أن يبقى فيها؟ هل يلتفت أي امرئ لغرفة فندق بحب، أو حتى باشمئزاز، عندما يغادرها؟ إنك تستطيع فقط أن تحب أو تحتقر مافعلته من أجل عيشك في تلك الغرفة، ولكن الغرفة نفسها؟ قد تأخذ تذكاراً، ولكن، أوه، ليس لتتذكر تلك الغرفة، بل لتتذكر وقت ومكان عملك، ومشروعك. ماالذي يمكن أن يشعر به أيّ امرئ تجاه غرفة فندق؟ لايشعر المرء بأي شيء تجاه غرفة فندق مثلما لايتوقع المرء أن تشعر الغرفة بأي شيء تجاه ساكنها.

هكذا، هكذا ياأبانا القدوس تركَتْني، أو، بالأحرى، أنها لم تتركني، لأنها لم تكن هناك قط.

أنت تتذكر، أليس كذلك؟ كيف جُبلنا، ومم جُبلنا؟ دعني الآن أخبرك حول صدو ر الفتيات الصغيرات. اعتذر لعدم ملاءمة (هل الكلمة مناسبة؟)، وعدم التوازن في حبهن في الأوقات الخطأ من اليوم، والأماكن الخطأ، وقلة الذوق في عدم حبي لأولئك الذين ينتمون إلى عائلتي. هل عليّ أن اعتذر عن حبي للغرباء؟ ولكنك مخطىء هنا يا إلهي أيضاً؟ كيف ولماذا سمحت أن يحدث ذلك؟ كيف بإمكاني أن أرفع عينيّ عن تأمل جسدك، واستغرق في تأمل أجسادهن؟ البراعم. البراعم على بعض تلك الشجيرات. كن خبيثات، كما تعرف، ورقيقات. البراعم الصغيرة الخبيثة

تقاوم اللمس، وتقفز مرتدة كالمطاط. ولكنهن عدوانيات. يتحدينني أن ألمسهن. يأمرنني أن ألمسهن. لسن خجولات مطلقاً، كما قد تفترض، أنهن يلتصقن بي، أوه نعم، يلتصقن بي، فتيات صغيرات، بصدور ناعمة، بصدور ناتئة. هل رأيتهن يا إلهي؟ أعني هل رأيتهن حقاً؟ لايستطيع أحدٌ أن يراهنّ ولا يُحبهن. ولابد أنك أخذت باعتبارك. أنت الذي خلقتهن، أن يكنّ جميلات حتى كفكرة ـ كم كان تجلّي تلك الفكرة أكثر جمالاً! لم أستطع، كما قد تتذكر، أن أبعد يدي وفمي عنهن. حلاوة مالحة ليس مثل فريز ناضج تماماً مغطىً بالعرق المالح للأيام الجارية، والساعات المنسلة المتقافزة.

أن حبهن ـ لمسهن، تذوّقهن، وتحسسهن، ليس مجرد رذيلة انسانية ساذجة ناشئة عن ترف، إنهن، بالنسبة لي، شيء أفعله بدلاً عن شيء آخر، بدلاً عن البابا، بدلاً عن الأكليروس، بدلاً عن فيلما، واخترت أن لاأقوم بأيّ شيء بدونهن. ولكنني لم أدخل الكنيسة. لم أفعل ذلك في الأقل. ولأيّ شيء أفعل ذلك؟ لقد أخبرت الناس أنني أعرف كل شيء عنك، وأني قد تسلمت كلّ قدراتك. إنها ليست كذبة كاملة، ولكنها كذبة كاملة. ماكان ينبغي عليّ أن أقرّ بذلك، ماكان ينبغي عليّ أن آخذ المال مقابل أكاذيب مصاغة جيداً، وموضوعة جيداً، وموجهة جيداً. ولكنني، انتبه، أكره ذلك. لم أحب للحظة الكذب أو المال.

ولكن خذ باعتبارك: المرأة التي تركت غرفة الفندق.

خذ باعتبارك: ذلك الوقت المفعم بالحياة، والظهيرة في الأرخبيل.

خذ باعتبارك: عيونهن المفعمة بالأمل التي لاتتفوق عليها سوى صدورهن الرجراجة.

خذ باعتبارك: كم كنت احتاج إلى إثم مريح ليحول دون معرفة مالا أستطيع أن أتحمل معرفته.

خذ باعتبارك: كم كرهت واحتقرت المال.

والآن خذ باعتبارك: ليس وفقاً لعقوبتي المستحقة العادلة، تلك الفتاة الصغيرة السوداء التي أتتني مخبولة اليوم... كيف كان بإمكانك ياإلهي أن

تترك صبية وحيدة كل هذا الوقت الطويل إلى أن استطاعت أن تجد طريقها إليّ، كيف احتملت؟ إني أبكي من أجلك يا إلهي، أبكي من أجلك لأنه كان علي أن أؤدي عملك من أجلك.

هل تعرف لماذا أتت؟ من أجل عيون زرقاء، قالت، عيون جديدة زرقاء، كما لو أنها تريد أن تشتري حذاء جديداً «أريد عينين جديدتين زرقاوين» لابد أنها طلبتهما منك لفترة طويلة جداً، ولكنك لم ترد (كان بإمكاني أن أخبرها أنها عادة، عادة قديمة توقفت منذ أيوب). أتت إليّ من أجلهما. وكانت تحمل واحدة من بطاقاتي (البطاقة مرفقة). وبالمناسبة. أضفت اسم ميخا ـ ألهيو ويتكومب. ولكني أُدعى سوفيد تشرتش. لاأستطيع أن أتذكر كيف ولماذا حصلت على الاسم. ماالذي يجعل اسماً مايضيف قيمة لشخص دون غيره؟ هل الاسم، إذاً، هو الشيء الحقيقي؟ والشخص هو فقط مايقوله اسمه؟ هل هذا السبب وراء عدم أجابتك السؤال الأكثر بساطة وحميمية: «ما اسمك؟» الذي أعطاك أياه موسى، وقولك بدل ذلك: «أنا من أنا»، مثل «بوباي»؟ أنا من أنا؟ هل تخشى ألاّ تُخشى؟ أن تصرح باسمك؟ تخشى أن يعرفوا الاسم، فيعرفونك، وبالتالي لن يعودوا يخشونك؟ حسن؟ لاتغضب. لاأقصد الاساءة إليك. إني أفهم. إني رجل سيء أيضاً، ورجل غير سعيد أيضاً؟ ولكني، يوماً ما، سأموت. لقد كنت دائماً رجلاً مجنوناً. لماذ يجب أن أموت؟ الفتيات الصغيرات. الفتيات الصغيرات هن الشئ الوحيد الذي سأفتقده. هل تعرف إني عندما كنت ألمس حلماتهن الصغيرة الصلبة. وأعضهن ـ قليلاً فقط ـ كنت أشعر شعوراً صداقياً؟ لم أرغب بتقبيل شفاههن أو النوم معهن أو اتخاذ عروسة صغيرة لي. كنت أمزح كصديق. ليس كما تقول الصحف. ليس كما يهمس الناس. هن كن لايمانعن أبداً أبداً هل تتذكر كيف أن عدداً كبيراً منهن كان يعود ثانية؟ لم يحاول أحد فهم ذلك. لو كنت آذيهن، هل كنَّ يعدن ثانية؟ أتت اثنان منهن، «دورين» و«شوغر بابي» معاً. لقد أعطيتهما حلوى منكهة بالنعناع ونقوداً، وأكلتا الآيس كريم وسيقانهن مفتوحة بينما كنت أمزح معهما. كنا وكأننا في حفلة. لم تكن هناك قذارة، ولم يكن هناك أية

بذاءة. ولم تكن هناك أية روائح، أو تأوهات ـ فقط ضحكاتنا الخفيفة البريئة. لم تكن هناك نظرة ـ نظرة تواقة ضحكة مثل نظرة «فيلما» فيما بعد. ولانظرة تجعلك تشعر بالقذارة بعد ذلك. تجعلك ترغب بالموت. مع الفتيات الصغيرات كان الأمر نظيفاً ونبيلاً وصداقياً.

ينبغي عليك أن تفهم ذلك، أيها الرب. لقد قلت «الأطفال الصغار المعذّبون يرثونني، فلا تسيئوا إليهم». هل نسيت؟ هل نسيت ماقلته عن الأطفال؟ نعم، لقد نسيت. أنت تدعهم محتاجين جالسين في زوايا الطرق، باكين بجوار أمهاتهم الهامدات لقد رأيتهم متفحّمين، معقدين، وعرجاً. لقد نسيت ياالله. لقد نسيت كيف ومتى تكون إلهاً.

لهذا السبب غيرت أنا عيون الفتاة الصغيرة السوداء، دون أن ألمسها. لم أضع أصبعاً واحدة عليها. ولكنني أعطيتها تلك العيون الزرقاء التي أرادتها. ليس من أجل المتعة، وليس من أجل المال. لقد فعلتُ مالم تفعله أنت، ولم تستطع أن تفعله، ولن تفعله، نظرت إلى تلك الفتاة الصغيرة السوداء، وأحببتها. لقد مثّلت دورك. وكان عرضاً جيداً جداً!.

أنا، أنا أحدثت معجزة، لقد منحتها العينين، منحتها عينين زرقاوين، عينين اثنين زرقاوين. عينين زرقاوين مخضرتين. لاأحد غيري سيرى عينيها الزرقاوين.هي فقط ستراهما. ستعيش سعيدة للأبد بعد ذلك. أنا، أنا وجدت ذلك صحيحاً ففعلته.

هل ترى؟ أنا أيضاً خلقت. ليس بشكل بدائي، مثلك، فالخلق شراب مسكر للذائق أكثر مما يكون للمخمّر.

ولأنني قد سكرت، إذا صح التعبير، بالرحيق الإلهي فإنني لست خائفاً منك، لست خائفاً من الموت، ولست خائفاً حتى من الحياة، والأمر على مايرام مع فيلما، والأمر على مايرام مع البابا، والأمر على مايرام مع آنتيل الكبرى والصغرى. على مايرام تماماً تماماً.

مع أرق تمنياتي
المخلص لك دائماً
ألهيو ويكا ويتكومب

طوى سوفيد تشرتش الورقة ثلاث طويات متساوية، ووضعها في مظروف. لأنه لايملك ختماً، أخذ يفكر بالشمع الأحمر. تناول علبة السيكار من تحت السرير وأخذ ينقّب فيها. هناك بعضة أشياء من أشيائه الثمينة زر فضي سقط من كم قميص في فندق شيكاغو. قلادة ذهبية على شكل حرف «Y» مع قطعة مرجان معلقة بها تعود إلى الأم التي لم يعرفها قط، أربعة دبابيس شعر كبيرة تركتها «فيلما» على مغسلة الحمام، وشاح حريري لرأس فتاة تدعى بريش جول. رأس خنفية مسود أخذه من مغسلة في زنزانة سجن في سينسيناتي، تمثالان رخاميان وجدهما تحت دكة في منتزه «مدرنفسايد» في يوم ربيعي جميل، كتالوج بلون البندق ذو رائحة كريهة، وبودرة وجه.

نسيَ ما كان يبحث عنه لانشغاله بهذه الأشياء. بذل مجهوداً كبيراً ليتذكر. كان هناك طنين في رأسه، وغلبه التعب. أغلق العلبة، وأراح جسده على السرير، ثم غاب في نوم عميق لم يسمع خلاله صراخ امرأة عجوز خرجت من حانوتها ووجدت الجثة الهامدة لكلب عجوز اسمه بوب.

الصيف

كان علي فقط أن أقتحم شجيرات الفريز الكثيفة حتى أرى الصيف ـ غباره وسماواته الخفيفة. إنه يبقى، بالنسبة لي، فصل العواصف. لاأميّز في ذهني بين النهارات التي على تبعث على الجفاف، و الليالي اللزجة. ولكن العواصف، العواصف العنيفة المفاجئة ترعبني وتبعث فيّ الخمود معاً. أتذكر عاصفة صيفية حدثت في المدينة التي كنت أعيش فيها، وأتخيل الصيف الذي عرفته أمي في العام ١٩٢٩. حدث أعصار في تلك السنة، كما تقول، أطار بنصف جنوب لورين. إني أخلط صيفها مع صيفي. أراها تقضم الفريز وتفكر في العواصف. فتاة شابة نحيلة في ثوب قرنفلي ذي قماش رقيق مجعّد. إحدى يديها فوق وركها، والأخرى تتدلى فوق فخذها ـ في حالة انتظار. تنقض عليها الريح، ترفعها عالياً فوق المنازل، ولكنها ماتزال واقفة، ويدها فوق وركها، باسمة. التوقع والوعد تبدلهما المحرقة. لم تنكسر يد أمي في أعصار ١٩٢٩. إنها قوية، باسمة، مسترخية بينما كان العالم يتساقط حولها. أشياء كثيرة تخزنها الذاكرة. الواقعة العامة تصبح واقعاً خاصاً، وفصول مدينة اسمها «مدوسترن» تصبح قدر حيواتنا الصغيرة.

كان الصيف مثقلاً بالغبار، حين تسلمنا، فريدا وأنا، بذارنا. انتظرنا منذ إبريل /نيسان/ الرزمة السحرية التي تحتوي على مجاميع من البذار علينا أن نبيعها بخمسة سنتات لكل حزمة، وهذا ما يمكننا من شراء دراجة جديدة. صدقنا ذلك، ورحنا نقضي معظم اليوم في أرجاء المدينة لبيعها. وبالرغم من أن ماما حصرت البيع لبيوت الناس والجيران الذين

نعرفهم، فقد كنا نطرق كل الأبواب، ونـتردد علـى كـل بيـت يُفتـح لنـا: بيوت مؤلفة من اثنتي عشرة غرفة تفوح منها رائحة الدهن والبول، وبيوت خشبية مؤلفة من أربع غرف مندسة بين الشجيرات قـرب خطـوط السكك الحديدية، بيوت متفرعة عن مخازن، وشقق فوق أسواق السمك، ودكاكين قصابين، ومخازن أثاث، وصالونات، ومطـاعم، وبيـوت قرميديـة صغـيرة ذات سجاجيد مزّينة بالزهور، ومزهريات زجاجية ذات حوافٍ محزّزة.

في ذلك الصيـف، وقـت بيعنـا البـذار، كنـا نفكـر بـالفلوس، والبـذار، ونصغي نصف إصغاء لما يقوله الناس. في البيوت التي نعرفهـا كـان يطلـب منا الناس أن ندخل، فنجلس، ويقدمون لنا الماء البارد أو الليمـون. وبينمـا كنا نجلس هناك منتعشـين، كـان النـاس يواصلـون أحـاديثهم أو أعمـالهم المعتادة. شيئاً فشيئاً، بدأنا نربط معاً أجزاء قصـة سـرية، مرعبـة شـنيعة. وأدركنا بعد أن سمعنـا بالمصادفـة حديثـين أو ثلاثـة مـن هـذه الأحـاديث المبهمة، أن القصة تدور حول بيكولا. كـانت نتـف الأحـاديث تجـري إلى حد بعيد بهذا الشكل:

- «هل سمعت بخصوص تلك الفتاة؟»

- «ماذا ؟ حامل؟»

- «نعم. ولكن إحزري ممن؟»

- «ممن؟ أنا لا أعرف أولئك الصبيان الصغار المتمرسين».

- «إنهم ليسوا أولئك الصبيان. يقولون أنه كولي».

- «كولي؟ أبوها؟»

- «أي، أي».

- «يا إلهي رحمتك! ذلك الزنجي القذر».

- «تذكرين تلك المرة الذي حاول فيها إحراق البيت؟ تأكدت حينئذٍ إنه مجنون».

- «ماذا ستفعل؟ والأم؟»

- «ستبقى حالها كما هي حسب اعتقادي أما هو فقد قضي عليه»

ـ «مجلس البلدية لن يسمح لها بالاحتفاظ بذلك الطفل، أليس كذلك؟»

ـ «لاأعرف. لاأحد من عائلة بريدلوف يبدو سليم العقل. الولد كل يوم في مكان. والفتاة حمقاء».

ـ «على أية حال، لا أحد يعرف شيئاً عنهم، ولا من أين أتوا، يبدو أنهم مقطوعون من شجرة».

ـ «ماالذي جعله حسب اعتقادك يفعل هذه الفعلة؟»

ـ «هذا يحيرني. مجرد قذارة».

ـ «يجب عليهم أن يخرجوها من المدرسة».

ـ «يجب ذلك، إنها تتحمل بعض المسؤولية أيضاً»

ـ «على مهلك. إنها في الثانية عشر فقط أو مايقارب ذلك»

ـ «أي. ولكنك لاتعرفين. لماذا لا تقاومه؟»

ـ «ربما فعلت ذلك».

ـ «نعم؟ أنت لا تعرفين شيئاً».

ـ «حسناً، ربما مات الوليد. يقولون إن أمها ضربتها بطريقة ستكون محظوظة لو أنها عاشت بعدها».

ـ «ستكون محظوظة إذا مات الوليد فمن الحتمي أنه سيكون أقبح مخلوق على الأرض».

ـ «وماذا نعمل يجب أن يكون هناك قانون: شخصان قبيحان يلتقيان على ذلك النحو؟ لينجبا مزيداً من القبح. كان من الأفضل أن يكونا تحت الأرض».

ـ «حسناً، لاأبالي قيد ذرة بذلك، معجزة أن تعيش».

لم تستمر دهشتنا وقتاً طويلاً، فقد حل محلها نوع غريب من الدفاع المزوج بالحياء. كنا مرتبكتين بسبب بيكولا، مجروحتين من أجلها. وأخيراً شعرنا فقط بالحزن من أجلها. طرد الحزن من رأسينا كل أفكارنا عن الدراجة الجديدة، وأعتقد أن حزننا كان شديداً جداً لأن أي شخص آخر، كما بدا، لم يشاركنا إياه.

كانوا مشمئزين، متندرين، مصدومين، حانقين وحتى مستثارين بالقصة. سمعنا أحدهم يقول مرة: «يا للفتاة الصغيرة المسكينة» أو «يا للطفلة المسكينة»، ولكن لم تكن هناك سوى هزّة رأس حيث ينبغي أن تكون تلك الكلمات. وبحثنا عن عيون مرهقة من القلق، ولكن لم نرَ سوى براقع.

فكرت بالطفل الذي أراده الكل ميّتاً، ورأيته بوضوح في مكان مظلم رطب، كان رأسه مغطىً بقطعة كبيرة من الصوف، والوجه الأسود يحمل، عينين سوداوين صافيتين كالنيْكل، والأنف الأفطس، والشفاه الغليظة اللاثمة.

لاشراشيب اصطناعية صفراء معلقة فوق عيون زرقاء زجاجية، ولا أنف مضغوط، ولاأنف معقود.

شعرت بحاجة لأن أجد شخصاً يريد الحياة للطفل الأسود بقوة أكبر من محبتي لبيكولا ـ فقط لمعادلة الحب الكوني لدمى الأطفال البيض، شيرلي تامبل، ومورين بيلز. ولابد أن فريدا شعرت بالشيء نفسه. لم نفكر بحقيقة أن بيكولا لم تكن متزوجة. ولكن هناك كثير من الفتيات يملكن أطفالاً وهن غير متزوجات، ولم نفكر ملياً في كون أب الطفل هو أب بيكولا أيضاً. إن عملية امتلاك طفل من قبل أي ذكر هي عملية غير مفهومة لنا ـ إنها، في الأقل، تعرف أباها. فكرنا، فقط، في هذه الكراهية المدمّرة لطفل لم يولد. تذكرها السيدة بريدلوف وهي تضرب بيكولا، وتمسح دموع تلك الطفلة الدمية التي تصوّت مثل باب ثلاجتنا. تذكرنا العيون الذاعنة لتلاميذ المدرسة تحت تأثير تحديقة مَرَنغ باي، والعيون نفسها عندما تنظر إلى بيكولا. أو ربما لم نتذكر. عرفنا فقط دافعنا عن أنفسنا ضد كل شيء وكل شخص، واعتبرنا كل كلام شفرة يجب أن نحلّها، وكل أشارة خاضعة للتحليل. أصبحنا عنيدتين، مراوغتين، متعجرفتين. لم يعرنا أحد أيّ اهتمام، فركزنا اهتمامنا على أنفسنا. كان حجمنا العقبة الوحيدة أمامنا، يعطينا الناس أوامر لأنهم أضخم منا وأقوى. ولذلك قررنا بكل ثقة، مدعومة بالشفقة والكبرياء، أن نغير مجرى الأحداث، ونبدّل مسار حياة بشرية.

ـ «ماذا سنفعل يافريدا؟»

ـ «ماذا نستطيع أن نفعل؟ قالت الآنسة جونسون أن بقاءه على قيد الحياة معجزة».

ـ «إذن دعينا نقم بمعجزة»

ـ «نعم، ولكن كيف؟»

ـ «نستطيع أن نصلي».

ـ «هذا ليس كافياً. هل تذكرين آخر مرة مع الطير؟»

ـ «الأمر مختلف. كان الطير نصف ميت حينما وجدناه».

ـ «لايهمني هذا. علينا أن نعمل شيئاً أقوى هذه المرة»

ـ «دعينا نسأله أن يُبقي طفل بيكولا حياً ونوعده أن نكون فتاتين صالحتين لفترة شهر كامل».

ـ «حسناً. ولكن من الأفضل أن نتنازل عن شيء حتى يعرف أنّا كذلك حقاً هذه المرة».

ـ «نتنازل عن ماذا؟ نحن لانملك شيئاً. لاشيء ماعدا فلوس البذار دولاران».

ـ «نستطيع أن نضحي بهما، أو. هل تعرفين؟ نستطيع أن نتنازل عن الدراجة. ندفن النقود..ونزرع البذار».

ـ «كل مانملك من مال؟»

ـ «كلوديا، هل تريدين أن تفعلي ذلك أم لا؟»

ـ «حسناً..كنت أفكر فقط..حسناً».

ـ «علينا أن نفعل ذلك الآن بالضبط. سندفن النقود جنب بيتها، حتى لايكون بإمكاننا أن نذهب إليها ثانية ونستخرجها، ونزرع البذور خلف بيتنا حتى نستطيع مراقبتها، وعندما تنمو سنعرف أن كل شيء على مايرام. جيد؟»

ـ «جيد. دعيني فقط أغني هذه المرة. وقولي أنت الكلمات السحرية».

انظر انظر صديق يأتي الصديق

سيلعب مع جين سيلعبون

مع جين لعبة جيدة إلعبي جين

ـ كم مرة في الدقيقة تنعمين النظر في ذلك الشيء العتيق؟

ـ لم انظر لفترة طويلة

ـ أنت فعلت أيضاً...

ـ وماذا يعني؟ أستطيع أن انظر إذا أردت ذلك.

ـ لم أقل أنك لاتستطيعين، إني فقط لاأعرف لماذا يجب أن تنظري كل دقيقة. إنها لن تذهب إلى أي مكان آخر

ـ أعرف ذلك. إني أحب أن أنظر فقط.

ـ تخافين إنها ربما تنصرف

ـ بالطبع لا، كيف بإمكانها ذلك؟

ـ الأخرى قد اختفت

ـ لم تختفِ. لقد تغيرت

ـ ذهبت أو تغيرت. ماالفرق؟

ـ فرق كبير، قال السيد سوفيد أنها تدوم للأبد.

ـ للأبد، للأبد. آمين؟

ـ نعم، إذا أردت معرفة ذلك.

ـ لاتكوني مغرورة كثيراً عندما تتحدثين معي.

ـ لست مغرورة. أنت بدأت ذلك.

ـ أردت فقط أن أفعل شيئاً آخر بينما أنت تتأملين نفسك في المرآة أنت غيورة فقط.

ـ لست غيورة.

ـ بل غيورة. ترغبين لو أنك تملكينها.

ـ ها. كيف سأبدو بعيون زرقاء؟

ـ ليس شيئاً عظيماً.

ـ إذا استمريت في ذلك، فسأخرج وحدي.

ـ لا. لا تذهبي. ماذا تريدين أن تفعلي؟

ـ نستطيع أن نخرج ونلعب.

ـ ولكن الجو حار جداً.

ـ تستطعين أن تأخذي مرآتك معك. تضعينها في جيب السترة، وتستطعين أن تنظري إلى نفسك وأنت في الشارع.

ـ آه! لم أعتقد قط أنك غيورة إلى هذه الدرجة.

ـ أوه، تعالي.

ـ أنت

ـ أنا ماذا؟

ـ غيورة.

ـ حسناً. أنا غيورة.

ـ أنا قلت لك ذلك.

ـ لا، أنا قلت لك ذلك.

ـ هل هي جميلة حقاً؟

ـ نعم، جميلة جداً.

ـ «جميلة جداً» فقط؟

ـ عن حق وحقيق جميلة جداً.

ـ عن حق وحقيق جميلة جداً.

ـ آه يا إلهي، أنت مجنونة.

ـ لست مجنونة.

ـ لم أعن بهذا الشكل.

ـ حسناً، ماذا عنيت؟

ـ تعالي، الجو حار هنا.

ـ انتظري دقيقة. لاأستطيع أن أجد حذائي.

ـ إنه هنا.

ـ أوه، شكراً

ـ تأخذين مرآتك معك؟

ـ نعم ياعزيزتي...

ـ حسناً، دعينا نذهب إذن..أوه!

ـ ماالأمر؟

ـ الشمس قوية جداً. أنها تؤذي عينيّ.

ـ إنها لاتؤذي عينيّ. حتى أنهما لاتطرفان. أستطيع أن انظر إلى الشمس مباشرة .

ـ لا تفعلي ذلك.

ـ لماذا لا؟ أنها لاتؤذي، حتى إني لست مضطرة أن أرمش عينيّ.

ـ ولكنك ترمشين على أية حال. تجعلينني أشعر أني مضحكة وأنا انظر إلى الشمس بهذه الطريقة.

ـ كيف تشعرين أنك مضحكة؟

ـ لا أعرف.

ـ لا، أنت تعرفين.

ـ أخبرتك، لاأعرف.

ـ لماذا لاتنظرين في وجهي عندما تقولين ذلك؟ أنت تتكلمين معي وعيناك منخفضتان مثل السيدة بريدلوف

ـ السيدة بريدلوف تتكلم معك وعيناها منخفضتان؟

ـ نعم، أنها تفعل ذلك الآن. منـذ أن امتلكـت عينـين زرقـاوين، وهـي تشيح ببصرها عني. دائماً هل تعتقدين أنها غيورة أيضاً؟

ـ **ربما، فعيناك جميلتان كما تعرفين.**

ـ أعرف، لقد قام بعمل رائع حقاً. الكل غيورون.

ـ كل شخص انظر إليه، يغض بصره.

ـ **لهذا السبب لم يخبرك أحد كم أن عينيك جميلتان؟**

ـ بالتأكيد هذا هو السبب. هل تستطعين تصور ذلك؟ يحدث شيء مثل هذا لشخص، ولاأحد يخبره شيئاً حوله؟ إنهم يحاولون أن يتظاهروا بأنهم لم يرونهما. أليس هذا مضحكاً؟ أقول أليس هذا مضحكاً؟

ـ **نعم.**

ـ أنت الشخص الوحيد الذي يقول لي كم هما جميلتان.

ـ **نعم.**

ـ أنت صديقة حقيقية. أنا آسفة لأني أسأت إليك عندما قلت لك أنت غيورة.

ـ **لا، أبداً.**

ـ لا، لقد أسأت إليك. أنت أفضل صديقة لي. لماذا لم أعرفك من قبل.

ـ **لم تحتاجيني من قبل.**

ـ لم أحتاجك؟

ـ **أعني..كنت تعيسة من قبل. أعتقد أنك لم تحتاجني سابقاً.**

ـ أعتقد أنك محقّة. وحشني الأصدقاء كثيراً. أنت محقة بخصوص هذه النقطة، قبل أن أمتلك عينّي الزرقاوين.

ـ **لا يا حبيبتي، بعد أن امتلكت عينين زرقاوين.**

ـ ماذا؟

ـ **ماهو رأي مورين بعينيك؟**

ـ لم تقل أيّ شيء. هل قالت لك شيئاً حولهما؟

ـ **لا، لاشيء.**

ـ هل تحبين مورين؟

ـ آه، لابأس بها، لابأس بالنسبة لفتاة نصف بيضاء أعرف ماذا تعنين. ولكن هل تحبين أن تصبحي صديقتها؟ أعني هل تحبين أن تتجولي معها هنا وهناك؟

ـ **لا.**

ـ ولا أنا. ولكن لها شعبية بالتأكيد.

ـ **من يحب أن يكون شعبياً؟**

ـ ليس أنا.

ـ **ولا أنا.**

ـ ولكنك لاتستطيعين أن تكوني شعبية، فأنت لاتذهبين حتى إلى المدرسة.

ـ **وأنت كذلك.**

ـ أعرف. ولكني كنت أذهب إلى المدرسة.

ـ **لماذا توقفت؟**

ـ لقد أوقفوني.

ـ **من أوقفك؟**

ـ لاأعرف، بعد ذلك اليوم الأول في المدرسة عندما امتلكت عينيّ الزرقاوين. في اليوم التالي استدعوا السيدة بريدلوف. والآن لاأذهب إلى أي مكان. ولكني لا أهتم.

ـ **لاتهتمين؟**

ـ لا، لا أهتم. إنهم متحاملون عليّ. هذا كل ما في الأمر.

ـ **نعم، إنهم متحاملون عليك بالتأكيد.**

ـ فقط لأنني أملك عينين زرقاوين، أكثر زرقة من عيونهم.إنهم متحالون.

ـ **هذا صحيح.**

ـ عيناي أكثر زرقة. أليس كذلك؟

ـ أوه، أكثر زرقة بكثير.

ـ **أكثر زرقة بكثير.**

ـ أكثر زرقة من عينيّ جوانا؟

ـ أكثر زرقة من عينيّ ميشيلينا؟

ـ **أكثر زرقة بكثير.**

ـ أعتقد ذلك. هل قالت لك ميشيلينا شيئاً حول عينيّ؟

ـ **لا، لاشيء.**

ـ وهل قلت أنت لها شيئاً؟

ـ **لا.**

ـ كيف ذلك؟

ـ **ماذا كيف ذلك؟**

ـ كيف لم تخبري أي شخص؟

ـ **تحدثت معك أنت.**

ـ بالإضافة إليّ.

ـ **أنت الوحيدة التي أحبها.**

ـ أين تسكنين؟

ـ **أخبرتك مرة.**

ـ ماسم أمك؟

ـ **لماذا تتدخلين في شؤوني؟**

ـ إني اتساءل فقط. أنت لاتتحدثين لأيّ شخص. لاتذهبين إلى المدرسة. ولا أحد يتحدث إليك.

ـ **كيف تعرفين أنه لايتحدث معي أحد؟**

ـ إنهم لايتحدثون معك. حتى السيدة بريدلوف لاتتحدث معك عندما تكونين معي في البيت. أبداً، واتساءل أحياناً إذا كانت تراك .

ـ **لماذا لاتراني؟**

ـ **كذلك؟** ـ لاأعرف. إنها تعاملك بازدراء تقريباً.

ـ ربما إنها ليست بحالة جيدة منذ رحيل كولي.

ـ أوه، نعم، لابد أنك محقة.

ـ على الأغلب إنها تفتقده.

ـ لاأعرف لماذا. كل ماكان يفعله هو أن يسكر ويضربها.

ـ أنت تعرفين كم كانا كبيرين.

ـ نعم، لا، كيف كانا؟

ـ حسناً، على الأرجح أنها كانت تحبه.

ـ هو؟

ـ بالتأكيد، لم لا؟ وعلى أية حال، إذا لم تكن تحبه، لِمَ دعته يفعل ذلك معها.

ـ هذا لايدل على شيء.

ـ كيف تعرفين.

ـ كنت أراهم طوال الوقت. لم تكن تحب ذلك.

ـ إذن، لماذا كانت تدعه يفعل ذلك معها؟

ـ لأنه كان يجبرها.

ـ كيف يمكن أن يجبرك أي شخص على فعل مثل هذا الشيء؟

ـ شيء بسيط.

ـ أوه، نعم؟ كيف بسيط؟

ـ يجبرونك على ذلك، هذا كل ما في الأمر.

ـ أعتقد أنك محقة. وكولي يستطيع أن يجبر أي شخص على القيام بذلك.

ـ لا، لايستطيع.

ـ ولكنه عملها معك؟ أليس

ـ إخرسي!

ـ حسناً، حسناً.

ـ لقد حاول فقط، ألا تفهمين؟ لم يفعل أي شيء. هل تسمعينني؟

ـ لقد خرست!

ـ دائماً تتحدثين أحاديث بذيئة. وعلى أية حال، من قال لك ذلك؟

ـ نسيت!

ـ سامي؟

ـ لا، أنت أخبرتني.

ـ لم أخبرك.

ـ أخبرتني. قلت أنه حاول أن يفعلها معك عندما كنت نائمة على الأريكة.

ـ انظري! أنت لاتعرفين حتى عما تتكلمين. حدث ذلك عندما كنت أغسل الصحون.

ـ أوه، نعم، الصحون.

ـ كنت أغسلها بنفسي. في المطبخ.

ـ أنا سعيدة لأنك لم تسمحي له أن يفعل ذلك.

ـ نعم.

ـ هل، هل فعلت؟

ـ فعلت ماذا؟

ـ سمحت له.

ـ الآن، من المجنونة؟

ـ اعتقد أنها أنا.

ـ أنت بالتأكيد.

ـ هل مايزال...

ـ استمري، مايزال ماذا؟

ـ أتساءل كيف تبدو العملية؟

ـ مرعبة.

ـ حقاً؟

ـ نعم. مرعبة

ـ إذن لماذا لم تخبري السيدة بريدلوف.
ـ لقد أخبرتها.
ـ لا أعني في المرة الأولى. أعني في المرة الثانية عندما كنت نائمة على الأريكة.
ـ لم أكن نائمة. كنت أقرأ.
ـ لاحاجة للصراخ.
ـ أنت لاتفهمين أي شيء. إنها حتى لم تصدقني حين أخبرتها بذلك.
ـ وهل هذا هو السبب أنك لم تخبريها حول المرة الثانية؟
ـ ماكانت لتصدقني حينها أيضاً.
ـ أنت محقة. لاتوجد فائدة من إخبارها عندما لاتصدقك.
ـ هذا ما أحاول أن أوصله لدماغك الثخين.
ـ حسناً، فهمت الآن، تقريباً.
ـ ماذا تعنين بـ«تقريباً»؟
ـ أنت حقيرة هذا اليوم.
ـ أنت تستمرين بقول أشياء حقيرة وجبانة. كنت أتصور أنك صديقتي.
ـ أنا صديقتك، صديقتك.
ـ إذن لاتذكري شيئاً بخصوص كولي.
ـ حسناً، حسناً.
ـ على أيّة حال، لايوجد شيء أكثر يمكن قوله حوله، فقد ذهب.
ـ نعم، تخلصنا منه.
ـ نعم، تخلصنا منه.
ـ وسامي ذهب أيضاً.
ـ وسامي ذهب أيضاً.
ـ لاتوجد جدوى في الحديث عن ذلك. أقصدهم.
ـ لاتوجد جدوى أبداً.
ـ كل شيء انتهى الآن.

ـ نعم.
ـ وليس عليك أن تخافي أن ينالك كولي.
ـ لا.
ـ كان أمراً مرعباً، أليس كذلك؟
ـ نعم.
ـ المرة الثانية أيضاً؟
ـ نعم
ـ حقاً؟ المرة الثانية أيضاً؟
ـ اتركيني وحدي. من الأفضل أن تتركيني وحدي.
ـ ألا تتحملين نكتة؟ كنت أمزح فقط.
ـ لاأحب الحديث عن الأشياء البذئية.
ـ وأنا كذلك. لنتحدث عن شيء آخر.
ـ عن ماذا؟ عن أي شيء سنتحدث؟
ـ عن عينيك.
ـ أوه، حسناً، عن عينيّ. عن عيني الزرقاوين. دعيني أنظر ثانية.
ـ انظري كم هما جميلتان.
ـ نعم، يصبحان أكثر جمالاً كلما نظرت إليهما.
ـ إنهما أجمل عينين رأيتهما في حياتي.
ـ حقاً؟
ـ أوه، نعم.
ـ أكثر جمالاً من السماء؟
ـ أوه، نعم. أكثر جمالاً بكثير من السماء.
ـ أجمل من عيون أليس وجيري في قصص الأطفال؟
ـ أجمل من عيون أليس وجيري في قصص الأطفال.
ـ أجمل من عيون جوانا؟
ـ أوه، نعم، وأكثر زرقة.

ـ أكثر زرقة من عيون ميشيلينا؟

ـ نعم.

ـ متأكدة؟

ـ بالطبع متأكدة.

ـ يبدو أنك غير متأكدة...

ـ حسناً، أنا متأكدة، ماعدا...

ـ ماعدا ماذا؟

ـ أوه، لاشيء. كنت أفكر بسيدة رأيتها أمس عيناها زرقاوان. ولكن لا. ليس أكثر زرقة من عينيك.

ـ متأكدة؟

ـ نعم. أتذكرهما الآن. عيناك أكثر زرقة.

ـ أنا سعيدة.

ـ أنا أيضاً. أكره أن أعتقد أن هناك أي شخص هنا يملك عينين أكثر زرقة من عينيك. أنا متأكدة أنه لايوجد أي شخص. على أية حال، ليس حوالينا.

ـ ولكنك لاتعرفين، هل تعرفين؟ أنت لم تري كل الناس هنا، أليس كذلك؟

ـ لا، لم أر كل الناس.

ـ إذن ربما هناك شخص.

ـ غير ممكن.

ـ ولكن ربما. ربما. أنت قلت «حوالينا». من الأرجح أن لا أحد حولنا يملك عينين أكثر زرقة. ولكن ماذا في مكان آخر؟ حتى لو كانت عيوني أكثر زرقة من عيون جوانا. وأكثر زرقة من عيون ميشيلينا، وأكثر زرقة من عيون السيدة التي رأيتها أمس، هل تفترضين أن هناك شخصاً ما في مكان ما ذو عيون أكثر زرقة من عيوني؟

ـ لاتكوني حمقاء.

ـ ولكن قد يكون هناك شخص. هل ممكن أن يكون هناك شخص؟

ـ غير ممكن.

ـ ولكن افترضي. افترضي في مكان بعيد. في«سينسيناني»، مثلاً، هناك شخص بعينين أكثر زرقة من عيوني.؟ افترضي أن هناك «شخصين» بعيون أكثر زرقة من عيوني؟

ـ وماذا يعني ذلك؟ لقد طلبت عيوناً زرقاء. وحصلت على عيون زرقاء.

ـ كان ينبغي عليه أن يجعلهما أكثر زرقة؟

ـ من ؟

ـ السيد سوفيد.

ـ هل قلت له أي لون أزرق تريدين؟

ـ لا، لقد نسيت.

ـ أوه، حسناً.

ـ انظري، انظري هناك، إلى تلك الفتاة. انظري إلى عينيها. هل هما أكثر زرقة من عينيّ؟

ـ لا، لا أعتقد ذلك.

ـ هل نظرت جيداً؟

ـ نعم.

ـ أتى شخص آخر. انظري إليه. انظري إذا كانت عيناه أكثر زرقة.

ـ أنت حمقاء. لن أنظر إلى عيون كل شخص يمر.

ـ ينبغي أن تفعلي.

ـ لا، لن أفعل.

ـ رجاء، إذا كان هناك شخص بعينين أكثر زرقة من عينيّ، فهذا يعني أنه ربما هناك شخص يملك العينين الأكثر زرقة، العينين الأكثر زرقة في العالم كله.

ـ أصبح الأمر سخيفاً، أليس كذلك.

ـ رجاء ساعديني أن اكتشف ذلك.

ـ لا.

ـ ولكن افترضي أن عينيّ ليستا زرقاوين بما فيه الكفاية.

ـ **بما فيه الكفاية لأي شيء؟**

ـ زرقاوان بما فيه الكفاية لـــ...لا أعرف، زرقاوان بما فيه الكفاية لشيء ما، ما فيه الكفاية ....لك!

ـ **لن ألعب معك أكثر من ذلك.**

ـ أوه، لا تتركيني.

ـ **نعم، سأتركك.**

ـ لماذا؟ هل أنت غاضبة عليّ؟

ـ **نعم.**

ـ لأن عينيّ ليستا زرقاوين كفاية؟ لأنني لا أملك العينين الأكثر زرقة؟

ـ **لا، لأنك تتصرفين بحماقة.**

ـ لاتذهبي. لاتتركيني. هل تعودين إذا حصلت عليهما؟

ـ **إذا حصلت على ماذا؟**

ـ على العنين الأكثر زرقة. هل تعودين حينئذٍ؟

ـ **بالطبع، سأعود. سأذهب لفترة قصيرة فقط.**

ـ تعدينني بذلك؟

ـ **بالتأكيد. سأعود. سأكون فوراً أمام عينيك الزرقاوين بالضبط.**

وهكذا كان.

فتاة صغيرة سوداء تتهلف على العينين الزرقاوين لفتاة صغيرة بيضاء والرعب في صميم هذه اللهفة لاتفوقة سوى مصيبة تحقق ذلك.

كنا، فريدا وأنا، نراها أحياناً بعد أن جاء الطفل قبل أوانه، ومات، بعد النميمة وهزّات الرؤوس البطيئة. كان من المحزن جداً أن نراها. أشاح الكبار أبصارهم عنها، وضحك الأطفال ـ أولئك الذين لم يكونوا مرتعبين منها ـ علناً عليها.

كان الضرر شاملاً. قضت أيامها، أيامها الذاوية،ماشية جثية وذهاباً، جثية وذهاباً ورأسها يهتزّ استجابة لضربات طبلٍ بعيد جداً لاتسمعه إلا هي. كانت تحرك ذراعيها مثل مدراسين، ومرفقاها منحنيان ويداها على الكتفين، كطائر يجهد أن يطير في محاولة لانهائية باعثة على السخرية، وبلا جدوى. يضرب الهواء، طائر ذو جناحين ولكنه مسمرّ بالأرض، يروم فضاء أزرق لايستطيع أن يصله ـ ولا يستطيع حتى أن يراه ــ ولكنه يملأ تجاويف رأسه.

حاولنا أن نراها دون أن ننظر إليها، ولم نقترب قطّ، منها. ليس لأنها معتلة العقل، أو منفرّة، أو أننا نخاف منها، لأننا خذلناها. لم تنمُ زهورنا قط، اقتنعت أن فريدا كانت محقة، وأنني قد زرعتها عميقاً في الأرض أكثر مما ينبغي. كيف كنت مهملة بهذا الشكل؟ وهكذا تجنبنا بيكولا بريدلوف ـ للأبد.

وانطوت السنوات مثل منديل. ترك سامي المدينة منذ وقت طويل، ومات كولي في ملجأ للفقراء، وماتزال السيدة بريدلوف تقوم بأعمالها المنزلية. أما بيكولا فهي في مكان ما في ذلك البيت الرمادي الصغير الواقع في أطراف المدينة، الذي انتقلت إليه هي وأمها، حيث يستطيع المرء أن يراها بين فترة وأخرى، تقلع عبّاد الشمس أو تلتقط إطارات العجلات، بين قناني الكولا والصقلاب، وسط كل نفايات وجمال العالم ـ الذي كانته هي نفسها. كل نفاياتنا التي أفرغناها عليها وامتصتها. وكل جمالنا الذي كان ملكها أولاً وأعطته لنا، كلنا ـ كل من عرفها ــ شعر بالراحة بعدما فرّغنا أحشاءنا فوقها. كنا نشعر أننا جميلون جداً عندما كنا نقف ونتفرج على قبحها. بساطتها زخرفتنا، وذنبها كرّمنا، وجعلنا ألمها نتورد صحةً، وجعلتنا حيرتها نظن أننا نملك روح الدعابة عيّها جعلنا نعتقد أننا بليغون. فقرها جعلنا كرماء. وحتى أحلام يقظتها استخدمناها ــ لإخراس كوابيسنا. وهي دعتنا نفعل وبذلك استحقت احتقارنا. شحذنا ذواتنا بذاتها، وحشونا شخصياتنا بهشاشتها، وفغرنا أفواهنا في وهم قوتنا.

وكان هذا الوهم، لأننا لم نكـن أقويـاء، عدائيـاً. لم نكـن أحـراراً، بـل لامسؤولين، لم نكن عطوفين بل كيّسين، ولسنا طيبين، بل حسني السلوك راودْنـا المـوت حتـى ندعـو أنفسـنا شـجعان، واختبأنـا، مـن الحيـاة، كاللصوص. استبدلنا القـاعدة الجيـدة بالفطنـة، حولنـا العـادات إلى نضـج زائـف، أعدنـا ترتيـب الأكـاذيب وسميناهـا الحقيقـة، ورأينـا في القـالب الجديد لفكرة قديمة الكشف والكلمة

على أيّة حال، اندفعت نحو الجنون، الجنون الذي حماها منـا لأنّـه، ببساطة، كان يضجرنا.

أوه. أحبها بعضنا. أحبتها ماجينو لاين، وأحبها كولي. أنا متأكدة أنـه أحبها. إنّه، على أية حال، الوحيد الذي أحبها درجة لمسها، وتطويقها، وإعطائها شيئاً منه. ولكن لمسته كانت مميتة، والشيء الـذي أعطاهـا إيـاه ملأ نسيج احتضارها بالموت. الحـب يكـون دائماً علـى شـاكلة المحـب. فالناس الشريرون يحبون بشر، والعنيفون يحبون بعنف، والضعفاء يحبـون بضعف، والأغبياء يحبون بغباء، ولكن حب رجل حرّ ليـس مأمونـاً أبـداً. لاتوجـد هنـاك هبـة للمحبـوب. المحـب وحـده يملـك هبتـه مـن الحـب. المحبوب يُجزّ، يُبطل، يُجمدّ في جليد عين المحب الداخلية.

والآن عندما أراها تبحث في النفايات ـ عـن مـاذا؟ عـن الشـيء الـذي اغتلناه؟ أتحدث عن عدم زراعتنا البذور عميقاً، وكيف أنّ ذلك كـان خطـأ الأرض، والتربة، وخطأ مدينتنا. أفكر حتى بأن أرض البـلاد كلهـا كـانت عدائية تجاه أزهار القطيفة تلك السنة. هذه التربة غير صالحة لهذا النـوع من الأزهار. إنها لن ترعى بذوراً معينة، ولن تحمل فاكهة معينـة، وحـين تقتل الأرض خيارها هي، فإننا نذعن ونقول أن الضحية لم يكن من حقهـا أن تعيش. نحن، بالطبع، مخطئون، ولكن ذلك لايهم. فات الأوان، علـى الأقل، في أقصى أطراف مدينتي، بين النفايات وعباد الشمس في مدينـتي، فات الأوان كثيراً، كثيراً، كثيراً.



بهذه الرواية بدأت توني موريسون مسيرتها الروائية عام ١٩٧٠ وهي تقترب من الأربعين، وقد صدرت بعد روايتها هذه مجموعة من الروايات: سولا (١٩٧٤) أغنية سليمان (١٩٨٧)، طفل القطران (١٩٨١)، محبوبة (١٩٨٧) ـــ وجاز (١٩٩٢)، بالإضافة إلى أعمالها الأخرى.

وقد ورد في حيثيات حكم اللجنة الملكية السويدية التي منحت موريسون جائزة نوبل (١٩٩٣) أن هذه الروائية الأمريكية قد بعثت الحياة في جانب هام من الواقع الأمريكي في رواياتها المتميزة بالخيال الجامح والمضمون الشاعري.

تقول توني موريسون محددة هدفها من الكتابة: «كنت مهتمة بقراءة كتاب لم أستطع إيجاده، وأصبح مهماً جداً أن أكتبه ثم أقرأه! وأدركت وأنا أكتبه أنني أخطأته. كنت مقتنعة أن كل ما كنتُ أريد أن أقرأه قد كتب، وأدركت أن ذلك لم يكن صحيحاً!».

وقد قال عنها مارتن سيمور في «دليل الأدب العالمي» أنها أهم روائية سوداء في أمريكا منذ رالف اليسون.